مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

# سَلا ورباط الفتح

## أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

---

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

**الجزء الخامس**

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

# سَلا ورباط الفتح

## أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

---

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

## الجزء الخامس

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

# أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم : عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد : عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الجلسات : إدريس العلوي العبدلاّوي
مدير الشؤون العلمية : أحمد رمزي



**العنوان** : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

**تليفون** 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

**البريد الإلكتروني** : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

**فاكس** 75.51.01 (037)


---


**الكتاب** : «سَلا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

**تأليف** : جعفر بن أحمد الناصري

**تحقيق** : أحمد بن جعفر الناصري

**التصفيف الضوئي** : أكاديمية المملكة المغربية

**السحب** : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

**الإيداع القانوني** : 2006/1337

**ردمك** : 9981-46-042-7 (المجموعة)

**ردمك** : 9981-46-048-6 (الجزء الخامس)

# الفصل الأول

---

## عن كيفية نشأة
## الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي،
## وأنواع سفنه، وكيفية تجهيزه،
## وعن قرصنته، وأسبابها،
## وموجباتها، وأقسامها، وأطوارها.

# المبحث الأول

# الأسطول المغربيُّ بسلا ورباط الفتح
# ونشأته وقرصنته وتطوّره بأبي رقراق

**تمهيد**

استعرضنا فيما تقدّم جملة من أخبار الأسطول المغربي وما كان له من رفعة شأن، وعزّ وضخامة وسلطان، أثناء الدول والممالك التي تعاقبت على هذا المغرب العربي، وأنه كانت له السّيطرة على البحريْن : المتوسط والأطلنطيقي، وتحسب له الأمم التي على سواحلهما حسابه، وتخاف سطوته، وتتّقي بطشته، وتستحضر في كلّ حال من الأحوال، أو معركة من المعارك هيبته، إلى آخر الدّولة السّعدية، لمّا سقطت مملكة غرناطة، وانتهى أمر المسلمين بالأندلس، واختلّت الأحوال بالمغرب الأقصى، وتناول العدوّ جلّ سواحله ومراسيه واحتلّها، واستولى على أطرافه من البوغاز إلى الصحراء فاستعمرها، وطرد باقي المسلمين من الأندلس، وتفرّقوا في أطراف البلاد الإسلامية، ونزلت جماهير منهم بالعدوتيْن الرّقراقيتيْن، الشمالية والجنوبية، أو السلاوية والرباطية، كما تقدّم بيانه وتفصيله وتحصيله، فاتّخذوهما دارا، وملْجأً وقرارا، وقلوبهم تتأجّجُ نارا، لا يهنأُ لهم بال، ولا يطمئنُّ لهم حال من الأحوال، حتّى يملؤوا هذا المصبّ سفناً قُرصانية ينتقمون بها من العدو انتقاما، ويأخذون منه ثارا، ولسان حالهم يقول، ما قاله في معلّقته عمرو بن كلثوم :

وَنَشْــرَبُ إنْ وَرَدْنَا المَــاءَ صَـفْـواً ... ويَشْــرَبُ غـيْــرُنا كَـدَرًا وَطِينَا
مَــلأْنَا البَـرَّ حـتى ضَـاقَ عنَّا ... ونَحْنُ البَـحْـرَ نَمْلَؤُهُ سَــفِـينَا
إذَا بَلَغَ الرَّضِــيعُ لَنَا فَطِيــمًــا ... تَخِـرُّ لَهُ الجَـبَـابِرُ سَـاجِـدِينَا

أو ما قاله عفيفٌ بن منذر التّميمي لمَّا غزا البحر مع العلاء بن الحضرمي من فارس إلى البحرين في وقعة طاووس :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّه ذَلَّلَ بَحْــــــرَهُ      وأَنْزَلَ بالكُفَّــارِ إِحْــدَى الجَــلائِلِ
دَعَــوْنَا الذِي شَقَّ البِحارَ فَجاءَنَا      بأعْظَمَ مِنْ فلْقِ البِــحــارِ الأَوَئِلِ

أو ما قاله مالك بن عامر يحضُّ المسلمين على عبور البحر :

أمْضـوا فـإنَّ البَحرَ غيـر مـامُـورْ      والأوّلُ القَــاطِعُ منكُمْ مَــاجُــورْ
قَـدْ خَــابَ كِـسْـرَى وأبُوهُ سَـابُورْ      مَـا تَصْنَعُـونَ والحـديثُ مَـاثُورْ

ولا يخفى أنَّ العمران الثُّلاثيَّ المتكوّن على مصبّ أبي رقراق من القصبة ورباط الفتح وسلا، يُعدُّ مركزاً استراتيجياً ذا أهمية عُظمى، لأنَّه مفتاح المملكة المغربية، والحاكم على المحيط الأطلانطيقي سواءً من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الحربية، لأنَّ مجرى هذا النهر الرّقراقي فاصل طبيعي بين شمال المغرب وجنوبه.

ولقد قامتْ في شمال هذا المجرى الطبيعي ممالك مستقلّة، كان يُطلق عليها مملكة فاس.

كما قامتْ في جنوبه ممالك أخرى مستقلة أيضاً كانت تُدْعى مملكة مرّاكش، وطالما كان حاجزاً فاصلاً بين عاصمتيْ الشّمال والجنوب، حتّى اضْطرّ الملوك في بعض الأحيان إلى مجاوزته من مجازه الأخير من النّاحية الشمالية الغربية، أثناء انتقالاتهم بين العاصمتيْن : الفاسية والمرّاكشية.

ولم يكُنْ ذلك من أجل الحواجز الطبيعية فقط، ولكنّه كان في الحقيقة أيضاً من أجل القبائل الضّاربة أطنابها حول مجراه شمالاً وجنوبا، ومحاربة بعضها لبعض في غالب الأحيان، حِرْصاً على انعزالها، واعتزازها بسلطتها وعوائدها وأخلاقها، وطمعاً في بقاء سيّادتها بيدها.

وكان الملوك في غالب الأحيان يُقدّمون أمامهم فرقاً من جيوشهم، لتمهيد طريقهم، أو يتولّوْن هم أنفسهم تاديبهم، وإخضاعهم للسُّلطة المخزنية، والتزام الطّاعة والتّمسك بحبلها المتين، ليجمعوا بين المملكتين. ولذلك اعتنى بهذا المصب الموحّدون، وشيّدوا عليه قصبتهم ورباطهم، واتّخذ به بنو مرين بشالة أضرحة ملوكهم، وشيّدوا بها الكثير من مآثرهم الخالدة.(1)

1) "Le Maroc d'autrefois et les Corsaires de Salé" par de Castries, p. 6

وعلى كل حال فإنّ الكتلة السلاوية الرباطية القائمة والموجودة على هذا المصب من جانبيه الشمالي والجنوبي، بعض أُسَرِها ورؤسائها وأعيانها، أصلهم من تلك القبائل النازلة على طول مجراه.

وجلُّهم من مهاجري الأندلس، وبعضهم من فاس العاصمة المرينية، وهم أشدُّ ارتباطاً بها، لكونه مرْساها الحقيقي وقت الهجرة، ومنفذها إلى الخارج، لأنَّ مراسي الشمال التي على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ومراسي الغرب التي على شواطئ المحيط الأطلسي، كلّها كانت محتلة بالإصبان والبرتغال وحتّى الإنجليز بطنجة حيناً من الدهر.

وهم مطبوعون بطابع الحضارة الأندلسية، كالفاسيين، ويمثلونها في سائر مظاهرها من بناء وفرش وأثاث ورياش وغير ذلك.

هؤلاء هم القوم الذين كوّنوا الأسطول المغربي، ورفعوا رايته في ذلك العهد، وزلزلوا به أوروبا زلزالاً شديدا ما يزيد على مائتي سنة، ومنهم كان الأميرالات والرُّؤساء والبحّارة والقراصنة.

ولأجل هذا اتّخذ الموحدون وبنو مرين بعدهم هذا المصبَّ وما حوله مركزاً لأساطيلهم، وبنوْا به دار صناعة سُفنهم، ومنه كانت تغدو وتروح إلى الأندلس وغيرها كما تقدّم.

والحاصل أنّه لمّا حلّتْ الجالية الأندلسية بهذا العمران المتكون على هذا المصبِّ، وجدته أحسن وأمكن مكان تأوي إليه، وتكوّن به أسطولها القرصانيّ الذي سياتي الحديث عنه .

وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف اشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» بقوله :[2]

فَـخَـرَجَتْ جَـالِيَـةُ الأنْدَلُسِ ... وحَـلَّـتِ الـربـاطَ فـي تَـأَنُّـسِ

فَـأنْشَـأَتْ سُـفُنَهَـا الكِبـارَا ... وأرْكَـبَتْ جُـمْـهُـورَهَا المُـخْـتـارَا

يَرْأَسُـهُمْ سَـعِـيـدُ الدُّغـالِي[3] ... يَخُـوضُ لُجَّ البَـحْـرِ في اخْـتِـيَالِ

وكان أول شيء قامت به والمغرب إذ ذاك في حال اضطراب وفتن بكل ناحية أنْ كوّنتْ حكومة منفصلة عن الحكومة السّعدية المُراكشية أطلق عليها الأوربيون «الجمهورية السلاوية»، حسبما تقدّم الكلام على ذلك بإيضاح وبيان.

---

2) ورقة 22 من الأصل المصور بالمكتبة الناصرية السلاوية.

3) قيل أصله من غرناطة، من البيّازين.

قالَ الأبُ دَانْ (Père Dan) في كتابه «تاريخ البلاد البربرية وقرصنتها بممالك ومدن الجزائر وتونس، وسلا» :[4]

كانت سلا الجديدة، أو الرباط، معمورة بالموريسكُوسْ، ومنهم كان يُنْتَخَبُ أعضاء الدّيوان والقوّادُ الذين تكون بيدهم سلطة الحكم، ويسكن معهم جمهور كبير من الأتراك ومن المسيحيين الداخلين في الإسلام، وهؤلاء لم يكن لهم حقٌّ في المشاركة في الانتخاب ولا في تقلُّد سلطة الحكم، وحسبهم أنْ ينالوا وظيفة رياسة الأساطيل القُرصانية، والقيام بالأعمال الفنية، والتّجنُّد فيها، ولهم حقُّ التجارة فيما يجلبونه من السِّلع من الخارج، ويؤدّون عنها العشر للديوان، وهم المسؤولون عمّا بأيديهم، وما يقومون به من الأعمال التجارية التي يؤدّون حسابها للديوان كلّ ثلاثة أشهر.

ثم قال : وكان لباس الرّجال والنّساء بسلا والرباط تركياً، وكانت مساجدهم جميلة نقيّة...

وانضمّ إلى هؤلاء الأندلسيين النازلين حول هذا المصبّ، من كان هاجر قبلهم من إخوانهم.

وباتّحادهم مع الأتراك ومسلمة النّصارى، شجّعوا القرصنة السلاوية الرباطية، وأعانوا عليها لمعرفتهم بها، ومزاولتهم لها قبل ذلك.

وانضمّ إليهم أيضاً جمٌّ غفير من أولئك المغاربة المتقدّم ذكرهم، المجاورين للعدوتين، الضاربين أطنابهم حول الضِّفّتيْن، شمالاً وجنوبا، رغبةً في الغنائم وطمعاً في الرّبح، وهؤلاء هم المرتزقة، ومن مجموعهم تكوّن الجيش البحري السلاوي الرباطي. اهـ.

وجاء في كتاب «المدن والقبائل المغربية، الرباط وناحيته»، ما معناه ببعض تصرّف :[5]

إنّ القرصنة ظهرت أوّلاً بالجزائر، وتونس، وطرابلس أوائل القرن السادس عشر للميلاد (القرن العاشر الهجري)، وانتشرت بالبحر الأبيض المتوسط، وانتشر معها اسم خير الدين باشا، وبابا عرّوج.

وكانت مدينة سلا، يعني والرباط، في ذلك العهد معروفة عند الأوربّيين بسكونها واطمئنانها، وأنّها مركز تجاري مهمٌّ، ينتابه تجّار جنوة، وبيزة، وفلورانس، منذ القرون الوسطى، ويتبادلون فيها سلع بلادهم بمنتوجات المغرب.

---

4) ص 210، طبع باريس، سنة 1649 (1059).

5) "Villes et Tribus du Maroc, Rabat et sa Région", T. 1, p. 129 et suivantes.

ومنذ السنين الأولى من القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) تغيرت الحالة، وأصبحت سلا ورباطها مركزاً مخوفاً من أوكار القرصنة التي بثّتْ الرُّعب في الخارج ما يزيد على قرنين من الزمن.

وذلك لمَّا لجأ إلى العدوتين مهاجروا الأندلس بعد صدور مراسم الطّرد سنة عشر وستّمائة وألف (1019/1610).

ولمّا نزلوا بالرباط، كانوا يحملون في صدورهم غِلاً وحقداً وعداوة للإصبان الذين طردوهم من بلادهم، وشتّتوا شملهم، وفرّقوا جمعهم، فأجمعوا على الانتقام منهم بكلِّ ما في وُسعهم من حوْل وقوّة.

واتّفقوا على أنْ لا يكون ذلك إلاّ بواسطة القرصنة والإغارة على الشواطئ البحرية الإصبانية، لِمَا في ذلك من الأرباح المادية من الأموال والمتاع والأسرى الذين لا يتمُّ فداؤهم إلاّ بالأموال الطائلة.

ولمّا تمّ هذا القرار، واستقرّ هذا العزم، وشاع وداع، انضمّ إليهم الجمّ الغفير من المغامرين والقراصنة الذين جاؤوا إليهم من الجزائر وغيرها، والمحكوم عليهم والدّاخلين من البحّارة في الإسلام من الأجانب، حتّى كاثروا السّكان الأصليين، وصاروا يُعدُّون أقلية بالنسبة إليهم.

وباحتماع هؤلاء المهاجرين ومن هاجر إليهم، ظهرت الرباط بمظهر آخر، وامتازت عن غيرها من مدن أخرى باختلاف الأجناس، واللُّغات واللِّباس، وغير ذلك من العوائد والأخلاق المتلائمة والمتباينة.

وكانت الملاحة الدولية بين الهند والشرق والغرب مضطرّة إلى المرور من رأس الرّجاء الصّالح، ولا يُمكنها ذلك إلاّ بواسطة بوغاز جبل طارق، ولا يخفى ما كانت تحمله هذه السفن من السّلع المختلفة الأنواع والمواد والعدد، والأثاث والرياش الشرقية والغربية التي يتشوّف إليها القراصنة، ويسيل من أجلها لُعابُهم، لِمَا فيها من الأرباح التي لا قيمة توازيها، زيادة على غرابتها ونفاستها.

وفي الغالب كانت هذه السفن غير مسلّحة، لأنّها تجارية وليست حربية.

ثمّ قال : وممّا ساعد على نشوء واستفحال القرصنة السلاوية الرباطية، موقع هاتين المدينتين الجغرافي من المغرب، ووضعيتهما عن يمين وشمال المصب الرقراقي في البحر كما تقدّم.

وتوجّهت لهما الأنظار لماضيهما التاريخي في عهد الدُّول المغربية السابقة، وأنّ دار صناعة الأساطيل تكوّنت في عهد الموحدّين، وعظُم شأنها في عهد بني مرين، وهي موجودة بسلا، ومنها كانت تُجهّز السُّفن للغزو والحروب الجهادية بالأندلس، وجُزُر البحر الأبيض المتوسط، ومرسى العُدوتيْن هي المرسى الوحيدة التي بقيت سالمة من الاحتلال البرتغالي الإصباني للشواطئ المغربية في ذلك العهد .

زيادة على أنَّها لا تبعد عن البوغاز إلاّ بنحو خمسين ليوه "Lieues" فقط(6)

ولمْ يكن المصب وامتلاؤه بالرّمال وصعوبته وخصوصاً في فصل الشتاء حائلاً دون فكرة إنشاء القرصنة السلاوية الرباطية، لاتِّخاذ الاحتياطات اللاّزمة لذلك، بأنْ تكون السفن متوسطة في العُمق والطّول والحمل، ليمكنها أن تتجاوز المصبّ في كلّ وقت وحين، ويكون الوادي ملجأً لها يقيها من هجوم السُّفن الأجنبية عليها لعدم استطاعتها مجاوزة حاجز المصبّ. اهـ.

## ما تتطلبه القرصنة وتستوجبه

هذا، وتستوجبُ وتتطلّب حرفة القرصنة وممارستها أموراً كثيرة،

- منها، جمع البحّارة والرّؤساء الماهرين والنُّوتية والخدمة...
- ومنها السلاح الكافي الواجب استعماله في السفن البحرية الحربية من مدافع وغيرها.
- ومنها تعيين المناطق والسواحل البحرية التي ستجري فيها القرصنة.
- ومنها، وهي أعظمها، ما يتّصفُ به أولئك الرؤساء والبحارة من الحيل الحربية البحرية، والتصرُّف فيها، وإنجازها عند الحاجة إليها، وعدم تضييع الوقت الذي يتسبّبُ عنه ضياع الفرصة والمعركة...

وقد كان العمل جارياً باتّخاذ الجذّافين في السُّفن من الأسرى المسلمين بأوروبا، ويمنعونهم من الوصول إلى دفّة السفينة أو بيت الإبرة. وفي أثناء المعارك كانوا يثقلونهم بالسلاسل والأغلال.

6) فسّروه في المعاجم الفرنسية بفرسخ، أو مسافة ساعة.

وحيث كانت السُّفن المستعملة في القرصنة السلاوية الرباطية مستوية القعر خفيفة سريعة الجري أكثر من السفن الأوربية، فقد كان يُمكنها الدخول إلى الوادي من المصبّ والخروج منه بكلّ سهولة والالتجاء عند الحاجة إلى جوْن صغير على ساحل البحر أو النهر، بخلاف السفن الأوربية، فإنّها تبقى راسية خارج النهر في وسط البحر.

## بعض أسباب ظهور القرصنة السلاوية الرباطية وموجباتها

لقد كان لظهور القرصنة السلاوية الرباطية عدة أسباب :

– منها سقوط دولة بني الأحمر، وضُعف دول شواطئ البحر الأبيض المتوسط عن إنجادها، كدولة بني مرين بالمغرب، ودولة بني زيّان بتلمسان ودولة ءال حفص بتونس.

– ومنها، طرد المسلمين من إصبانيا، وامتلاؤهم غيظاً وحنقاً على الإصبان، وتشوّفهم لأخذ الثّار لأنفسهم ممّن طردهم من بلادهم.

– ومنها، ظهور القرصنة بالجزائر على يد خير الدّين باشا وبابا عرُّوج كما تقدّم.

– ومنها، تَشَوُّفُ الإصبان، والبرتغال لامتلاك شطوط البحر الأبيض المتوسط من ناحية شمال إفريقيا كلّها، واستيلاؤهم على مراسي المغرب على المحيط الأطلسي ما عدا : سلا ورباط الفتح.

– ومنها اشتداد أعمال القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط منذ النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، الموافق للنصف الأول من العاشر الهجري.

– ومنها، تحزّب دول هذا البحر الأوروبية على محاربة القرصنة بسائر ممالك إفريقية الشمالية، لتكون يدهم العليا فيها وكلمتهم هي المسموعة في أرجائها.

– ومنها، اتّخاذ القرصنة حرفة للرّبح وجمع الأموال وصيْرورة هذا البحر ميداناً لها.

– ومنها، تضاعف الأسرى من الجانبين بمئات الآلاف، وفداؤهم وما كان ينشأ عنه من المعاهدات السياسية والسلمية

– ومنها أنّ الأسطول المغربي، بعد ما كان أسطولاً حربياً قائماً بحراسة الشواطئ المغربية، والدفاع عنها عند الحاجة، والنقل بين المراسي والمراكز الحربية، تعيّن عليه أنْ يُصبح قرصانياً ليُدافع عن حريته وحركته في بلاده، إلى غير ذلك.

# المبحث الثاني

## أنواع سفن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي ووصفها

قال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي رحمه الله في رجزه «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا»(7)

وقَدْ كَفَاهَا صَنْعَةً أُسْطُولُ ... بِهِ فَخَارٌ ءاخِرٌ وأَوَّلُ
وبَلَغَ الحَالُ بُعَيْدَ الأَلْفِ ... أَنْ صَارَ ذِكْرُهَا رَهِيبَ وَصْفِ
اتَّخَذَ الأَفْرَنْجُ سُوَّاحُ البِحَارْ ... دَفَاتِرًا بِهَا سِمَاتٌ مِنْ خَطَرْ
على البِحَارِ مِن قَرَاصِينِ سَلاَ ... عَدّاً وَوَصْفاً وحُلًى وعَمَلاَ
قَصْدَ المُدَارَاةِ أوِ المُقَابَلَةْ ... إذا دَعَا الْحَالُ إِلَى المُنَاضَلَةْ
وَكَانَ قُرْصَانُ سَلاَ مُسْتَفْحِلاً ... بِهِ رِجَالٌ رُؤَسَاءُ نُبَلاَ
ذَوُوا شَهَامَةٍ وعَقْلٍ سَامِي ... وعُدَّةٍ وعَدَدِ الأَقْوَامِ

لمّا توفرت الأسباب، وتعددت الموجبات الداعية لإحداث القرصنة السلاوية الرباطية بنهر أبي رقراق، حسبما تقدّم بيانه وإيضاحه في الفصول السابقة، قرّر الأندلسيون ومن انضمّ إليهم أو انحاز إلى حزْبهم ممّنْ تقدم ذكره إيجاد أسطول خاصّ بهم للقيام بهذه المهمّة الكُبرى، وأعظمها أخذُ الثار من عدوهم، وفي الحين شرعوا في إنجاز عملهم.

7) الورقة 20 من النسخة الخطية المصورة بالمكتبة الناصرية السلاوية.

وبعد أن تشاوروا، ونظروا وفكّروا وقدّروا، جمعوا ما قدروا على جمعه من بقايا الأسطول السعدي الذي كان بالوادي الرقراقي، وهو وحداتٌ معدودة تحتاج إلى إصلاح وتجهيز ومزيد عناية وتدبير كبير.

ثمّ تبيّن لهم أنّ الأساطيل في عهد الدُّوَل السابقة، منذ عهد الموحدين، وبني مرين، كانت تُصْنع وتُجهّز بدار الصناعة بسلا، ولكنّها أُهملت في العهد الأخير، واحتاجت إلى إصلاح ومزيد عناية ونفقات كبيرة، فاستعملوها أوّلاً حسبما أمكنهم استعمالها.

ثُمّ أحدْثوا معملاً جديداً لصنع السُّفن على الضِّفة اليُسرى للنّهر أسفل حسّان، ولم يبق له أثرٌ الآنَ، فصنعوا به سُفناً كثيرة، كما كانوا يُحوّلون بعض السفن التجارية أو الحربية التي يغنمونها من بعض الدول الأجنبية، إلى سفن قرصانية، مطابقة لشعائرهم وإرادتهم، بعد تغيير قليل أو كثير في هيأتها وحالتها.

وربّما استوْردوا سُفناً أُخرى من بعض الدول التي كانت تحابيهم، وتتّقي بأسهم، أو كانوا يشترطونها عليها في معاهداتهم السلمية معهم كدولة هولاندا مثلا.

وينبغي التّنبيه هنا على أنّه ممّا سهّل صُنْع السفن، وتهييء الأساطيل في أبي رقراق منذ أوّل عهدها زمن الموحدين والمرينيين والسعديين، والحكومة المنفصلة بالعدوتين، بدار الصناعة السلاوية بسلا، ومصنع حسّان الذي حدث بعد ذلك، وجودهما قُرْبَ غابة المعمورة، وجلب العود المحتاج إليها منها، مع جوْدته واختلاف أنواعه، لاسيما ومساحة هذه الغابة تزيد على ثلاثمائة ألف (300000) هكتار، وهو شيء مهمّ جداً.

**گالير، "Galères"**

من أنواع السفن التي كانت مستعملة عند قراصنة أبي رقراق أو مصنوعة بمعمل صناعتهم نوع يُقال له گالِيرْ "Galères". وهو مركب أو قارب يسير في البحر بالمجانيف وعدد الجذّافين فيه بحسب كِبره وعِظمه، وربّما بلغوا مائتي جدّاف، وفي بعض الأحيان كانوا يستعملون الشراع إذا احتاجوا إليه، وكان هذا النّوع من السفن لا يُستعمل إلاّ في السّواحل القريبة، ولا يُلجّجُ به في المسافات البعيدة في البحار.

على أنّ الأسطول السلاوي الرباطي كان كُلُّه أو جلُّه من نوع الأساطيل ذات الشراع، ولكنّه لا يُستعمل في بعضها إلاّ عند الحاجة إليه أو طلب النجاة في بعض الأحيان من العدوّ، وإذا عاكستها الرياح استُعملت المجاذيف.

### طرّاد، "Tartane"

وهو سفينة ذات صارٍ واحد، وفيه شراع مثلّثٌ وقيل إنّه هو الطّرّادُ، ككتّان، وهو سفينة صغيرة سريعة مستطيلة كما في القاموس، كانت تُسْتعمل في البحر الأبيض المتوسط للصيْد والنّقل بين السواحل المتقاربة، وغالباً ما يكون لها سطح من أعلاها.

وفي إبّان الحرب والمطاردة تُسلّح بمدافع للدّفاع، ويُسْتعمل فيها بعض المجاذيف للاستعانة بها.

وكان محمول طرّاد الأسطول السلاوي الرباطي يبلغ ثلاثمائة طنّ مع خفّته وسُرعة سيره، وربّما فاق غيره من سفن ذلك العصر في الخِفّة والسُّرعة.

ومثله في الصّنْعة والسّلاح والهيأة السفن التي كانت تسمّى فِيسْتْ "Fuste".

وكذلك النوع المسمى : فْلُوطْ "Flûte" وكان معدّاً لحمل الأدوات والمعدّات الحربية التي يحتاج إليها الأسطول.

### بْرِيكَانْتَانْ "Brigantin"

وهي مراكب خفيفة، وفي الغالب كان لها صاريان، أحدهما عمودي مستقيم، في مقدّم السفينة، وفيه شراع متّصل بأعلاه. والثاني بوسطها موجّه بانْحناء إلى الوراء، مجهّز بشراع آخر منحرف نحو المؤخر.

وجرْم هذه المراكب التي من هذا النوع كان يختلف بحسب الحاجة إليه والأحوال الموجبة لذلك.

وكلّها كانت تسير بالشراع والمجاذيف معاً. وتُجهّز باثْنيْ عشر مدفعاً إلى عشرين، ويكون بها عادةً من سبعين إلى مائة ملاّح.

### شبّاك "Chebec"

من أنواع السفن السلاوية الرباطية القرصانية الشّبّاك "Chebec".

قال دوزي في قاموسه : الشبّاك مراكب حربية صغيرة الحجم تُسْتعمل عادة في البحر الأبيض المتوسط، ويُقال لها شُبّاك أو شَبّاك، يعني بضمّ الشّين وفتحها.

قلت : ويُطلق عليها المغاربة قَبَق.

وبعد ما كانت مراكب صغيرة، صارت سُفناً حربية كبيرة، ولها ثلاث صوارٍ واحد في الوسط، واثنان في الطرفين، وكلُّها كانت مجهّزة بالمجاذيف البالغ عددها عادة ثلاثين، زيادة على الشّروع. وطولها وعرضها يخْتلف بحسب الداعي أو الموجب الذي أُنشئت من أجله. ويُمكنها أن تُسلّح بأربعة إلى أربعة وعشرين مدفعاً، وبحارته يتراوح عددهم بين ستّين إلى مائتين. وهي سريعة الجري متحمِّلة لتقلُّب الأمواج البحرية وهيجانها، ولا يتجاوز محمولها مائتي طن.

وكان للسلاويين والرباطيين اعتناء بهذا النُّوع من السُّفن.

## پُولاكْرْ، "Polacre"

ومن جملة السفن السلاوية الرباطية، النوع المسمى پولاكر "Polacre"، وهو شبيه بالنوع المتقدّم المسمى «شبّاك»، ولا يختلف عنه إلاَّ ببعض المميِّزات لا غير، مسطّح القعر، خفيف سريع يتراوح محموله ما بين مائتين إلى ثلاثمائة طُنّ، وبحّارته نحو مائتي بحّار.

## كرافيل "Caravelle"

هذا النوع من السُّفن القرصانية السلاوية الرباطية كان مقلّداً فيه نوع السّفينة الإصبانية التي توجّه فيها كْريستوفْ كولومْب لاكتشاف ما وراء المحيط الأطلانطيقي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف (898/1492).

وكان طول هذه السفن يتراوح ما بين اثنين وعشرين وخمس وعشرين مترا، وعرضها لا يتجاوز ثمانية أمتار، ومحمولها نحو مائة وخمسين طنّاً.

ولها ثلاث صوارٍ وعدة شُرع، بعضها مربع، وبعضها مثلث، تُستعمل حسب مهبّ الرّياح وتقلّباتها.

وتجهزّ في الغالب بثمانية مدافع أو عشرة، ونحو العشرين أو خمس وعشرين منجنيقاً لقذف الحِجارة. وبحارتها نحو مائة وخمسين بحارا.

وفي مثل هذه السفينة كان يركب موراريس، أحد أميرالات سلا ورباط الفتح سنة ثلاثين وستمائة وألف (1040/1630) وستاتي ترجمته.

**بيناس "Pinasse"**

ومن جملة أنواع السفن التي كانت مستعملة في الأسطول السلاوي الرباطي القرصاني نوع يقال له بيناسْ "Pinasse". وكان مستعملاً مدة القرن السادس عشر، والسّابع عشر الميلادييْن (العاشر والحادي عشر الهجرييْن) لخفّته وسرعة جريه بالشراع والمجذاف مع صغر حجمه.

وله ثلاث صوارٍ، وطوله لا يتجاوز مائة وأربعة وثلاثين قدما، وعرضه لا يتجاوز ثمانية وعشرين قدماً ونصف قدم، فاتّخذه قراصنة العدوتين وسلّحوه وجعلوا طوله عشرين قدماً وعرضه اثنيْ عشر فقط، بشراع واحد. وفي القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) صيّروه فُلْكاً صغيراً وخصّصوه للنّقل في الوادي بين الضّفّتين وبين السفن الأخرى الراسية فيه.

**القراقر "Carraque"**

القراقر جمع قَرْقُور، تُطلق على نوع كبير من أنواع السّفن التي كانت مستعملة في القرصنة السلاوية الرباطية، معدّة لحمل الزاد والكُراع والمَتاع للأسطول، وتُسمّى أيضاً النّقّالات.

وهي من أعظم سفن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي حجماً وفائدة، وكانت مستعملة منذ القديم عند الدول البحرية.

**سينُّو "Sennau"**

من السفن التي كانت مستعملة في الأسطول السلاوي الرباطي نوع يُقال له سينُّو "Sennau"، وهو قريب من النوع الذي يقال له بْرِيكْ "Brik". وكانت عادة تُسلّح بأربعة عشر إلى عشرين مدفعا، وربّما سلّحَ بعضُها بأربعة وعشرين مدفعا. وملاّحُوها يتراوح عددهم من مائة إلى مائة وعشرة.

### فَرْكَاطَة، "Frégate"

يُطلق لفظ الفركاطة عند المغاربة، وعند بعض الفرنسيين، على كلّ سفينة كبيرة حربية مُسلحة بالمدافع وءالات الحرب البحرية.

وقد كان محمولها في عهد القرصنة السلاوية الرباطية مائتي طُنّ. وتُسلَّح عادة بعشرة إلى خمسة عشر مدفعاً، ويبلغ عدد بحّارتها ثلاثمائة بحار، وطولها سبعة وعشرون متراً وعرضها ثلاثون.

ولم توجد هذه السفن في الأسطول المغربي القرصاني على هذه الصفّة إلاّ في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ولم يكُن لها مفعول كبير، لصعوبة دخولها وخروجها من مصب أبي رقراق.

وستاتي أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الله والقرصنة في عهده في أخبار الأسطول المغربي في عهد الدولة العلوية بحول الله.

### بَرَك، "Baraque"

كانت السفن الصغيرة بَرَكْ "Baraque" المعروفة عندهم بالسّنابيك أو القوارب، أو الزّوارق، تابعة للفَرَاكيط. وتُسلّحُ عادة بأربعة مدافع، ومحمولها ثلاثون طنّا، وعدد بحارتها ثلاثون بحّارا.

### فْلِيبُو، "Flibot"

سفينة مسطحة القعر، ولها صاريان، ومحمولها مائة طنّ، وأصل صناعتها هولاندي.

وكانت تُستعمل غالباً في القرصنة والاختطاف لخفّتها وسرعتها.

### پَاطَاشْ، "Patache"

سفينة صغيرة يتراوح محمولها من سبعين إلى مائة طن. وفيها من ثمانية إلى عشرين فوْهة نارية. وكانت تُستعمل في حراسة السواحل والشّطوط البحْرية، ومراقبة السفن التي تقترب منها، ولا تُسْتعمل في القرصنة.

### كَاليُوط، "Galiote"

كان هذا النوع من السفن القرصانية السلاوية الرباطية يجري في البحر بالمجاذيف وله شراع واحد. وفي الغالب يكون فيه اثنا عشر، أو تسعة عشر جذّافا. واستعمله القراصنة في قرصنتهم كثيراً لخفته وسرعته. ويُسلّح في الغالب بمدفعين إلى عشرة، وعدد كبير من المنجنيقات، ويكون فيه عادة من البحّارة، من الخمسين إلى مائة وثلاثين.

وكان يقترب بالمجاذيف من السفن التجارية، فإذا وصل إليها والتصق بها، صبّ عليها سوط عذاب من صخور منجنيقاته صبّا، وأتبعها برميها بالحجارة بواسطة المقاليع، فيفرّ البحّارة ويختبئون توقّياً منها. وحينئذ يستولي القراصنة على السفينة، ويأخذونها غَصْباً، وما فيها من السلَع غنيمة، ومن النُّوتية أسرى.

وبهذا النوع من السُّفن هجم الفرنسيون على الجزائر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1093/1682)، وسلا والعرائش سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (1178/1765).

وقد كان من عادة السلاويين الرباطيين أنهم كلّما صنعوا سفينة في مصنع من مصانعهم الخاصّة، أو جلبوها من الخارج، اعتنوْا بتزيين وتحسين مؤخّرها أو رأسها الذي يشقّ البحر عند السّير، ورسموا عليه صورة الشمس مذهّبة لامعة مضيئة، أو الهلال المنير، أو النجم اللامع، أو باقة من الأزهار، أو نخلة بعروشها المثْمرة، أو كفّ اليد، الذي يُعبّرون عنه بالخمسة، دفعاً للعيْن كما يزعمون.

وكانوا أيضاً يزيّنون واجهتها، وبيت الرّبان، بصورة تمثّل نعال النبي صلى الله عليه وسلم، تبرّكاً بها.[8]

## استنتاج

الذي يُستنتج ويُستخلص مما عرضناه في الفصول السابقة من أنواع الأسطول المغربي الذي كام مستعملا في عهد القرصنة السلاوية الرباطية هو أن جلّه، إنْ لم نقل كلّه، مقلّد فيه أنواع الأساطيل التي كانت شائعة مستعملة عند دول البحر الأبيض المتوسط، وبعضه كان يسير بالشُّرُع، وبعضه كان يسير بالمجاذيف، وبعضه كان يسير بهما معاً، حسب الأحوال الداعية لذلك، لأنّ جلّ الذي كانوا يتولّوْنَ إنشاءه إمّا أندلسيون، أو أتراك، أو أوروبيون أسْلموا، واستُعملوا في هذا العمل لمزيد خبرتهم به.

8) مُقتبس ومُلخّص ببعض تصرّف من كتاب «قراصنة سلا» لكواندرو، من ص 86 إلى ص 111.
"Les Corsaires de Salé", par Coindreau, de p. 86 à p. 111.

كما كانت بعض أنواعه مخصَّصة لحراسة الشواطئ والسواحل المغربية، وبعضها كان مخصَّصاً للقرصنة والتَّلجُّج في البحار، والهجوم على الأساطيل المعادية، تجارية كانت أو حربية، والغارة على المراسي والمدن والقرى التي على سواحل البحر، وبعضها كان مخصَّصاً لحمل العدّة والسلاح وما يحتاج إليه الأسطول القرصاني في غدوّه ورواحه.

وكان يمتاز بخفّته وسرعة جرْيه، وحنكة ربابينه واستحضارهم لِلْحِيَل التي تُنْجيهم من عدوّهم وتمكّنهم منه، مع الحِرْص التّام على أنْ تكون سُفُنهم مُجهَّزة أتَمّ تجهيز يفوق تجهيز سُفن العدوّ.

# المبحث الثالث

## كيفية تجهيز الأساطيل القرصانية السلاوية الرباطية

كانوا يقولون : تجهيز سفينة، كتجهيز مدينة، لمَا تتطلّبه من التفكير في تسيير وتيسير كلّ ما تحتاج إليه من سائر وسائل الحياة المعتادة لمن على ظهرها من الرّؤساء والفنّيين، والبحارة والنُّوتيين المدّة الطويلة، طبْق ما يتطلَّبه سفرها، أو يَحدث لها من الحوادث الطبيعية : الجوية والبحرية، وكذلك الحربية والسياسية، التي تُرغمها على البقاء في البحر أوالجُزُر المنقطعة البعيدة عن البرّ الأيام والشهور العديدة.

وخصوصاً ما يلزم ركّابها وبحّارتها من المُؤُن والكُسَى والأدوية الضرورية الواجبة، وما يستدعيه إصلاحها إذا حصل لها عطب في لجّة البحر، وهو متوقّع في كلّ وقت وحين.

ولذلك كانوا يأخذون معهم كلّما خرجوا في غارة بحرية زاد خمسين يوما فأكثر وكلّ ما يحتاجون إليه،[9] ولا يختصرون من مدة رحلتهم، أو يُحدثون تغييرًا في وجهتهم إلاّ إذا اضطرّوا لذلك، كأنْ يُحصِّلوا على غنيمة كبيرة مهمّة، فيتعيّنُ عليهم حينئذ الرُّجوع بها إلى العدوتين ليامنوا عليها.

وكانت لهم مراكز معلومة يأوون إليها بالمغرب عند الحاجة وهي :

تطوان، وتهدّارت، والمعمورة، وفضالة، والوليدية، وكانوا يفضّلونها على آزمور لقُربها من الجديدة التي كان يحتلُّها البرتغال، كما كانوا يلتجئون في بعض الأحيان إلى آسفي.

9) «قراصنة سلا» لكواندرو، ص 119 وما بعدها.

وإذا أخذوا سفينة من العدو ووجدوا فيها بعض الأقوات والمُؤَن استعانوا بها، وربّما زادوا في مدّة غيبتهم، وانقطاعهم بالبحر عن البرّ لتوفُّر الزاد الكافي لديهم.

وكان من عادة هذا الأسطول القُرصاني السلاوي الرباطي أن يُلازم ولا يُفارق مراسيه بأبي رقراق مدّة فصل الشتاء كلّه لهيجان البحر وعواصفه الشديدة، باستثناء بعض القطع الخاصّة الصغيرة التي كانت تُسخّر في مصلحة بعض الشواطئ القريبة.

ولا يُبارح أبا رقراق إلاّ في الفصول الأخرى من السنة، وخصوصاً فصل الصّيف، ويتفرّقُ حينئذ في البحر مُجهَّزا أتمّ تجهيز، شرقاً وغربا، وشمالاً وجنوبا، وفي كلّ فصل كان يقصد ناحية معيّنة.

وكلّما خرج لناحية من النواحي المقصودة، تُصاحبه ثلاثة أو أربعة سفن أخرى لتعينه عند الحاجة، وتمدّ له يد المعونة عند الشدّة، ولا تغيب رؤية كلّ سفينة عن الأخرى.

وربما تجاوزت غارته ستّمائة ميل بحري، وتعمّ شواطئ إصبانيا والبرتغال إلى رأس فينيسْتيرْ شمالاً، وتمتدّ في المحيط الأطلانطيقي إلى أواسط إفريقية غربا.

وقد كان لهؤلاء القراصنة في كلّ ناحية يقصدونها، وخصوصاً بإصبانيا، جواسيس يخبرونهم بكل ما يروج فيها وبجميع حركات أساطيلها، ووجهاتها عند خروجها، وتعْيين الحربية والتجارية منها، فيتتبّعونها، ويستوْلون في الغالب عليها، على حين غفلة من أهلها.

كما كانت لهم خبرة كافية في تسيير سُفنهم وتقدير المسافة التي ستقطعها كلّ سفينة حسب مَهَبِّ الرّياح واتّجاهها وسرعتها، وتأثيرها على الشّراع الذي تسير به لمعرفتهم بعلم الفلك والهيأة (Astronomie).

وإلى ذلك يشير أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» بقوله :(10)

وعِنْدَهُمْ مِلاحَةُ البِحَارِ ... مَعْرُوفَةٌ بِكَثْرَةِ الأسْفَارِ
فَهُمْ عَلَى عِلْمٍ بأحْوالِ الرِّيَاحْ ... وَخَلْفِهَا وصَرْفِهَا بمَا يُتَاحْ
كَعِلْمِهِمْ بِسَائِرِ الجِهَاتِ ... ومَا بِهَا تُعْرَفُ مِنْ سِمَاتِ
وَطَيِّ طُولٍ واخْتِصَارِ شَاسِعِ ... بِالزَّيْدِ والنَّقْصِ لَدَى مَنْ قَدْ يَعِي
وكَمْ مَشَى الْجَفْنُ مِنَ السَّوائِعِ ... أوِ اللَّيَالِي بِالْحِسَابِ الْمُقْنِعِ...

---

10) ورقة 16 من النسخة المخطوطة بالمكتبة الناصرية السلاوية.

ومعَ خبرتهم هذه فقد كانوا يُسندون الرياسة العلمية والفنِّية في الغالب لأربابها من الرّبابنة الأوربيين، وخصوصاً الهولانديين والإنجليزيين الذي أسْلموا واسْتسلموا وأخْلصوا دينهم لله كمُورَارَايَسْ وغيره.

ويستعملون البوصلة وبيت الإبرة، لمزيد تحقيق وجهة السّفينة شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوبا.

ويهتدون بمراقبة النجوم ومطالعها ومغاربها بواسطة الآلات المخصّصة لذلك، كالمرآة المقرّبة والقوْس والأصطرْلاب ونحوه.

قال تعالى : ﴿وعلامات، وبالنّجم هم يهتدون﴾، وقال : ﴿وهو الذي جعل لكم النّجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر﴾.

وكلّ هذا زيادة على حمل العدّة والسلاح الكافي والأدوات الحربية لتوقّعهم لقاء العدوّ ومحاربته لهم، وإنْ كانوا هم يجتنبون ذلك ما أمكن. وربّما استعملوا السُّفن التي يغنمونها من العدوّ بعد إصلاحها، وإعادة تجهيزها وإدخال تغييرات عليها، حسبما تدعو حاجتهم إليها، وجعلها صالحة لدخول المصبّ الرّقراقي وخروجها منه بكل سهولة لتختفي على العدوّ في هيأتها الجديدة ولا يتنبّه إليها.

وكانوا يشترون أيضاً سُفناً أخرى، مصنوعة في مصانع أوربية تامّة التّجهيز كما يريدون في كمّها وكيفيتها، ويعملون سائر الوسائل التي تُمكّنهم من إغراء بعض الدّول على قبول رغباتهم، ومُزاحمة غيرها في تلبية مطالبهم، والاستجابة إلى أغراضهم.

ومن ذلك أنّه في سنة اثنتي عشرة وستّمائة وألف (1021/1612) ساعدت حكومة أمستردام السلطان مولاي زيدان على شراء ستّمائة بندقية، وستّة آلاف ليفْر من البارود والفتائل والرّصاص، وألف رُمْح من بعض تُجّارها لتجهيز الجيش وبعض السُّفن.

ووافق ذلك استفحال القرصنة بالمغرب في ذلك العهد وانتشارها بسلا ورباط الفتح، فاحْتجّ ديوان إمارة البحر على ذلك، لأنّ فيه إعانة للقراصنة على أعمالهم العدوانية ضدّ بعض الدول الأوربية، فلم تلتفت الحكومة الهولاندية إلى احتجاجهم لحرصها على اتِّصال حبل المواصلة التجارية بينها وبين المغرب، ونفّذت الأمر الصادر بالشّراء.

وفي سنة أربع وعشرين وستّمائة وألف (1034/1624) كلّف قائد القصبة، ومورارايس أميرال الأسطول السلاوي الرباطي بعض تجّار البرتغال الذين كانوا بسلا الجديدة، وهي

رباط الفتح بشراء واستجلاب عشرة آلاف ليفْر من البونْب، وألفي ليفْر من البارود للمدافع، ومائة وعشرين بُندقية، وعشرة قناطير من الكبريت، ومائتي مجذاف من هولاندا أيضاً لتجهيز الأسطول بواسطة بعض تُجّار اليهود البرتغاليين الذين كانوا بالبلاد المنخفضة، وهم : ابن جَمان كوهن، وحايم طوليدانو، وغيرهم، فقاموا بذلك، ولم يكُن للأوامر الصادرة بمنع بيع السّلاح للسّلاويين والرباطيين سنة أربع وعشرين وستّمائة وألف (1051/1624)، أيّ مفعول ولا تأثير، مع أنّ البابا كان حذّر من ذلك، وأصدر أوامره بمنعه زاعماً أنّ فيه إعانة للمسلمين في جهادهم في المسيحيين، فلم يمتثلْ أمره أحد من ملوك أوربا، إلاّ ملك فرنسا في بعض الأحيان حسب مصلحته.

وكان البحّارون الفنيون الذين تزوّد بهم هولاندا المغرب لتجهيز سفنه وتنظيمها إذا أرادوا السّفر من هولاندا إلى المغرب، احتفلوا بهم وشيّعوهم بالطبول والمزامير.

وجاء في كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»[11] أنّ الحكومة الهولاندية كتبت بتاريخ (23 مارس 1645/ محرم عام 1055) ثالث وعشري مارس سنة خمس وأربعين وستمائة وألف رسالة إلى السلطان مولاي محمد الشيخ الأصغر السّعدي تُخْبره فيها بأنّه تمّ الأمر مع القائد محمد بن عَسْكَر الموجّه إليها من قِبَله على عقد اتّفاق مطابق لنظامها مع بعض التجّار على إنشاء وتجهيز سفينة جيّدة ذات عشرين مدفعا، أو يشتري هو سفينة من هذا النوع إذا وجدها مهيّأة جاهزة.

ثم قالت : ونحن مستعدّون لتسهيل العملية وإنجازها والإذن لها بمجرّد تهيُّئها في السّفر للمغرب، ولكن هل تمّ ذلك، لا ندري ولعلّه لم يتمّ.

وتبعا لِمَا كان العمل جارياً به في الجزائر، فإنّ مجهّزي السُّفن الحورناشيروسية بسلا والرباط، كانوا يشتركون في بعض الأحيان في محمولها، ويأخذون حظّهم فيما يربحه الرؤساء القراصنة، إمّا وحدهم أو في شركة الغيْر.

وكان المجهز هو الذي يدبّر ويهتمّ بسائر ما تحتاجه سفينة وركّابها، وخصوصاً ما ستحمله من المعدّات الحربية كالبارود، والفتيل، وقنابل البونب، والرّصاص، والحبال والأقوات وغيرها من الموادّ المختلفة.

---

11) "Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" par de Castries, Pays-Bas, p. 96, T. V.

وكان اليهود يشاركون في تجهيز السُّفن القُرصانية، ويقدِّمون الاعتمادات الأصلية للقيام بها.

ويهود سلا والرباط بالخصوص، كان لهم اتّصال وتعارف مع يهود البلاد المنخفضة المطرودين من الأندلس، فكانوا يتوسّطون لهم، ويقومون بكلّ ما يطلبونه منهم فيما يرجع لشراء السّفن وتجهيزها، ومنهم، ابن جمان وطوليدانو المتقدم ذكرهما.

وبهذه الإعانة على التجهيز، مدّت هولاندا يدها لقراصنة سلا والرباط، وأعانتهم إعانة واسعة النّطاق، واستفادت هي في مقابلة ذلك الاعتناء، ترويج تجارتها بالعدوتين : السلاوية والرباطية، وإعفاءها من بعض الضرائب الجمركية التي كانت مفروضة على غيرها من الدول.

وقد كان الأندلسيون المهاجرون يجمعون إلى ذكائهم معرفتهم بعدّة حِرَف وصنائع، ومنها صناعة بعض الأسلحة، فكانوا يشتغلون بها، وتُسْند إليهم بالسُّفن القرصانية وظيفة المراقبة والمحافظة عليها وتفقّد أحوال النّوتية والبحّارة والعساكر البحرية التي بها، وبذلك يكون لهم نفوذ واعتبار كبير في كلّ سفينة.

ولا غرابة في ذلك، ويؤيّده ما جلبه أبو العباس المَقَّرِي في الباب الرابع من «نفح الطيب»، الذي عقده لما خصّ الله به أهل الأندلس من توقّد الأذهان... قال : نقلا عن ابن غالب[12].

«... لمّا نفذ قضاء الله بخروجهم في الفتنة الأخيرة، تفرّقوا ببلاد المغرب الأقصى، فمال أهل البوادي إلى البادية، وذكر أنّهم علّموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها، ومال أهل الحواضر إلى الحواضر واستوطنوها، وكان منهم الوُزراء والكُتّاب والعُمّال، وجُبَاةُ الأموال، والمستعملون في أمور المملكة، ولا يُستعمل بلديٌ ما وُجد أندلسي، وأهل الصنائع فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأجملوا أعمالهم، وصيّروهم أتباعاً لهم، ومتصرّفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شُغل عملوه في أقرب مدّة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتّجويد ما يُميلون به النفوس إليهم، ويصير الذّكر لهم، ثمَّ قال : ولا يدفع هذا عنهم إلاَّ جاهل أو مبطل».

ومن أراد زيادة البيان فليرجع إليه.

وحيث كانت جلّ سفن القَرْصنة السّلاوية ذات شُرُع وبعضها يسير بالمجاذيف، أو بهما معاً، فقد كانت تتطلّب من رؤسائها وملاّحيها مزيد معرفة وحنكة في فنون الملاحة البحرية. وكان المجهّزون للسُّفن يهتمّون بذلك ويشترطونه في الرّؤساء والبحّارة ويستعينون

12) ص 764 من ج 2، طبع بولاق.

ببعض الرؤساء الأجانب الذين انضمّوا إليهم، كما تقدّم. وآوى إلى العدوتين جمهور كبير منهم، وبعضهم أسلم، وبعضهم بقي متمسّكا بدينه، وباعوا أوطانهم وضمائرهم للسلاويين والرباطيين طلباً للغنى والشّهرة والنّفوذ، واستسلموا لخدمتهم، ووقفوا في صفّهم، وانضمّوا إلى لفّهم متسابقين في ميدانهم، وفاز بمزيّة السّبق فيه، قراصنة المعمورة لمّا سقطت في يد الإصبان سنة ثلاث وعشرين وألف (1614/1023). وبقي بعضهم مستقلاً بنفسه، قائماً بقرصنته لشخصه، كالبحّار الهولاندي المسمّى كلايسْ جينيتزْ كومباين الملقّب بفزع البحار (Claes Genitz Campein, la terreur des mers)، فسكن بآسفي وسلا مدّة طويلة.

وقال بعض الفرنسيين الذي كتبوا في ترجمته إنّه غنم في سنتيْ أربع وعشرين وستمائة وألف (1034-1033/1624) وخمس وعشرين وستّمائة وألف (1035-1034/1625) ثلاثمائة وخمسين غنيمة.

وكان يانف من الانْضمام إلى القرصنة السلاوية الرباطية، والاندماج فيها، ومع ذلك كان يُعطي تسريح المرور للسفن الأجنبية، لتأمن هجوم قراصنة العدوتين. ويعيش عيشة السّيد في هذه المدينة التي رخّص له حاكمها في بيع غنائمه فيها.

وفي الأخير رجع إلى بلاده، واستقرّ بها، سنة سبع وعشرين وستّمائة وألف (1037/1627)، وكان ذلك آخر العهد به[13]

وأُضيف إلى هؤلاء القراصنة جماعة وافرة من البحّارين ورؤساء السّفن الأجنبية التي كانت تسقط في أسر السلاويين والرباطيين ويدخلون في دين الإسلام فيُصبحون فنّيين اختصاصيّين في الأسطول القُرصاني السلاوي الرباطي. .

وجاء في مذكّرة رفعها الفارس رَازِيلي "Razilly" إلى الكَرْدِينَال رِيشُلْيُو "Cardinal Richelieu" سنة ستّ وعشرين وستمائة وألف (1036/1626) يُخبره فيها بأنّ ما يزيد على ثمانية آلاف بحّار مسيحي سقطوا في الأسر، واستبدلوا مسيحيتهم بالإسلام، وصاروا قراصنة يجوبون سواحل أوربا، ويتخطفون أقاربهم ومواطنيهم.[14]

قالوا : وكان ملوك المغرب ووُلاة سلا ورباط الفتح يرغبون جداً في أسر المسيحيين ويستعملونهم نوتيّة في سفُنهم أو خَدَمَة مكَلَّفين بإطلاق المدافع.

---

13) "Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" par de Castries, Pays-Bas, p. 513, note 2, T. III.

14) "Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" par de Castries, 1er série, France, dynastie Saâdienne, p. 116, T. III.

لبَاس رؤساء الأسطول القرصاني
السّلاوي - الرباطي (14م)

وكمْ من أُسر لازالت تنسب إلى هؤلاء الأسرى الذين أسلموا لله وجوههم.

هذا وقد كانت معاهدة ثالث شُتنبر سنة ثلاثين وستّمائة وألف (3 شتنبر 1630/صفر عام 1040) بين السلاويين والرباطيين، ولويس الثالث عشر أوّل معاهدة قرّرت إلزام كلّ سفينة قرصانية أرادت الخروج إلى البحر أن تأخذ إذناً خاصّاً بخروجها من أمير سلا والرباط.

وجاءت معاهدة سنة خمس وخمسين وستّمائة وألف (1066/1655) بين السلاويين والرباطيين، والبلاد المنخفظة فبيّنت الاحتياطات التي سبق اتّخاذها في معاهدة إبْراير سنة إحدى وخمسين وستّمائة وألف (يبراير 1651/ربيع الأول 1061)، وهي أنّه زيادة على الإذْن الذي يسلّمه للسُفن القرصانية أمير سلا، لابدّ لرؤساء سائر السُفن الحربية أوْ التجارية السلاوية الرباطية من أخذ شهادة خصوصية أخرى عليها علامة وطابع قنصل البلاد المنخفضة.

14م) صورة من إضافة المحقّق، ولا توجد في المخطوطة.

وهكذا، صار يُنصُّ على هذا الإذْن وهذه الشهادة في المعاهدات المعقودة بعد هذا التاريخ بين السلاويين والرباطيين والدول الأجنبية، وهو في الحقيقة نوع من التّقْييد.

والحاصل من مجموع ما تقدَّم، هو أنّ قراصنة العدوتين : السلاوية والرباطية، كانوا يستوردون من أوربا كلّ أوْ جُلّ ما يحتاجون إليه في تجهيز سفنهم، ويشترطونه عليها في شروطهم ومعاهداتهم، ويكلّفون اليهود بشرائه لهم.

وأهمّ هذه الأدوات والموادّ : الصّواري، والمجاذيف، والشُّرُع، وحتى القنابل والأغلال التي يجعلونها في أعناق الأسرى، والبارود والبونْب والمدافع، وغير ذلك كالسُّفن في بعض الأحيان.

وكانت هولاندا أهمّ دولة أوربية تمدّ السلاويين والرباطيين بما يجهِّزون به أساطيلهم من الأدوات البحرية المتنوِّعة، لأنّها كانت متفوّقة على غيرها في صنع السُّفن وتجهيزها في ذلك العصر.

وفي مقابلة ذلك، كان قراصنة سلا والرباط يحترمون سفنها في الجملة في البحار، ولا يتعرّضون لها في الغالب.

ولم تقتصر هولاندا على إمداد قراصنة أبي رقراق بالأدوات البحرية، بل أمدّتهم حتى برؤساء البحر الفنّيين الذي هاجروا منها، وآووْا إلى العُدوتين، وأسلموا، وأصبحوا قادة السُّفن كما تقدّم، كالرّئيس موراريْس وغيره... فكانوا مُرشدين ومُدبّرين، واقتدى بهم جماعة من الرؤساء الآخرين أندلسيين ومغاربة.

وفي الغالب كانوا يخصّصون الذين أسلموا منهم بوظائف الجراحة والقيادة، والنّجارة، والقَلْفَطَة وأصحاب الشّواقر كما تقدّم.

## بعض فوائد القرصنة السلاوية الرباطية

لقد استغنى السلاويون والرباطيون من سكّان القصبة والمدينتين معاً بما تدفّق عليهم من سيْل الغنائم وأموال فداء الأسرى، وكانوا يعيشون في منازلهم عيشة رخاء وترف ورفاهية كبرى، فالأسرى من الرجال يخدمونهم، ويقومون بشؤونهم الخارجية، والأسيرات من النساء والبنات، خديمات وحظايا، وأمّهات أولاد داخل البيوت.

وقد أدركت ورأيت عند بعض الأسر بسلا الذين كان أسلافهم أصحاب أساطيل ورؤساء بحر وقراصنة، تُحفاً وأشياء تُعدّ اليوم أثرية، كأواني الخزف والمعدن والمرايا، والمنجانات الحائطية الغريبة الشّكل العديمة النظير اليوم، وهم يعتزّون بها، ويتباهوْن بوجودها عندهم موروثة خلفاً عن سلف.

وبالجملة، فقد صار عامَّة أهل العُدوتين في ذلك العهد تجّاراً من أكبر تجّار وقتهم، وصارت العدوتان في ذلك العصر من أهمّ مراكز التجارة على شواطئ المحيط الأطلانطيقي في المغرب الأقصى.

ومن الغريب في ذلك العصر أنّ القرصنة لم تعق التجارة، بل بالعكس شجّعتها وأنعشتها وأشاعتها في سائر مراسي إفريقية الشمالية، وخصوصاً على ضفّتي أبي رقراق.

وأغرب من ذلك، أنّ جلّ دول أوربا، كانت تتسابق إلى مطالبة قراصنة أبي رقراق بالصُّلح وربط العلائق التجارية معهم، وحتى إصبانيا التي حكمت على الموريسكوسيين بالنّفي والطرد والإعدام، صارت تخطُب ودّهم، وتَتَقَرَّبُ إليهم، وتعمل على ربط حبل العلاقة التجارية معهم، وسياتي مزيد تفصيل في هذه المسألة بعد هذا في محلّه.

ويوجد مرسوم صادر بتاريخ سنة ستّ وعشريت وستمائة وألف (1036/1626) يُخوِّل الإصبانيين حقّ التجارة مع أعدائهم ومطروديهم الموريسكوس.

ولا شكّ أنّ وجود هذا الرّواج، وهذه الحرية التجارية، والقرصنة البحرية، في ءانٍ واحد، ناشئ عن كون المغرب من جهته، كان لا يمكنه أن يتخلّى عن استيراد عدة أصناف من البضائع التي كان يتوقّف عليها من الخارج، ومن جهة أخرى، فإنّ الأوروبيين كانوا يشترون الغنائم التي يأتي بها القراصنة، ويتسابقون إليها ليبيعوها هم أيضاً بأسواق أخرى بليفورْنْ "Livourne" وبيزا "Pise" وجنوة "Gènes". وراجت أيضاً تجارة الرّقيق داخل المغرب وخارجه، بما كان يأتي به القراصنة من الأسرى لتداول بيْع الرّقيق وانتقاله من مالك إلى مالك، ومن مكان إلى مكان.

وإذا تأمّلنا لماذا خضع الأوروبيون هذا الخضوع للقراصنة عامّة، ولقراصنة أبي رقراق خاصّة، تبيّن لنا أنّهم كانوا مضطرّين إلى ذلك لأنّ إبطال القرصنة السلاوية الرباطية كان غير ممكن في ذلك الوقت، ولا يمكن إلاّ إذا خرّب عشّها الذي منه تخرج، وتسبح في البحار وتدرج، وهو العمران الثلاثيّ المتكوّن والموجود على ضفّتي مصبّ أبي رقراق. وهيهات أنْ يكون ذلك، ومن الصّعب الوصول إليه، لاختلاف مصالح الدول في ذلك العصر، وتعدّد

مشاربهم، وعدم اتّفاق رغباتهم، واختلاف مطامعهم، إذ كلّ واحدة منها كانت ترغب وتعمل على الانفراد بالسّيادة السياسية وحدها دون الأخرى، وهلمّ جرّاً.

وطالما حاولت كلّ واحدة من هذه الدول وحدها القضاء على القرصنة البورقراقية فخاب أملها، وحَبِطَ عملها، وأعانت الدول الأخرى المُناوِئَة لها أهل العدوتين عليها سرّاً وجهرا.

وغاية ما كانت تستطيع أن تفعله هو أن تبعث قطعاً من أسطولها، وتقنبل سلا بمئات من القنابل، وتنحصر الخسائر في تهديم بعض الدور والمنازل والأسوار المبنية بالطّين والطّوب والحجر، ولا يلبث السلاويون أن يرمّموها ويُصلحوها أو يُعيدوا بناءها من جديد، وأيُّ خسارة عليهم في ذلك بالنسبة لِمَا يتدفّق عليهم من الأرباح الطائلة، والأموال الفيّاضة المتفجّرة من ينابيع سفنهم القرصانية السّابحة في لُجج البحار، المتخلّلة للشواطئ والسواحل المسيحية وما فيها من المراسي والأمصار، بدون فتور ولا انقطاع في الليل والنهار.

وقد حاول بعضهم النزول إلى البرّ مرَاراً، والاستيلاء على القصبة، فلم يقدر على تنفيذ هذه المحاولة التي كانت مجرّد مذاكرة أو مناورة، لاسيما والنُّزول يستدعي الاحتلال الدائم، وعواقبه غير مامونة، لِمَا يترتّب عليه من الحروب الطويلة المستمرّة كما وقع بالمعمورة، زيادة على صعوبة تموين جيش الاحتلال، وتَعَذُّرِهِ برّاً وبحراً قطعاً.

أمّا من البرّ، فإنّ القبائل المجاورة والمجاهدين يمنعونه، ويحولون دونه. وأمّا من البحر، فمصبّ النّهر في البحر وصعوبته وعدم صلاحيته للملاحة إلاّ لسفن خاصّةٍ منشأةٍ له بالخصوص تمنع من ذلك أيضاً.

وبقيت مسألة حصار المرسى، وقد حاولها الأوروبيون مراراً فلم يستطيعوا الاستمرار على الحصار ومطاولته إلاّ في أوقات معلومة، لصعوبة الشاطئ البحري السلاوي الرباطي، وهيجان البحر في فصليْ الشتاء والخريف، واستهداف الأسطول المحاصر لقنابل أبراج العمران الرقراقي المحاصَر، وعدم الحصول على نتيجة محسوسة، أو فائدة ملموسة.

وعليه، فما بقي إلاّ مسألة المعاهدة والمفاوضة والموافقة والأخذ باللِّين، وتبادل المصالح من الطّرفين، مع إظهار القوّة من حين إلى حين، وهو ما كانت تفعله الدول الأوروبية بواسطة تُجّارها ورُسلها وسُفرائها، لفداء أسراها، وحماية مصالحها، حسبما تقدّم الكلام على ذلك.

وهذا الدّواء، لم يكنْ حاسماً للدّاء، وإنّما كان مسكّناً ومُخفّفاً آلامه وأوجاعه حيناً من الأحيان، ومساعداً على فداء بعض الأسرى من الجانبين.

وقد كان الإنجليز أوّل المبادرين إلى استعمال هذه المسكّنات والمخدّرات، فكلّف أحد كبراء أسطوله سرّاً القبطان جوهْن هارِيسُونْ "John Harisson" بالمذاكرة والمخابرة مع رؤساء قراصنة العدوتين، فتخابر مع الحورناشيروس سنة ستّ وعشرين وستّمائة وألف (1036/1626)، وأطلقوا له سراح عدد من الأسرى الإنجليز الذين كانوا عندهم، في مقابلة تزويدهم بعدد من المدافع.

ثم رجع سنة سبع وعشرين وستّمائة وألف (1037/1627) وحاول عقد حلف مع الحروناشيروس، وحرّر بما تمّ الاتّفاق عليه معهم معاهدة، فامتنع ملك الإنجليز من المصادقة عليها قائلا : «إنّه حطّ من قدره أن يتعاهد مع السلاويين والرباطيين، وهم قراصنة وثوّار على الحكومة الأصلية بدون فائدة سوى وُعود خلاّبة».

واقتدت فرنسا بإنكلترا، فوّجهت رازِيلي ودُوشْلارْدْ "Razilly et Dechalard" للمذاكرة في فداء الأسرى، سنة ثلاثين وستمائة وألف (1040/1630)، فبدأ عمله برمْيِ سلا والرباط بالقنابل، وترتّب على ذلك أنّ حكومة القصبة عقدت معه هدنة لمدة عامين، ولكن بعد انصرامهما لم تُجدّدْ.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (1045/1635) عقدت معاهدة أخرى مع السلطان مولاي الوليد السّعدي، وقَبِلَها ولاة القصبة والمدينة من الأندلسيين.

وأمّا هولاندا، فقد اكتفت بمعاهدتها التي عقدتها سنة عشر وستمائة وألف (1019/1610)، وإنّما جدّدتها، وتمّ الاتّفاق عليها من جديد.

وسياتي مزيد بيان وتفصيل للمواصلة والعلاقة التي كانت بين أوربا وقراصنة العدوتين بعد هذا في فصل خاصّ بها.

# المبحث الرابع

# أقسام القرصنة السلاوية الرباطية وأطوارها

إذا تأمّلنا تاريخ القرصنة السلاوية الرباطية ودرسناه، نجدها تنقسم إلى ثلاث فترات من الزّمن.

## الفترة الأولى :

من سنة عشر وستمائة وألف (1018/1610) إلى سنة ثمان وستّين وستّمائة وألف (1079/1668) لمّا أنهى إلى علم هانْري الرابع بعضُ قناصله، بعضَ أعمال قراصنة سلا ورباط الفتح وظهورهم في البحر.

وهذه الفترة هي التي كانت القرصنة السلاوية الرباطية فيها تحت نفوذ الحكومة الانفصالية التي أطلق عليها الأوروبيون بعد ذلك «الجمهورية السلاوية الرباطية»، وهي في حدّ ذاتها تنقسم إلى ثلاثة أطوار.

### الطور الأول :

من سنة عشر وستمائة وألف (1018/1610) إلى سنة ستّ وعشرين وستمائة وألف (1036/1626)، وهو طور التّهييء والتّنظيم لتظهر بمظهر الشّدّة والغلظة على العدوّ تحت تاثير وسيطرة الموريسكوس من مهاجري الأندلس على هامش أنقاض الحكومة السعدية التي كانت في طور التّدهور والاضمحلال.

### الطور الثّاني :

من سنة ستّ وعشرين وستمائة وألف (1036/1626) إلى سنة إحدى وأربعين وستمائة وألف (1051/1641)، وفيه تحرّرت من كلّ تبعيّة ترجع للدولة السعدية، واستقلّت بنفسها واستبدّت بأمرها، وتكيّفت بكيفيتها الخاصّة بها، وأجرت أعمالها وغاراتها بكلّ حرية واستقلال، واتّسع نطاق سلطتها وميدان عملها، وازدادت اتّساعاً ونشاطاً سنة بعد سنة، حتّى حيّرت أوروبا، وضاقت بها ذَرْعاً.

وكان الشأن في أوّل هذا الطّور أنّ الرُّؤساء يكُونُون مستقلّين لا يعترفون بسلطة أحد عليهم إلاّ سلطة المجهّز للسفينة.

ولمّا استقلّت ما كان يسمّى بـ «الجمهورية السلاوية الرباطية»، وأحدث الديوان، فرض مراقبته على القراصنة والأسفار القرصانية التي كان يستمدّ منها قوّة وثروة عظيمة يعتمد عليها في وجوده واستمراره، فصار الرؤساء لا يخرجون إلى البحر إلاّ إذا حصلّوا على إذن خاصّ من هذا الديوان، ولكنّهم كانوا بمجرّد ما يخرجون لعرض البحر يتجاهلونه أو ينكرونه، ويستقلّون بأعمالهم، حتى إنّ أحدهم صرّح سنة ستّ وعشرين وستّمائة وألف (1036/1626) إلى جماعة نوّاب المملكة بفرنسا (Les Etats Généraux)، بأنّ سفن القرصنة الباربارية (Barbaresques) تمخر عباب البحار، ولا تحتاج إلى إذن أحد.

### الطور الثالث :

من سنة إحدى وأربعين وستمائة وألف (1051/1641) إلى سنة ثمان وستّين وستمائة وألف (1079/1668)، وفيه دخلت تحت نظر الدّلائيين، وازدادت حميّة وشدّة، وبلغت أوج عظمتها.

## الفترة الثانية :

من سنة ثمان وستّين وستّمائة وألف (1079/1668) إلى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف (1171/1757) وهي الفترة التي مهّد فيها المولى الرشيد الملك لنفسه، وأقام هيكل الدولة الشريفة العلوية، وأخضع سائر الثوّار المادّين أعناقهم إلى الملك بالمغرب، ومن جملتهم الدّلائيون الذين كانوا بزاويتهم الدلائية، والذين كانوا بالعدوتين على المصبّ الرّقراقي.

وجاء بعده أخوه المولى إسماعيل، فثبّت دعائم الملك وشيّد هيكل الدولة ورفع شأنها، وأعلى مقامها، وصارت القرصنة السلاوية الرباطية في هذه الفترة تقوم بأعمالها وغاراتها تحت إشرافه وأمره وباسمه ونظره، مع الاحتفاظ بسطوتها وشدّتها وعظمتها.

## الفترة الثالثة :

من سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف (1171/1757) إلى سنة ثمان عشرة وثمانمائة وألف (1234/1818)، وتلي الفترة الأخيرة التي أصبحت القرصنة السلاوية الرباطية فيها يُطلق عليها : قرصنة الدولة الشريفة العلوية، وامتدّ صيتها في العالم الأووربي، وحُسب لها حسابها، وأُدرجت في مجموع أسطول الدولة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وولده المولى سليمان.

ومنذ هذا العهد، دخلت في طور التقهقر والنُقصان، إلى أن اضمحلت في عهد السلطان المولى عبد الرحمان كما سياتي.

# الفصل الثاني

## عن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي
## في «العهد الانفصالي»
## أو ما كان يسميه الأوروبيون
## «الجمهورية السلاوية الرباطية»،
## وعن أهميته، وعدده، ونظامه،
## وبعض أعماله، وما ترتب عنها، وغير ذلك.

# المبحث الأول

# الأسطول في «العهد الانفصالي»
# أو ما كان يسمى
# بـ «الجمهورية السلاوية الرباطية».

## بداية الأسطول السلاوي الرباطي

لمّا استقرّ مهاجرو الأندلس ومن انضاف إليهم، وانتظم في سلكهم، ممّن سبقهم بالهجرة، أو من سكّان العدوتين وما والاهما وانضاف إليهما من الأتراك الجزائريين، كما تقدّم، والمغرب إذ ذاك في حالة فتنة وثورة عمّت سائر أقطاره وأطرافه، كان أوّل عمل قاموا به في حدود سنة تسع وستّمائة وألف (1018/1609)، يعني بعد وفاة المنصور السعدي بنحو ستّة أعوام، أنْ أسّسوا حكومة مستقلة عن الحكومة السعدية بمراكش وغيرها، أطلق عليها الأوروبيون في ذلك العهد "حكومة الجمهورية السلاوية" يعني والرباطية، التي تقدّم الكلام عليها وعلى نشأتها وما نشأ عنها، عند الكلام على الهجرة الأندلسية فيما سبق.

وبمجرّد تأسيسها، نظرت في اتّخاذ الأسباب والاحتياطات لكلّ ما يحميها، ويصون كيانها برّاً وبحراً، لأنّ أساطيل العدو الذي طردهم من أوطانهم، كانت مستولية على جلّ مراسي المغرب، وتريد الاستيلاء على ما بقي منها، وهي سلا ورباط الفتح لموقعهما الجغرافي الطبيعي المتقدّم وصفه، فحاولوا إصلاح دار الصّناعة بسلا لينشئوا بها أسطولاً مهمّاً، فلم يتمّ لهم ذلك كما أرادوا، لما تتطلّبه من النّفقات الباهضة، فأحدثوا مصنعاً للسُّفن أسفل حسّان على ضفّة الوادي، وصنعوا به سفنهم القرصانية، وقصدوا بها أوّلاً الانتقام من الأساطيل الإصبانية والبرتغالية، التي كانت تجول بالسّواحل المغربية القريبة منهم، وتحوم حول حماهم.

ولكنّ هذا الأسطول، لمّا برز للوجود وخرج، وجال في البحر مترصّداً قراصنة العدوّ ولجّج، تعدّاها إلى غيرها من أساطيل الدول الأخرى، وبلغ عدد سفنه نحو السّتين سفينة في كلٍّ سفينة ما يُجاوز المائتين من البحّارة، ونحو العشرين مدفعاً من النّحاس من بقايا مدافع الأسطول السعدي والمريني قبله، ثمّ أضافوا إليها مدافع أخرى ممّا كانوا يستوْلون عليه في السُّفن التي ياخذونها غصباً، أو يشترطونها على بعض الدّول التي يعقدون المعاهدات السّلمية معها، كدولة الفْلاَمَنْكْ وغيرها.

وبعد أنْ كان هذا الأسطول حربياً تجارياً، أصبح أسطولاً قُرصانياً تجول وحداته في أطراف البحر الأبيض المتوسط ومراسيه، وتُلجِّج في المحيط الأطلانطيقي، فتتخلّل شواطئ إنكلترا، وتجوس خلال السّواحل الفرنسية، والبلاد المنخفضة ببحر الشّمال، وتصل إلى الجزائر الخالدات في المحيط الأطلسي، وتتعرّض للسُّفن الأميركية، وترجع غالباً من جولاتها مثقلة بِالسَّبْيِ والغنائم.

فضجّت دول أوربا من ذلك، وتعدّدت السِّفارات والمعاهدات السلمية لفداء الأسرى من الجانبين، وتامين التِّجارة، وكثيراً ما كان يتدخّل في ذلك ترك الجزائر وبحريتهم القرصانية، وتحدث مشاكل وخلافات يصعب حلّها، ويطول شرحها، وسياتي مزيد تفصيل بعضها في فصول أخرى.

وبالجملة فأخبار أسطول ما كان يسمّى بـ «الجمهورية السلاوية والرباطية» ووقائعه في البحرين : المتوسط والمحيط طافحة بها كُتُبُ المؤرخين وَالرّحالين والأسرى من الأوروبيين في القرنين السّابع عشر، والثّامن عشر للميلاد (العاشر والحادي عشر للهجرة).

ويؤخذ من مجموع ذلك أنّها كانت تنقضّ عليهم انْقضاض عُقبان الجوّ، في وقت كانوا فيه شديدي الشوكة، كثيري العدد، متهافتين على الاستعمار، ومدٍّ سلطانهم وسلطتهم على الجزر والممالك التي من وراء البحار، أرسلها الله عليهم، فأذاقتهم أليم العذاب وشديد النّكال.

وإنّي أعرف بعض الأسر بسلا ممّن كانت فيهم الرياسة البحرية، لازالت تحت يدهم صكوك ورسوم وأوراق، وظهائر ودفاتر، وخرائط، وبوصلات، وآلات بحرية، من آثار أسلافهم يعتزّون بها، ويبالغون في المحافظة عليها، لأنها بقية من آثار أسلافهم الخالدة، وذكر لِمَا كان لهم من المقام السّامي من الجهاد في البحر والشّرف التّالد.

وقد وقفت على طرف منها، واستفدت منه استفادة جمّة.

وأمّا ما زعمه بعض متأخِّري الفرنسيين من تقليل أهميّة هذا الأسطول والحطّ من مكانته، كما فعل لُوِي بْرينو "Louis Brunot" الذي كان موظفاً بإدارة المعارف في عهد الحماية والاحتلال الفرنسي في كتابه المسمّى «البحر» (la mer) الذي شحنه بالسّفاسف والخرافات التي لا تستند إلى أصل صحيح، ولا نَقْلٍ عمّن يوثق به، فإنّما قصد بذلك تشويه الماضي، ومسخ التاريخ، وطمْس معالم الحقائق، كما هو شأن المستعمرين أمثاله مع الأمم التي يتغلّبون عليها، وتحكم الأقدار بانْضوائهم إليها، والدخول تحت وصايتها وحمايتها حيناً من الدّهر.

وكيف يمكن له أن يُنكر حقائق سجّلها أبناء جنسه، وأجمعوا عليها وسلّموها، وتناقلوها مدّة قرنين من الزّمن تقريبا، وتُعضِّدُها الوثائق والمعاهدات الدولية والصّكوك الرسمية، الصّريحة الصّحيحة القومية، وماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال.

# المبحث الثاني

# أهمية الأسطول السلاوي الرباطي وعدده ونظامه

لمَّا تمّ تأسيس الأسطول السلاوي الرباطي، وجُهّز بما يتعيَّنُ تجهيزه به من العدَّة والسّلاح والبحّارة، برزتْ وحداته للبحر مطالبة بأخذ الثّار من العدوّ والاستيلاء على سفنه، وما اشتملت عليه من سِلَع وسِلاح ومال، وأقوات ورجال.

وكان ميدان هذه القرصنة السلاوية الرباطية على العموم بالمحيط الأطلانطيقي، وكانت سُفُنها تصول وتجول فيه من جزر كناريا إلى مرسى بْرِيسْطْ "Brest" بفرنسا، وطالما استولت على عدّة سفن مشحونة بالبضائع من مراسي بَايُونْ "Bayonne" وبُورْدُو "Bordeaux" ولَارُوشِيلْ "La Rochelle" ونَانْطْ "Nantes" والهَافْرْ "Le Havre" ودْيِبْ "Dièppe" ودُونْكِيرْكْ "Dunkerque" وغيرها.

كما كانت تصل إلى الأرض الجديدة، (Terre Neuve)، ويطوف القراصنة حولها يلتقطون ما يجدونه من السُّكّان، ويستولون على ما يُمكنهم الاستيلاء عليه من السّفن.

وكانوا يترصّدون كلّ سنة رجوع الأسطول الفرنسي التجاري من البرازيل، ويتعرّضون له وينهبونه ويستولون على ما فيه من العُروض والرّجال والنساء، فتُباع العُروض، ويُستمتع بالرجال والنساء، كلّ فيما يُناسبه، فإمّا منّاً بعد وإمّا فداءً حتّى تضع الحرب أوزارها.

وكان ملوك فرنسا يتّخذون الاحتياطات اللاّزمة لذلك بحراسة الشواطئ والسُّفن، ولكّن ذلك كان لا يُجدي شيئاً في حِيَلِ القراصنة المتنوّعة وتلبّسهم بصفات متعددة متخالفة متلوّنة، تُخْفي حقيقتهم على رؤساء البحر وأميرالات السُّفن التي يريدون مهاجمتها وأخذها.

كما كانوا يتحيّنون الفرص والغفلة، ويباغثون سكّان السواحل الأوروبية ليلاً، ويدخلون عليهم منازلهم ويأخذونهم نساءً ورجالاً وأطفالاً ومتاعاً وأثاثاً وفرشاً ورياشاً حتى قيل إنّ القرصان السلاوي الرباطي، تغْرُب عليه الشّمس بإصبانيا مثلاً، وتَطْلُعُ عليه بالمغرب(15).

وكان الاتِّفاق والاتِّحاد في هذه الأعمال مُبْرَماً مُحْكماً ما بين قراصنة سلا والرباط وقراصنة الجزائر من الأتراك يُعين بعضهم بعضاً، ويتكيّف أحدهم بصفة الآخر، ويعملون في ميدان واحد.

وكانت بعض الدّول تسترضيهم بما تدفعه لهم من المال والمدافع وآلات الحرب في كلّ سنة ومناسبة، محافظة على سفنها التّجارية.

وكان القراصنة يُنْزلون ما يأخذونه منها منزلة الجِزْية المفروضة على أهل الذّمة.

وقد وصف دُوكاسطري (De Castries) في «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»(16) حالة الأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته منذ أوّل عهده فقال :

«رغماً عن عدم صلاحية سواحل المحيط بالمغرب الأقصى، فإنّها كانت منذ القديم، مرتعاً للقراصنة من الجنويّين والإيطاليين، والبروفانْسيين، وخصوصاً الهولانديين الذين يلتجئون إلى موانيه الصّعبة كالعرائش، والمعمورة وسلا حيث لا تُدركهم السّفن المطاردة لهم في البحر كلّما أخذوا مراكب مشحونة بالرّجال والسّلع، ولكنّ ذلك كان قليلاً، ويقع في فترات من الزّمن، ولا يؤثّر على الملاحة العامّة.

وطالما حاولت إصبانيا إيقاف هذه الحركة القُرصانية حماية لسفنها وأساطيلها في طريقها إلى الهند، ووجّه فيليب الثاني "Philippe II" سفينة كبيرة لتسدّ ميناء العرائش، فلم تقدر على ذلك، ولم تحصل على طائل، ودمّرها قراصنة العرائش بمدافعهم وأحرقوها، وذلك سنة أربع وستّين وخمسمائة وألف 972/1564 (في عهد السلطان الغالب بالله السّعدي).

وبعد هذه الخيبة، اهتمّ ملك الإصبان بالعرائش إلى أن فتح المذاكرة السرِّية في شأنها مع محمد الشّيخ الملقّب بالمامون بن المنصور السعدي، واغتنم فرصة الْتجائه إليه مستصرخاً به على أخيه السّلطان زيدان، وخادعه حتى سلّم له العرائش سنة عشر وستّمائة وألف (1019/1610)، وكانت المأساة المعلومة، وانسحب قراصنة العرائش إلى المعمورة.

---

15) "La Piratrie" par J. Jeannel, p. 42-43.

16) ص 10 من مقدمة المجلد 5، سلسلة هولاندا.

فعمد فيليب الثالث (Philippe III) إلى مصبّ وادي سبو وسدّه، فلم يكن السّد محكماً، واستمرّ القراصنة على الدخول إليه والخروج منه لعدم عمق سفنهم.

ولمّا رأى ذلك جهّز أسطولاً عظيماً يتركّب من تسع وتسعين قطعة وخمسة آلاف جندي، وحاصر المعمورة، وبعد مقاومة قصيرة، اضطرّت إلى التّسليم سنة أربع عشرة وستّمائة وألف (1023/1614).

وظنّ ملك الإصبان أنّه كان استراح من القراصنة. ولكنّ الموريسْكُوسْ المطرودين من إصبانيا، جاؤوا وجدّدوا عهد القرصنة وأحيوْا معالمها وأظهروا مآثرها، بأشدّ ممّا كانت عليه.

وكان هدفهم الأوّل إصبانياً، ونزلوا بمصبّ أبي رقراق، وانضمّ إليهم إخوانهم من الحرناشيروس، وكانوا بحكم نزولهم بالقصبة حاكمين على مصبّ النّهر، وعلى جميع السّفن الدّاخلة إليه والخارجة منه.

وشرعوا حالاً في بناء السُّفن وتجْهيزها، وحَمِيَ الوطيس بينهم، وفي زمن قريب، صارت الملاحة صعبة مهلكة بسائر سواحل المحيط الأطلانطيقي. كما كانت بسواحل البحر الأبيض المتوسط من قبل، واتّسع نطاقها، وامتدّ ميدان عملها، بعد ذلك شيئاً فشيئاً إلى أنْ ضجّت منها دول أوربا.

ولم يكن الرّبابنة والرؤساء في ذلك العهد يخافون من هوْل البحر وطغيان أمواجه، ولا من صخوره وقواصفه وعواصفه، وإنّما كانوا يفزعون من القرصنة الجديدة النّاشئة على ضفّتي نهر أبي رقراق، ويحسبون لها ألف حساب.

وارتفعت أثمان المراكب، وأجور نقل السّلع فيها، وتضاعف عدد النّوتية والبحّارة في كلّ سفينة، وزادت شركات التّأمين على الأموال والأرواح في سعر تأمينها، زيادة تناسب الحالة الجديدة المتجلّية في الملاحة بالسواحل الإفريقية والأوربية.

قال الأب بْيِير دَانْ "Pièrre Dan"[17]: كان عدد الأسرى بمدينة سلا، يعني والرباط، في عهده ألفاً وخمسمائة (1500) أسير، منهم أربعمائة من الفرنسيين.

وقال أيضا[18]: بلغ عدد الذين أسلموا من الأسرى في زمنه ثلاثمائة وقليلاً من النساء.

---

17) ص 319.

18) ص 341، في كتابه «تاريخ البلاد البابربارية» (Histoire de la Barbarie)، طبع سنة 1647.

ثم قال دوكاسطري (De Castries) : وبلغ في ظرف نحو ثمانية أعوام، من سنة ثمان عشرة وستّمائة وألف (1027/1618) إلى سنة ستّ وعشرين وستمائة وألف (1036/1626) عدد الأسرى بالعدوتين السلاوية والرباطية ستّة آلاف (6000) أسير، ولم تكن قيمة الغنائم المحصّل عليها أقلّ من خمسة عشر مليون ليرة، وهو قدر عظيم في ذلك الوقت.

وسجّل أمناء ديوانة العدوتين في دخل الديوانة، سنة تسع وعشرين وستّمائة وألف (1039/1629)، نحو خمس وعشرين أو ستّ وعشرين مليون دوكا ذهبية.

وقد كانت إصبانيا المقصودة بالذات من هذه الحرب البحرية أو الجهادية، وبذلك أدّتْ ثمن طرد المسلمين من بلادهم، وإخراجهم من ديارهم، سنة عشر وستمائة وألف (1019/1610) غاليًا جداً، لاسيما وهؤلاء القراصنة الأندلسيون المطرودون، كانون يعرفون اللُّغة الإصبانية معرفة متقنة، ويعرفون البلاد والشواطئ الإصبانية معرفة أهل مكّة بشعابها، ولذلك سهُل عليهم العمل، وتمكّنوا من العدوّ تمكُّناً أبلغهم من نكايته الأمل.

ثمّ أُلْحقت فرنسا بإصبانيا، وتتبّع القراصنة السلاويون الرباطيون مراكبها في كلّ خليج وساحل، وطاردوها في لُجَج البحار في البكور والأصائل، وكان إذ ذاك ميدان جرْي قراصنهم يمتدّ من الجزر الخالدات (كناريا) إلى سواحل مرسى بْرِيسْطْ (Brest) الفرنسية، وازداد بعد ذلك اتّساعاً، وازدادت السفن عدداً وإتْقاناً، فجالوا في المياه البريطانية، ووصلوا إلى الأرض الجديدة (Terre-Neuve)، وهي جزيرة واسعة معدودة من أمريكا الشمالية، وكانوا يتسلّطون على نواحي الكُثبان الرملية المعدّة لصيد الأسماك، فيُحْدثون بها أضراراً كثيرة، ويُغرقون ويحرقون ويُتلفون السفن المعدّة للصيد. وفي ظرف سنتين أغرقوا، وأحرقوا، وأخذوا من هذه السُّفن الصيدية بمرسى الهافْرْ (Le Havre) وكراس (Grace) ما يزيد على أربعين سفينة، زيادة على الهجوم والنزول غفلة على عدّة مُدُن ساحلية، أو مراكز بحرية أخرى، فيختطفون الرجال والنساء، ويستبيحون السّلع والأموال التي يجدونها فيها.

وكانوا قليلا ما يتجاوزون في أوّل عهدهم بوغاز جبل طارق، لأنّ قراصنة الجزائر كانوا يدّعون احتكار البحر الأبيض المتوسّط لهم وحدهم.

وإذا لم يُصادفوا سفناً في البحر تحيّنوا الفرص ونزلوا إلى البرّ في أوقات معلومة عندهم على حين غفلة من أهلها وخصوصا في السّواحل الاصبانية لمعرفتهم بها كمعرفتهم كفّ يدهم فيفعلون ما يشاؤون، ويأخذون ما يشاؤون ويملؤون سفنهم بما يشاؤون، ويرجعون سالمين غانمين كما يشاؤون، حتى قال فيهم سِرْفانْطِيسْ (Cervantes) قولته المشهورة :

«كانوا تَغْرُبُ الشمس عليهم بإصبانيا، وتطلع عليهم بالمغرب». وإذا كان عددهم وافراً، تقدّموا من الشاطئ إلى القرى القريبة منه، وباغتوا أهلها وهم نِيَام، واختطفوا الرّجال والنساء والصّبيان، وربّما كان سكّان تلك القرى في فرح أو نزهة خارجها فيترصّدونهم ويأخذونهم على غِرّة أثناء الأكل والشّرب، فلا يتنبّهون إلاّ ورجال القراصين مُقبلون عليهم في زيّهم الخاصّ لابسين السراويلات الحمر، والبرانيس البيض، وهم يُنادونهم : استسلموا أيُّها الكلاب، وكان هذا الأمر معروفاً عندهم، حتى إنّ ناظر البحرية الفرنسية كتب مرّة للوزير كولبير (Colbert) يقول له : إنّه لا يمكن بحال منع القراصنة من النزول إلى البر، لأنهم لخفّتهم المعروفة يضعون أقدامهم في البرّ، وفي ظرف ثلاث ساعات يكونون قاموا بعملهم ونفّذوه طبق برامجهم المقرّرة.

ولغاراتهم المتكرّرة على شواطئ أوربا، وما كان يُقال ويُنقل عنهم في الأندية والمجامع العامّة وفي بعض المؤلفات والصّحف، كتب فيهم جماعة من كتّاب ذلك العصر مقالات وروايات شعرية خيالية تمثيلية كانت تمثّل على المسارح تخويفاً وتهويلاً وتحريضاً على الانتقام.

وقد كان الجزائريون والتونسيون والطرابلسيّون في ذلك العصر مقتصرين في قرصنتهم على الجولان في البحر الأبيض المتوسط.

كما كان السلاويون الرباطيون في الغالب مقتصرين على الجولان في المحيط الأطلانطيقي، ثمّ صاروا بعد ذلك يتجاوزون بوغاز جبل طارق ويجولون في البحر الأبيض المتوسط أيضا.

وكان قراصنة سلا ورباط الفتح يعتمدون في استيلائهم على السّفن التجارية ولو كانت محروسة على صدق عزيمتهم في الهجوم وتضحيتهم واستماتتهم لأنّها في الغالب تكون مشحونة بالسّلع والمُؤن، وفيها قليل من الرّجال المسلّحين وبعض المدافع فقط.

بخلاف سفنهم فإنّها تكون مشحونة بالجند المسلّح من رأسه إلى قدمه، ومعه جميع ما يحتاجه من السّلاح والبارود والقنابل والمدافع المتعددة ويُلجِّج البحّار فيها ولا همّة له ولا أمل إلاّ في الغنيمة التي سيحصل عليها.

وكانوا يقتصرون في معيشتهم في السّفن على ما لابدّ منه من الطّعام اليابس الملائم لحالتهم.

وإذا أخذوا سفينة أوربية مشحونة بالمؤن، ترفّهوا بها، وازْدادوا مطاولة وجولاناً في البحر عدّة أيّام أخرى.

ويزيد البحّار السلاوي الرباطي على هذا ما كان يُبديه ممّا هو مجبول عليه من الحيل والمباغتة واستبدال الرايات والأعلام، ليُضلّل السُّفن الأجنبية المطاردة أو المحاربة، واستعمال لغات أجنبية مختلفة لأنّ غالب البحّارة، وبعض رؤساء السّفن، كانوا أجانب أسلموا من الإيطاليين والفرنسيين والإنجليزيين.

وربّما كان بعضهم أقام في أوربا مدّة طويلة في أسر أو تجارة أو نحوها، وأتقن لغة البلاد التي كان فيها.

إنتهى ما ذكره دوكاسطري "De Castries" .

وقال كايّ (Caillé)، في تاريخ مدينة الرباط وهو مجانس وموافق لما تقدّم، وربّما كان فيه بعض مزيد بيان وإيضاح ولذلك أدرجناه بمجمله :(19)

بلغت القرصنة السلاوية الرباطية أوجها في عهد «الجمهورية البورقراقية»، وهي وإنْ كانت موجودة بسلا قبل هذا العهد، فقد كانت غير منتشرة ولا يُخْشى بأسها لضعفها، وقلّة ضررها.

وغاية أمرها في أوّل عهدها، أنّ بعض السُّفن كانت تلتجئ إلى أبي رقراق وتترصّد الفرص من حين لآخر، حتّى تصْطاد سفينة منِ السفن المسيحية منعزلة في البحر فتهاجمها وتنقضّ عليها على حين غفلة من رُكّابها.

ولم يكنْ هذا يُقْلق بالاً، أو يُحْدث في نظام البحرية الدولية اختلالاً.

ولمّا نزل الحورناشيروس والموريسكوس الأندلسيون على ضفّتيْ النهر الرقراقي ومصبّه، واتّخذوا القرصنة حرفة لهم، واشتغلوا بها، ونشروها، ووسّعوا دائرة أعمالها، ولم يتعرّض لهم السلطان زيدان السّعدي، وغضّ الطرف عنهم، لأنّهم كانوا يُعطونه العُشر من جميع ما يغنمونه من الرجال والسّلع.

وفي سنة أربع عشرة وستمائة وألف (1023/1614)، طرد الإصبان قراصنة حلق المعمورة، فالتجؤوا إلى سلا، وانضمّوا إلى الموريسكوس، وكان ذلك باعثاً على تقويتهم وتشجيعهم في أعمالهم، فانتشرت القرصنة حينئذ بغاية السُّرعة.

---

19) من ص 223 إلى ص 227 من ج 1.

وقد تنبّه لمستقبل هذه القرصنة وسرعة انتشارها أحد الهولانديين الذين كانوا بالمغرب سنة سبع عشرة وستّمائة وألف (1026/1617)، وحذّر منها ومن عواقبها، وقال : إذا لم نأخذ بالحذر والاحتياط اللاّزم، فإنّ قراصنة سلا والرِّباط سياخذون منّا كلّ ما وجدوه وقدروا على أخذه.

وقد كان تنبّؤه صادقا، لأنّ القرصنة السلاوية الرباطية أصبحت منذ سنة عشرين وستّمائة وألف (1030/1620)، منتشرة مخوفة مفجعة في البحرين معاً : الاطلانطيقي، والأبيض المتوسط، وخصوصا بعد انضمامها واتِّحادِها مع قرصنة الجزائر وتونس.

وبمقتضى هذا الانتشار السريع، والاتّحاد الواقع، بلغ عدد الأسرى من المسيحيين ما بين سنتي ثمان عشرة وستمائة وألف (1028/1618) وستّ وعشرين وستّمائة وألف (1036/1626) ستّة آلاف أسير، وتجاوزت المغانم خمسة عشر مليون ليرة، كما قدّر ذلك رازيلي (Razilly) في مذكراته المرفوعة إلى ريشْلْيُو (Richelieu) بتاريخ سادس وعِشْرِي نونبر سنة ستّ وعشرين وستمائة وألف (26 نونبر 17/1626 ربيع الأول عام 1036).

وفي مدّة عشرة أعوام، من سنة تسع وعشرين وستّمائة وألف (1039/1629) إلى سنة تسع وثلاثين وستمائة وألف (1049/1639)، سجّل الموريسْكُوس في دخل ديوانة العدوتين خمسة وعشرين أو ستّة وعشرين مليون دُوكًا.

وكان المعتني بهذه القرصنة وتنظيمها وتقويمها والمهتم غاية الاهتمام بها، هم المُورِيسْكُوس لمّا نزلوا بالضفّة اليُسرى لمصبّ أبي رقراق انتقاما من الإصبان الذين طردوهم وأخرجوهم من أرضهم وديارهم.

وقام الحورناشيروس، سكّان القصبة بتجهيز السُّفن وتسليحها والاهتمام بشأنها وسائر لوازمها بما جاؤوا به معهم من الأموال الطائلة.

وكان ملاّحو هذه السّفن القرصانية يتركّبون من هؤلاء الأندلسيين ومن بعض المسيحيين الذين أسلموا وأووْا إلى المغرب من سائر أنحاء أوربّا، وخصوصا البلاد المنخفضة، وهُمْ من هُمْ معرفة كافية بالملاحة البحرية، والقدرة على القتال بشهامة وشجاعة، ولذلك أسندت لهم بهذه الأساطيل الوظائف المهمّة.

فكان منهم الرؤساء والرّبابنة، والمديرون، والمدبّرون والنّجارون والقلافْطيون، والجرّاحون، وأصحاب الشّواقر.

وأمّا البحّارة، فكانوا يختارونهم من العساكر المدرّبين، وفي الغالب من الأندلسيين، وربّما كانوا مغاربة من المرتزقين، الطامعين في الأجر أو الغنيمة. ويُسلّحون أتمّ تسليح وأكمله، وهم أول من يقتحم السّفن المعادية المطاردة في البحار ليتمّ الاستيلاء عليها، وإجبارها على الاستسلام.

وأمّا النوتية وأصحاب المجاديف، ونشر القُلوع وطيّها، فقد جرت العادة بأنْ يكونوا من الرّقيق أو العبيد الأقوياء الغِلاظ الشّداد الذين لهم قدرة على القيام بالأعمال الشاقّة.

وكانوا أيضاً يستعملون الفنّيين الاختصاصيين في صنع السّفن وتجهيزها من الأوروبيين، وخصوصاً الهولانديين الذين كانوا يُزوّدونهم بكلّ ما يحتاجون إليه ويتوقّفون عليه كالنّجّارين البارعين في صناعة السّفن فيصنعونها لهم بالمصنع الذي اتّخذوه على الضّفة اليُسرى للوادي أسفل منار حسّان.

وكانت هذه السُّفن خفيفة مستديرة أو مستطيلة لها صاريان، وتجري في البحر بالمجاديف والقلوع، مسطّحة القعر، لتتمكّن من الدّخول والخروج بسهولة من المصبّ الذي يكون في الغالب معموراً بالرّمال.

وقد أخبر الهولاندي ألْبِيرْ رُويلْ (Albert Ruyl) بأنّه كان بأبي رقراق من هذه السُّفن سنة اثنتين وعشرين وستّمائة وألف (1032/1622) ثلاث عشرة سفينة.

ولكنّ رَازِيلي (Razelly) ذكر أنّه عدّ ستّين سفينة سنة ستّ وعشرين وستّمائة وألف (1036/1626).

وذكر القنصل هَانْرِي بْرَاطْ (Henri Prat) أنّه لم يكن بالوادي سنة إحدى وثلاثين وستّمائة وألف (1041/1631) إلاّ ثلاثون سفينة.

وصرّح الإنجليزي رَانَسْبُوروغْ (Rainsborough) بأنّه رأى سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1047/1637)، أربعين أو خمسين سفينة.

والذي يظهر لنا هو أنّ عدد سُفن الأسطول القرصاني التي تجتمع بأبي رقراق كان يزيد وينقص، بحسب الظّروف والأحوال والأزمنة والفصول، فتكثُر إذا كانت كلُّها مجتمعة راسية بالوادي، وتقلّ إذا كانت متفرّقة سابحة في البحار، سائحة في سواحل الدول المعادية والمراسي والأمصار، وكلّ من أولئك الأوربيين أخبر بما شاهده في الوقت الذي كان فيه بالعدوتين، ومجموعه يدلُّ على الكثرة والتّعدّد.

هذا وقد كانت هذه السُّفن الصغيرة الخفيفة تتجاوز المصبّ بكلّ سهولة وفي كلّ وقت، ولا يعوقها هيجان البحر ولا كثرة الرّمال المجتمعة بالمصبّ، بخلاف السُّفن الأوربية المطاردة لها لكِبرها وعُمْقها، فَتُضْطَرُّ أنْ تقف بعيدة عن المصبّ، وإنْ اقْتربت منه جنحت، وتلك هي المصيبة العظمى عليها.

وكان كلّ من في هذا الأسطول من الرؤساء والرّبابنة والبحّارة والنّوتية وغيرهم مضحّين بأنفسهم، مستعدّين للأسْر أو الموْت في كلّ وقت وحين.

وكانت الأقوات تُوزّع عليهم وبينهم على السّواء، وليس بينهم مُفضّل ولا محروم، ويُقتصر فيها على اللاّزم، وما تقوم به البِنْية بلا رفاهية ولا إسراف، وإنّما يُعتنى ويُهتمّ في كلّ سفينة بما ستحمله من المدافع والعدّة والسّلاح.

وكانت هذه الاعتبارات كُلُّها في صالح السّفينة، ومن يكون فيها، وفي ذلك ضمانة لنجاحها في مهمّتها الحربية.

وقد كان الباعث الأوّل على إيجاد هذه القرصنة السلاوية الرباطية، الضّغن والحقد المتأجّج في قلوب الأندلسيين على الإصبان الذين أساؤوا إليهم قولاً وفعلاً، وأخرجوهم من ديّارهم، وفتنوهم في دينهم، ولم يراعوا فيهم إلاّ ولا ذمّة ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإنّ الله على نصرهم لقدير، الذين أُخْرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربّنا الله﴾.

فكانوا يهاجمون السُّفن الإصبانية، ويتمكّنون منها بكلّ سهولة لإتقانهم اللّغة الإصبانية، ومغالطتهم بنشر الرّاية الإصبانية، وإظهار أنّها مجرّد سفن تجارية، وليست قُرصانية ولا حربية.

ثمّ عمّت القرصنة وانتشرت في البحرين : الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلانطيقي، وشَمِلت دوَلاً أخرى، وخصوصاً فرنسا وإنكلترا، ووصلتْ وحداتها إلى سواحلهما، وأحدثت الرُّعب في المدن والمراسي التي عليها، وتجاوزتهما إلى الأرض الجديدة (Terre-Neuve)، ولم تقتصر على مطاردة السُّفن في البحار وأخذها، بل كان القراصنة السّلاويون الرباطيون ينزلون إلى البرّ، ويُباغتون السكان في ديارهم ومنازلهم، ويتخطّفونهم ويأخذونهم أسرى ليكون فداؤهم بالمال، أو بمعاوضة أسرى آخرين من المغاربة والمسلمين الذين كانوا عندهم.

وفي هذه الحالة صدرت مقالة سِيرْفَانْطِيسْ (Cervantes) المتقدّمة الذكر، وهي : «أنّ القُرصاني المغربي تغرب عليه الشمس بإصبانيا، وتطلع عليه بالمغرب».

قلت : وقد كان البرتغاليّون والإصبانيون المحتلون لمراسي المغرب، يفعلون مثل هذا، ويتخطّفون الرّجال والنّساء والصّبيان، أو يرتشون من يَتَخَطَّفُهُمْ لهم ممَّنْ هان عليهم دينهم، وهم الحنّاشة[20] من أطراف المدن والقرى المجاورة لهم أو القريبة منهم، ويبيعونهم رقيقاً بمدنهم، ويبقون في الأسر والرِّقّ حتّى يتوفّاهم الموت أو يجعل الله لهم سَبيلاً بالفداء أو النّجاة بوجه من الوجوه، حسبما تقدّم الكلام عليه فيما سجّلناه من أخبار أسرى المسلمين في دار الحرب في محلّه بمزيد تفصيل وتحصيل في كيفية فدائهم، وما بذله الملوك في شأنهم.

وقد كان الخورْناشيروس سكّان القصبة هم المُجهِّزون لهذه السفن القُرْصانية والمنفقون عليها، بما كان لهم من الثّروة والغنى، وكانوا يربحون منها أرباحاً طائلة.

وكان حكّامهم ورؤساؤهم يهتمّون بجلب الأدوات والسّلاح المحتاج إليه، ويستعملون في الحصول عليه جميع الوسائل، ويشترك الجميع في النّفقات اللاّزمة، كأنّها شركة مساهمة، وكلّ كان يدفع على قدر وُسعه وثروته، حتّى كان البعض يُساهم بعشرة دوكات فقط، وكانت الأرباح تُقسم بين المساهمين على حسب سهامهم كثرة وقلّة، وذلك بعد أخذ الحكومة القدر المخصّص لها.

وأخبر ألْبِيرْ رُويِلْ (Albert Ruyl) أنّ قائد القصبة وكاتبه المسمّى موريزْ سانْ جاكُو (Maurice Saint Jago) أخذ سنة اثنتين وعشرين وستّمائة وألف (1032/1622) من جميع مغانم سُفُن أبي رقراق الخُمُس لإصلاح قصر القصبة وأبراجها وحصونها.

وفي السنة نفسها، أسر أحد خدّام القائد المذكور، المسمّى عليّ بن علي سفينة كانت متوجّهة من مُوسْكُو فِي (Moscovie) إلى لِيفُرْنْ (Livourne)، وكانت حاملة ما يزيد على ثلاثة آلاف جلد من الجلود المختلفة الأنواع، ومائة واثنين وخمسين طنّاً من الحيتان، وثلاثة وتسعين طناً من الْكَافْيَارْ (Caviar) وألف قطعة من العود البرازيلي، وتقدّر قيمة الجميع بمائة وستّين ألف فْلُورَانْ، ولا شكّ أنّ هذه كانت غنيمة جيّدة وصفقة رابحة.

ويؤخذ من هذا كلّه، ما كان للقرصنة السّلاوية الرباطية في أوّل عهدها، وابتداء أعمالها من التّفوق والظّهور في البحرين : المتوسط والمحيط، حتى قال ألْبِيرْ رُويِلْ (Albert Ruyl) إنّها سيطرت على الملاحة فيهما في ذلك العهد حقبة من الدّهر.

20) يراجع «الاستقصا»، ص 115 من ج 3، طبع القاهرة. وص 256 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

هذا، وقد كانت هذه القرصنة السّلاوية الرباطية في أوَّلِ عهدها، سنة أربع عشرة وستّمائة وألف (1023/1614) المقصود بها أخذ الثّار والانتقام من الإصبان كما تقدّم، ثمّ آلت إلى غيرهم من الدّول المسيحية باعتبارها حرباً جهادية دينية، ثم صارت مادّة تجارية اقتصادية، بما ذرّته من الأرباح على القائمين بها، والمحترفين بحرفتها، وجلّهم أو كلّهم في ابتداء الأمر كانوا من الأندلس سكّان القصبة وسلا الجديدة أو رباط الفتح.

وقد كُتب لهم النّجاح لاستعانتهم بمن انضمّ إليهم من الأجانب ومسلمة ذلك العصر، وإعانة بعض الدول الأوروبية البحرية لهم، وخصوصاً البلاد المنخفضة، ولوْلا ذلك لَمَا طال عمرها، حتّى أصبح عمران هذا المصب الرّقْراقي المرسى المقصود المشهور عند الملاّحين والبحّارين، وورد اسمه، وصدى أعمال أسطوله عامّة وخاصّة عند ملوك وأمراء جميع الدّول الأوروبية دهراً طويلاً.

إنتهى ما ذكره كايي (Caillé) في «تاريخ رباط الفتح» ببعض اختصار وتصرّف.

# المبحث الثالث

## بعض الحيل التي كان يستعملها القراصنة لأخذ السُّفن غنيمة دون قتال

كان قراصنة العدوتين من عادتهم أنْ يعملوا على الحصول على المغانم الكثيرة، وأخذ السُّفن في غاراتهم البحرية بدون مواجهة العدوّ أو مفاتحته بالقتال.

وإنّما كانوا يستعملون الحيل الموصّلة إلى أغراضهم مهما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

ويقولون : إنّ في الحيلة غنيمة السّفينة وما فيها، وغنيمة الوقت، والمحافظة على الأموال والأرواح والسّلاح من الضّياع... ولا يستعملون القتال إلاّ عند الحاجة الملحّة إليه.

وفي الغالب كانوا يترصّدون السُّفن التّجارية الماخرة في البحر منفردة غير مسلّحة، فيباغتونها ويأخذونها على غِرّة وحين غفلة من نُواتِها وركّابها، وتكون لهم غنيمة باردة.

وكان من عادتهم أيضاً، ألاّ يواجهوا أسطولاً مسيحياً إذا علموا أو تحققوا أنّه أقوى منهم عدّة وعدداً، ولا يُغرّرون بأنفسهم وأسطولهم بمن هو أشدّ منهم قوّة ويقولون : «لا فائدة فيه لتوقّع الخسارة الناتجة عن قتاله، كالأسر والتّفريق والتّحريق، والتّغريق ونحو ذلك».

لاسيما وقد وقعت لهم قضايات من هذا القبيل.

ومن ذلك أنّ سفينة قُرصانية كانت في غارة بحرية سنة خمس وعشرين وستّمائة وألف (1035-1034/1625)، فالتقتْ بسفينة إنجليزية أقوى منها فحاربتها، ولكنّها غلبتها، واستولت عليها وعلى ما فيها من مال ومتاع، وأخذت البحّارة فقذفتهم في البحر، وأسرت الرّئيس وبعض من كان معه من الأعوان والجيش البحري حتّى فَدَوْا أنفسهم بعد أخذ وردّ، وتكرّر هذا مراراً متعدّدة.

ومن جملة الحيل التي كانوا يستعملونها أَنَّهُمْ كانوا إذا صادفوا سفينة منفردة تجارية سابحة في البحر، وعرفوا جنسيتها، رفعوا فوق صاري سفينتهم علم دولتها، أو علم دولة أخرى محالفة لها، أولها عهد معها، لتغترّ بذلك وتستأمن إليهم، حتى إذا اقتربوا منها، أو وصلوا إليها، كانت الطّامة الكبرى عليها.

وقد كانت السّفن القرصانية الأجنبية في ذلك العهد تسافر تحت راية دولة من الدّول التي لها عهد أو تحالف مع قراصنة العدوتين لتحتمي بها، وتأمن غائلة هجوم السفينة المعادية لها.

ومن جملة الحيل التي كانوا يستعملونها كذلك، أنهم كانوا يأخذون معهم جماعة من النّصارى الذي فارقوا دينهم ودخلوا في دين الإسلام، وإذا وصلت السّفينة القرصانية المغربية إلى مرسى من المراسي الأجنبية لَجَؤُوا إلى حيلة يضلّلونها بها، فإنْ كانت إصبانية مثلاً، تولّى الكلام والمخابرة مع أهلها الإصبانيون الذين أسلموا بلغتهم، وإن كانت برتغالية، تولّى الكلام والمخابرة مع أهلها البرتغاليون الذي أسلموا بلغتهم أيضاً.

وهكذا كانوا يفعلون مع السُّفن الأخرى التي يصادفونها في البحر، حتى إذا تمكّنوا من أهل المرسى، أو بحّارة السفينة واستكنوا إليهم وأضلّوهم، أخذوهم على غِرّة أخْذَ عزيز مقتدر.

وفي بعض الأحيان كانوا يطالبونهم بالاستسلام وتسليم السفينة بما فيها من بضائع وأقوات، ويَعِدونهم ويمنّونهم بإطلاق سراحهم من الأسر، فتارة ينخدعون لهم، ويستسلمون، وتارة يحاولون المقاومة، وفي الغالب تكون غير ناجحة، وتكون الكرّة عليهم، فيقتلون فريقاً وياسرون فريقاً، وهكذا.

ومن جملة الحيل التي كانوا يخادعون بها أيضا رؤساء السُّفن التّجارية، أنّهم كانوا إذا اقتربوا منها، أو حاذوْها طالبوا رئيسها بالاجتماع برئيس سفينتهم القرصانية للمذاكرة معه، والاطّلاع على أوراقه، فينخدع لكلامهم ويُلبّي الدّعوة، وينزل في زورق، ويذهب للمذاكرة معه، ولكن بمجرّد ما يتمكّن منه يعتبره أسيراً، ويأمره بتسليم السّفينة بما فيها من السّلع والرّكاب، وإلاّ فعل به وفعل... وحينئذ لا ينفعه إلاّ الاستسلام ويجد القيد مُهيّئا ليوضع في رجليه، والسِّلْسِلة مُهيئة لتوضع في يديه وعنقه، والمدافع منصوبة مصوّبة نحو سفينته لتَنسفها أو تُغرقها في الحين.

وقد حدّث مويط (Mouëtte) في كتابه الذي قصّ فيه قصّة أسره ببعض هذه الحيل،[21] وأخبر بأن القراصنة كانوا يعتمدون قصد السفن التجارية غير المسلّحة، ويقتربون منها حتى يلتصقون بها، ويصعدون إليها وسيوفهم ورماحهم وشواقيرهم في يدهم يرهبون بها بصياحهم وهجومهم عدوّهم فيستسلم لهم في الحين.

وفي بعض الأحيان، كانوا يأخذون السّلع وياسرون الركّاب، ويُغرقون السفينة إذا كانت لا تصلح لهم، أوْ لا غرض لهم بها.

وهكذا كان عملهم وفي الغالب يكون ناجحاً.

---

[21] «أسر السيد مْويطْ»، ص 24 والتي تلي – (La Captivité du sieur Mouëtte).

# المبحث الرابع

## كيف كان يستقبل السلاويون والرباطيون رؤساء الأساطيل إذا رجعوا بالمغانم[22]

كان الأندلسيون اتَّخذوا بِأَعْلَى منار حسّان، مرقباً يراقبون منه السُّفن المقبلة من البحر قاصدة مصبّ أبي رقراق ومناراً يرشدها إلى البرّ، كما اتَّخذوا بأسفله مصنعاً لها.

وكانت إذا رجعت سفينة من سفنهم القرصانية، ورأوْها من أعْلى حسّان، واهتدت إلى المصبّ بواسطة المنار المضيء باللّيل، واللاّمع بالنهار، أعْلموا بها الناس، وتَهيَّؤوا لاستقبالها.

وبمجرد وصولها إلى المرسى يجتمع الملأ من الناس، من العدوتين على الضفّتين، لرؤيتها.

وإذا عَلِمُوا وتحقّقوا نجاحها وسلامتها، وأهمّية غنيمتها، وهم متشوّفون إلى ذلك غاية التّشوّف، أعلنوا عنه بإطلاق عدّة طلقات مدفعية من أبراج المدينة، ومن القصر بالقصبة علامة على فرحهم وابْتهاجهم بِرُجُوعِ قراصنتهم سالمين غانمين.

ثمّ تجتاز المصبّ، وتشرع في إفراغ شُحنتها من البضائع والأسرى أمام الجماهير الغفيرة المحتشدة من الأندلسيين والتّجّار والسّماسرة من سلا القديمة والجديدة وهي رباط الفتح.

وفي مقدّمتهم مجهّز السفينة يتلقّى التّهاني من الحاضرين.

---

22) «قراصنة سلا» لروجي كُوَانْدْرو، ص 140، ببعض تصرف، وإلحاق ما هو متناقل على ألسنة بعض الشيوخ عمّن كان قبلهم.

ثمّ يقع استعراض القراصنة الذين نزلوا من السّفينة وأمامهم أسراهم مارّين بسائر شوارع المدينة وأزقّتها، في مشهد رهيب، لِيَرَاهُمْ البعيد والقريب.

وبعد ذلك، يُعرض الأسرى للبيع بالمزايدة في المحلّ المخصّص لبيع الرّقيق، وكان المحلّ المعدّ لبيعهم بالرباط، كما جاء في قصّة الأسير مويط (Mouëtte) بالقنانيط، قال :[23]

«وهي عبارة عن محلات واسعة، عليها قبب كبيرة بالقصبة قرب الوادي بناحية قصر الحكومة».

ووصف كيفية المزايدة والمناداة على كلّ أسير وفحصه هل هو صحيح البدن، سليم من العيوب...

ويلغني عن طريق بعض الأُسرَ السّلاوية الذين كان أسلافها رؤساء بحر وبحّارة في الأساطيل، أنّ الغنائم والأسرى، ويُعبّرون عنهم بالسّبي، كانوا يُعرضون في دار خاصّة معدّة لذلك، ويزورها العامّة والخاصّة، ويُعلن عنهم من أيّ دولة هم، فيقال هذا إصباني، وهذا برتغالي مثلاً... بمحضر الرئيس ووالي البلد، وتُضْرب الطبول والمزامير وآلات الطرب، فرحاً بالرئيس واحتفالاً به، وأنّ الدار التي كان يقع بِهَا هذا العرض بحي باب حُسَيْن مُجَاوِرَةً لجامع المريني، قالوا : ولعلّها هي دار الأشراف الكتّانيين اليوم، ثمّ يُباعون في الأسواق المعلومة لهم.

ولمّا صارت القرصنة تحت نظر الحكومة العليا في عهد الدولة العلوية الشريفة، وهي التي تجهّز سفنها، وتقوم بشؤونها، وكلّ من في الأساطيل من الرؤساء والقراصنة والبحّارين، موظفون تحت أمرهم، صار أمر الأسرى موكولاً إلى السلطان، ويُوجّهون إليه بحضرته، وهو الذي يهب منهم من شاء لمن شاء، ويحتفظ بالباقي، ويستعمله في أشغاله وبناءات قصوره الخاصّة، ومبانيه العامّة بعاصمة مملكته، حتى يتمّ فداؤهم، إمّا بالمال أو المعاوضة بالأسرى المسلمين كما تقدم، وسياتي مزيد بيانه وتفصيله عند الكلام على الأسطول والقرصنة في عهد الدولة الشريفة العلوية.

وبعد هذا كلّه، ينتشر البحّارة والنّواتيون بأطراف المدينتين السلاوية والرباطية في هرْج ومرْج، مظهرين فرحهم برجوعهم لوطنهم سالمين غانمين، ونجاحهم ونجاتهم من كلّ خطر كانوا له متوقّعين ومعرّضين.

23) «أسْرُ السيد مْوِيطْ»، ص 37. (La Captivité du Sieur Mouëtte).

وتُقام لهم الأفراح، ويتحدّثون هم، أو يُتحدّث عنهم في المجامع والمحافل بكلّ ما رأوْه وشاهدوه، وحدث لهم من الحوادث والأخطار، وأنّهم ما نجوْا منها إلاّ على سبيل خرق العادة.

وبكلّ أسف لم يعتن أحد من كُتّابنا، فيما نعلم، بتدْوين تلك الحوادث والأحاديث، مع أهمّيتها، كما فعل الأوروبيون، وإنّما تناقلها بعض الناس فيما سلف، وحدّث بها بعضُهُم بعضاً إلى أن وصلت نُتَفٌ منها إلى هذا الخَلَف.

ثمّ تُضاف السفينة المأخوذة إلى الأسطول القرصاني إنْ كانت صالحة له.

# المبحث الخامس

## القرصنة بالشواطئ الإصبانية في أوّل عهدها

قال د. فلُورَانْسيو جَانِيرْ (De Florencio Janer) في كتابه «الحالة الاجتماعية للموريسكوس الإصبانيين»[24] ما مضمّنه وملخّصه.

في السنين الأولى من القرن السّابع عشر (أوائل القرن الحادي عشر الهجري)، كانت شواطئ بلادنا التي على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغزو ونهب القراصنة. وكان سُكّانها يعيشون في خوف وفزع وهلع، فاضطرّوا إلى اتّخاذ العساكر والمحارس والحصون لحراستهم، وبثّ العيون والمراقبين في كلّ وقت وحين على السّواحل التي يُظنّ أنّها تكون ملجأً أو مرفأً لنزول هؤلاء القراصنة، فلم يُغنهم ذلك شيئاً. وفي بعض الأحيان كانوا يُخرجون المراكب والسُّفن لمتابعتهم وإبعادهم، فلا يزيدهم ذلك إلاّ جرأة عليهم وتحرُّشاً بهم.

وحيث كان من اللاّزم لهم تسهيل مواصلتهم التّجارية وحماية سفنهم، فقد قرّروا تجهيز أساطيلهم، واتّحاد قوّتهم لغزو أولئك القراصنة في ملاجئهم ومَخَابِئهم بمراسيهم ببلادهم ومعاقبتهم، فلم ينجحوا في عملهم هذا، ولم يحصّلوا إلاّ على الخسارة الفادحة في الأموال والرجال.

وكان المُحرّض لهؤلاء القراصنة، والمُغْري لهم على غزونا، هم أولئك الذين عاشوا في أرضنا، وتربّوا في بلادنا (يعني المسلمين) سواء منهم الذين لازالوا بإصبانيا أو الذين طُردوا منها، وهم الذين مهّدوا لهم السّبل، ودلّوهم على العوْرات، فاستباحوا السّواحل،

24) ص 83، طبع باريس سنة 1857.

وعاتوا في المزارع والحقول، وأحرقوا المدن والقرى والمداشر، وأفسدوا الزّروع، وأحدثوا الذّهول والحيرة في القلوب.

وقد عُثر مراراً على الجواسيس من الموريسْكوسْ في حالة اتّصالهم ومخابرتهم مع الأساطيل الإسلامية القُرصانية السابحة الجائلة في مياه بلنسية ومرْسية، وكاطالونيا، وحُجزت المكاتب والقرارات التي كانوا يتبادلونها بينهم، وهي تتضمّن، زيادة على التّحريض والإغراء، التّطوّع بالإعانة بكلّ ما يُمكن، عسى أن يتمّ استيلاء القراصنة على مرسى من المراسي المهمّة، أو مدينة من المدن الكبرى، ويخفق عليها العلم الإسلامي مرّة أخرى، كما كان فيما مضى.

ثم قال : وذلك كلّه دليل على غيظهم وعداوتهم للمسيحيّة والمسيحيّين الذين كان كثير من أحْبارهم ورُهْبانهم يحملونهم على التمسّح جهراً وجبراً وقهراً.

ولم يقتصروا على هذا، بل كانوا يبعثون الرّسل والبعثات السّرية للقراصنة بإفريقية الشمالية كلّها، يُشعرونهم بخروج السُّفن المشحونة بالبضائع والمسافرين ليتعرّضوا لهم ويلتقطونهم وسط لُجج البحر، فتُغنم البضائع، ويُستعبد المسافرون ذكوراً وإناثاً، وربّما وجّهوا رسولاً خاصّاً لبعض الأمراء والملوك، كصاحب القسطنطينية يحضُّونهم على تدمير الأساطيل الإصبانية، وغزو إصبانيا، وإحياء الدّعوة الإسلامية بها، ويَعِدونهم ويُمنّونهم بأنّهم سيجدون في انتظارهم ما يزيد على خمسمائة ألف مؤمن يَكْتُم إيمانه ويقول في سرّه ربّي الله.

# المبحث السادس

## بعض أعمال الأسطول السلاوي الرباطـي ومـا ترتّب عنهـا

قدّمنا في الفصول السابقة، كيف نشأ الأسطول السلاوي الرباطي في عهد الحكومة الانفصالية، أو ما أطلق الأوروبيون عليه اسم «الجمهورية السلاوية الرباطية»، والأسباب الدّاعية لإيجاده وإنشائه وبعض أوصافه، وما بلغه من قوّة وشدّة شغلت بال أوربا دهراً طويلاً.

وسنذكر هنا بعض أعماله القرصانية التي قام بها في ذلك العهد، وما ترتّب عنها، حسبما سجّله وُزراء وسُفراء ورؤساء الأساطيل الأوربية الذين حضروه، أو كانوا من جملة من شاهدوه، أو كان لهم عمل فيه، أو نُقل عنهم بعض أعماله حسبما وقفنا عليه، فنقول، وإنْ كان تقدّم بعضها.

في سنة سبع عشرة وستّمائة وألف (1027/1617) أعلم أحد رؤساء الملاّحين الهولانديين ديوان البحرية بروطردام (Rotterdam) بظهور قراصنة سلا والرباط بالبحار، وقال : لم يكن للسلاويين والرباطيين أسطول فيما سبق، وهاهم اليوم يخوضون البحر بأربعة مراكب، ويوشك أن تزيد عدداً مع الأيام، وزاد قائلا : إنّها لا تأتمر بأوامر ملك المغرب، فلنكن منها على حذر، وإذا لمْ نأخذْ بالاحتياط فإنّنا سنَنْدم وَلاَتَ حين مندم[25]

وفي هذا الوقت، بلغ ريشلْيُو (Richelieu) أنّ هذا الأسطول يتقوّى شهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، وأنّه أسر ما يزيد على ستّة آلاف أسير من المسيحيّين، وغنم ما يزيد على

---

25) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» – البلاد المنخفضة – ج 3، ص 65.

"Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc", Pays-Bas, p. 65, T. III.

خمسة عشر مليون ليرة، وأنّ عدد سفنه تجاوز الستّين سفينة، محمول كلّ سفينة منها نحو ثلاثمائة طنّ، إلاّ أنّ تسليحها لازال لم يبلغ النّهاية في الإتقان، ولكنّه سائر في طريق التّحسين شيئاً فشيئا، وإذا تمّ تحسينه، فإنّه سيكون آفة على الأساطيل الأوروبية التي يلقاها في البحر،[26] كما تقدّم.

ولم يمض غير زمن يسير على هذا الأسطول الناشئ حتى كان مجهّزاً تجهيزاً يُخوّله خوض المعارك البحرية، فخاضها بشجاعة وإقدام ولجّج في البحر إلى جزر وشواطئ بعيدة جدّاً على مراكزه في المحيط والمتوسط.

وفي سنة اثنتين وعشرين وستّمائة وألف (1032/1622)، كان قراصنة سلا والرباط يَنْضَمُّون ويتّحدون مع قراصنة الجزائر، وتمتدّ غاراتهم إلى بحر المانْش، وتضاعفت هذه الغارات في السّنين القليلة بعد هذا التاريخ على سواحل بلاد الإنجليز وتعدّتْها إلى الأرض الجديدة (Terre-Neuve).

وفي سنة سبع وعشرين وستّمائة وألف (1037/1627) هجم الرئيس مورا رايس الهولاندي الأصل الشّهير بأعماله البحرية بالأسطول السلاوي الرباطي على إيسلاندا، واستباح أهمّ مدينة فيها.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة وألف (1041/1631) هجم على إيرْلاندا واستباح قراها السّاحلية.

وبالجملة، فقد أخذ أهل العدوتين الرّقراقيتين أو نهبوا في ظرف عشرة أعوام ما يزيد على ألف سفينة أوروبية، حسبما صرّح به رَازِيلي (Razilly) إلى رِيشلْيُو (Richelieu) مستنكراً مستيْئساً.

ولمّا بلغت الحالة هذا الطّور من الاستفحال، قلقت الدول الغربية وخافت عاقبتها، ومغبّتها، فجهّزت عدّة سفن حربية لحماية شواطئها، فلم يكن لها تأثير في تخفيف الوطْأة عن السفن التجارية في سواحلها، والمتَردّدة على مراسيها، وهاج الرّأي العام، مطالباً بردّ الفعل والانتقام.

وفعلاً، في السّابع والعشرين من يونيه سنة تسع وعشرين وستّمائة وألف (27 يونيو 1629/ ذو القعدة عام 1038)، بارحت أوّل عمارة من ستّ قطع حربية، لاَبَاليسْ (La Palice)، وهي مرسى فرنسية على المحيط الأطلانطيقي، متوجّهة إلى سلا القديمة والجديدة كما كانوا يُعبّرون، لتنبّه قراصنتهما وتحذّرهم عاقبة تهوّرهم.

---

26) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الأولى - فرنسا، ج 3، ص 115.

وكانت مهمة هذه العمارة التّخويفية، إنذاراً لِمَا كان يُسمّى بـ«الجمهورية السلاوية الرباطية»، لتُطلق سراح الأسرى المستعبدين الفرنسيين، وتتخابر معها في عقد هدنة يتمّ أثناءها فداء الأسرى.

فأجاب الديوان الجمهوري أوّلا بالرّفض، وحاصرت العمارة المرسى حصاراً ضيقاً تمّ بمعركة بحرية بين الطرفين، خسرت فيها سلا ستة سفن، محمول كلّ واحدة منها ثلاثمائة طن، وأربعاً وعشرين مدفعاً، وثمانين بحّاراً، ونتج عن ذلك عقد هدنة لمدة خمسة أشهر، وذلك في شهر أكتوبر سنة تسع وعشرين وستّمائة وألف (أكتوبر 1629/ ربيع الأول عام 1039)، أمضى عليها القبطان العام لقصبة سلا عبد القادر صرّون.

وانسحبت العمارة الأوربية، ورُفع الحصار عن المرسى، ولكن لم يقع تسليم الأسرى[27].

وفي السنة الموالية لهذه السنة، رجع أميرال العمارة المنسحبة رَازِيلي (Razilly) إلى العدوتين على بغتة، ومعه ثلاث سفن، وكان بالوادي سبعة عشر (17) سفينة بقيت محصورة لم تستطع الخروج.

واستؤنفت المذاكرة في الهدنة فتمّت، وأُطلق سراح مائتي أسير، ودخلت للمرسى عشرون سفينة كانت جائلة في ا لبحر، فأرست بالوادي، ولم يقع لها شيء.

ثمّ عُقد صلح بين الحكومة السلاوية الرباطية وفرنسا لمدّة سنتين بتاريخ ثالث شتنبر سنة ثلاثين وستمائة وألف (3 شتنبر 1630/ 24 محرم عام 1040)، وأمضى عليه بعلامته : أحمد بن علي بَكْسِيلْ، وعبد الله بن علي القَصْري، كلاهما بوصف قبطان، وهما عامل القصبة، وحاكم مدينة سلا.

وأهمُّ ما جاء في صكّ هذا الصلح، هو أنَّ للفرنسيين حقّ المتاجرة مع العدوتين السلاوية والرباطية، بكل حريّة وأمان، وأُطلق سراح بعض الأسرى، بعد أن تمّ فداؤهم، وسيأتي مزيد كلام على هذا الصلح في فصل العلاقات السّياسية بين أندلس العدوتين الرّقراقيتين وأوربا.

وحدث في هذه الظروف، أن السُلطان مولاي الوليد السّعدي، كان عقد صلحاً مع لُوِيزْ الثالث عشر، بواسطة اليهودي بَلاّشْ، ولم يرد الجواب على السّلطان بأنّه وقعت المصادقة عليه، فظنّ أنّهُ أُهمل، ولم يبق به عمل، فأمر القراصنة بالخروج إلى البحر

27) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الأولى، فرنسا، ج 3، ص 200.

واستيناف أعمالهم، فخرجوا، وشرعوا في متابعة السُّفن كما سبق، وذلك سنة اثنتين وثلاثين وستّمائة وألف (1042/1632).

وفي هذا التاريخ تفاقم الأمر بين أهل الدّيوان بالقصبة وبين الشّيخ أبي عبد الله مَحمَّد العياشي، وكانت حروب وخطوب تقدّم الكلام عليها، سنة ثلاث وأربعين وألف (1043/1633).

وفي أثناء هذه الحوادث أسر القراصنة عدّة سفن، وامتلأت سجون العدوتين بأسرى المسيحيين من جديد.

ومع ذلك فإنّ فرنسا بقيت متمسّكة بصكّ الهدنة المنعقد سنة ثلاثين وستّمائة وألف (1630/1042)، وأعادت المذاكرة مع السّلطان مولاي الوليد سنة أربع وثلاثين وستّمائة وألف (1044/1634)، فأمر بإيقاف العملية الحربية مدّة ستّة أشهر، فلم يمتثل قراصنة سلا والرباط أمره[28].

والحاصل أنّه بعد مذاكرة دامت أربعة أعوام، عُقد صلح سنة خمس وثلاثين وستّمائة وألف (1045/1635) مع مولاي الوليد، ولم يحترمه قراصنة سلا والرباط، وخرجت إثنتان وعشرون سفينة إلى البحر، فقصد بعضها السّواحل الإصبانية، وقصد البعض الآخر كناريا، ورجعت تقود أمامها خمس سفن مثقّلة بالغنائم من السكّر والحبوب وغير ذلك، فتسلّمها حاكم القصبة، وحاكم مدينة سلا، ولم يعترفا بالصلح الذي عقده السّلطان مولاي الوليد سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (1045/1635).

فقامت فرنسا وقعدت لهذه القضية، لأنّ حاكم القصبة وحاكم مدينة سلا، لم يعترفا ولن يعترفا بأيّ صلح ولا معاهدة عُقدت معها أو مع غيرها من الدول، وهدّدت بإشهار الحرب على سلا والرباط، ومتابعة سفنهما، وإحراقها وإغراقها، ووجّهت طرفاً من أسطولها للوقوف أمام العدوتين الرقراقيتين وحصارهما.

واتّفق أنّه بمجرّد وصول هذا الأسطول، صادف سفينة سلاوية داخلة للمرسى فأسرها، وأسر رئيسها مامي رايَسْ الهولاندي الأصل الذي أسلم، ووجد معه خمسين إنجليزياً، ففكّ أسرهم، وردّهم معه إلى أوربا، ولم يُحصّل على نتيجة أخرى.

ثمّ إنّ جمهورية القراصنة، كما يعبّر عنها الأوروبيون، ضاعفت جهودها، ونشرت بنودها، وجنّدت جنودها، وأطلقت للرياح في البحر قلوعها، مدّة سنة خمس وثلاثين وستّمائة وألف (1045/1635) وسنة ستّ وثلاثين وستّمائة وألف (1046-1045/1636)، وشنّتها حرباً بحرية

28) يراجع «قراصنة سلا» لكواندرو، ص 180.

شعواء على أوربا، فأخرجت سفنها العمارة تلو الأخرى، وانتشرت بالمحيط تلتقط ما تجده من السّفن، فتغرقها، أو تُحرقها، أو تسوقها للأسر قهْرا.

وكانت سواحل إنكلترا مقصودة عندها أكثر من غيرها في هذه المدّة.

فاختطفت من سُكّان المدن والقرى البحرية عدّة آلاف، ونهبت أموالهم وأمتعتهم، فضجّ الإنجليز، وفيهم الأعيان، والملاّحون، والتّجار ببلاد الگال من هذه الأعمال رافعين عقيرتهم بالتّشكّي ممّا حلّ بهم، والخسارة التي لحقتهم وتلحقهم كلّما تطاولت المدّة، وتوالت الأيّام، وزيادة على ذلك الأموال التي كانوا يعطونها، أو يخصّصونها لإعانة أُسر المخطوفين، والمنهوبين والمنكوبين، وهم كثيرون جدّاً.

وصرّح رئيس بلدية بليموث (Plymouth) بأنّ عدد أسرى الإنجليز بسلا، يعني ورباط الفتح، بلغ سنة ستّ وثلاثين وستمائة وألف (1046/1636) ثلاثة آلاف أسير.

فاضطرت الحكومة الإنجليزية حينئذ إلى توجيه فرقة من أسطولها تحت إمارة الأميرال وليام رَاينسبورو (William Rainsborough) إلى سلا والرباط ليتخابر مع رؤسائها في فداء الأسرى الذين عندهم، وذلك أوائل سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1047/1637)، وأوعزت إلى رئيس هذه الفرقة، أن يُغْرق كلّ سفينة سلاوية ورباطية يصادفها في البحر، أو يأسرها إنْ قدر عليها.

ولمّا وصل الأسطول الإنجليزي إلى مدخل مرسى سلا، وجد المدينة تشتعل ناراً، وتسيل دماً من جرّاء الفتنة الواقعة بها، الناشئة عن طرْد الأندلسيين الحورْناشيروس من القصبة، وهجومهم على مدينة سلا القديمة، وانتصاب الشّيخ أبي عبد الله مَحمَّد العيّاشي للدّفاع عنها، وانتشار الفتنة في سائر أرجائها.

وبمقتضى هذا، فإنّ الأسطول الإنجليزي حاصر من جهته مدخل المرسى، ومنع السُّفن من مبارحتها، وأعان بمدافعه وقنابله الشّيخ العيّاشي في حربه لأهل القصبة، حسبما تقدّم ذكره في أخبار تَجَدُّدِ الحرب بين أندلس القصبة، وأندلس سلا الجديدة، وهي رباط الفتح.

وفي أوائل مايه من سنة سبع وثلاثين وستّمائة وألف (1046/1637)، عقد الشّيخ العيّاشي مع رئيس الأسطول الإنجليزي صلحاً باسم ملك إنكلترا شَارْل الأوّل.

وقد وقفت على صكّه، وعلامة الشّيخ عليه بين البسملة والافتتاح بخطّ يده، ونصّهُ: [29]

(29) "Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc", publiés par de Cénival et Cossé Brissac, 1ère Série dynastie Saâdienne, Archives et Bibliothèques d'Angleterre, p. 281, T. III.

بسم الله الرحمان الرحيم

محمد بن أحمد العياشي كان الله له

(بشكْلِهِ)

شروط ما وقع عليه الصُّلح بين السيد الكبير الجليل الشّهير الطّاهر الظّاهر الأصعد، الأمجد، الأعلى، العالم العامل الفاضل الكامل عماد الدّنيا والدّين، رافع ظلال العدل على العالمين، محي معالم الدين، قامع المتمرّدين، قاهر الخوارج والمعتدين، الإمام العادل المؤيَّد المُعان، المجاهد المرابط، قطب الزّمان، سيّدنا ومولانا أبو عبد الله سيدي محمد بن السيد الصالح البركة سيدي أحمد العيّاشي، أبقى الله وجوده وبركته آمين، وأمْتع ببقائه الإسلام والمسلمين، بمُحمَّد وآله الطيّبين الطاهرين.

وبين سلطان بريطانية، افرانصية، إرلاندة، الانجليزي على يد نائب سيدنا ومولانا أبي عبد الله المذكور أعلاه، وهو المكرّم الأرضى، إبراهيم بن علي العربي الأندلسي، ونائب سلطان الأقاليم المذكورة أعلاه، وهو القبطان هرنال هليرم ريمورنم، وذلك لمّا طالع كتابَيْ سلطانه، وتحقّق أنّ الخطّ خطّه، ووجد بهما من تعظيم السيد الكامل ماهو مسطّر بهما، عمل على مقتضى ذلك من تجديد العهد القديم، حسبما كان ذلك على أيدي أمراء المسلمين، لِمَا رأوْا فيه من صلاح الدنيا والدّين، وسلك مسلكهم من اقتفى أثرهم، وأنّهما ما زالا على ذلك إلى الآن من غير تبديل ولا تغيير، وأنَّ طاعة كلّ إمام من العرب والعجم إذا أرادوا التّسبب وقضاء الأوطار، في أيّ إقليم وأي بلدة وأي مصر من الأمصار، ومرصة من المراصي لا يتعرّض لهم إلاّ بالملقى الحسن والترحيب والأمان حتّى ينصرف كلّ إلى وطنه، ومن تعرّض لأحد الفريقين يُعاقب على الوجه الشرعي، وأنّ كلّ من خرج عن طاعة كلّ إمام وأراد الفساد في البرّ والبحر، أو هرب بسفينة أو فيها، أوْ أراد التّلصُّص برّاً و بحراً، فإنَّ طاعة كلّ إمام لا يُوالونه ولا يأوونه ولا يدعوه يدخل مرصة، ولا غيرها، لأنهم ضرورة للفريقين، وأنّ سفن السلطان لمْ يزالوا مقيمين على عتبة سلا محاصرين للداخل والخارج ممّن مرق من الدين وانسلخ منه، وكذلك غيرها من المراصي، ممَّن استنّ بسنّتهم، حتى يدخلوا في جماعة المسلمين، ويكون عملهم من عملهم، وأنَّ من أراد الصلح من الفريقين مع الشرذمة الحائدة عن الدّين المفارقة لجميع المسلمين، لابدّ من الوقوف على مشورة الفرقة الأخرى وموافقتها، وإلاّ فسد ما عقدته كلّ فرقة دون نظر الأخرى وأنّ ما بأيدي كلّ إمام من الأسرى، يُسرّح مجّاناً من غير فداء، وأنْ لا ياسر كلّ فرقة من الأخرى من الآن إلى ما ياتي من الزمان، وإذا يسَّر اللّه في الاستيلاء على الشرذمة المارقة منَّ الدّين من علينا سيدنا الإمام بما في أيديهم

من الأسرى مجّانا وأن السفن الخارجة بالعدوتين بسبب الريح وهيجان البحر، سواءً تكسّرت أو بقيت على حالها، يقف معها من يليها من الْفَرِيقَيْنِ حتى تجتمع أمتعتها عن آخرها ولو بالأجرة ويُصرف أربابها إلى أوطانهم على حسن المراد، وأنّ جميع ما احتاج إليه سيّدنا الإمام من آلة الحرب، مدافع وغيرها وبارود ورصاص وغير ذلك نأتوا به بحيث لا يلحقنا ضرر في ذلك، وكذلك ما احتاجوا إليه من جميع أغراضهم ممّا بأيدي المسلمين. شَهِدَ على الفريقين بما فيه وهما بحال كمال الإشهاد، وعرفهما. وفي الثّامن عشر من شهر الله ذي الحجّة عام ستّة وأربعين وألف (18 ذي الحجة 05/1046 مايه 1637)، والعهد المرسوم هذا بالثغر السلاوي القديم حاطه الله تعالى بمنّه، وبعده علامة النّائب البريطاني،

ويليام رانسبورو "William Rainsborough"

(بشكله)

وقد نُشرت الصورة الفتغرافية لهذه المعاهدة بمجموعة الوثائق غير المطبوعة التي نقلناها منها حسبما أشرنا له في أوّلها.

ونتج عن هذه الفتنة والحصار والحروب الداخلية ضعف حركة القرصنة السلاوية الرباطية، وتعطيل سفنها، وغاراتها البحرية مدّة سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1637/ 1046)، وسنة ثمان وثلاثين وستمائة وألف (1047/1638)، بعدها. وبعدما كان دَخْلُ الديوانة يقدّر في السّنين العشرة الماضية بنحو سبع وعشرين مليون دوكا، سقط جِداً، ودام الخلاف بين الطرفين إلى سنة إحدى وأربعين وستّمائة وألف (1051/1641).

وفي هذه السنة، قُتل الشّيخ أبو عبد الله العياشي، عقب انهزامه في المعركة التي وقعت بينه وبين الدّلائيين بأطراف أزغار، لمّا التجأ إلى الخُلْط، فغدروه وقتلوه بالموضع المسمى "عين القصب" تاسع عشر محرّم فاتح عام واحد وخمسين وألف (19 محرم 1051/ فاتح ماي 1641)، وبموته خلا الجو للدلائيين فَبَسَطُوا سلطانهم وسلطتهم على الغرب والرباط وسلا، حسبما تقدّم في ترجمته والتعريف به وأخبار جهاده بالعدوتين وغيْرهما.

وقد ساق كايي (Caillé) في كتابه «تاريخ الرباط» موقف إنجلترا من قراصنة العُدْوتين، وإعانتها لِلشّيخ العياشي بقوله، وفيه بعض مزيد بيان : [30].

وفي ثالث أبريل سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (03 أبريل 1637/قعدة 1046)، ألقى الأسطول الإنجليزي مراسيه أمام الرباط، برياسة الأميرال راينسبورو (Rainsborough) بقصد

---

30) ص 232 من ج 1.

المخابرة في إطلاق سراح الأسرى الإنجليز الذين كانوا بالعدوتين، ووجّه رسالة لحاكم القصبة القصري يعلمه فيها بما جاء يطلبه، فلم يجبه عنها.

وحينئذ أعلم أنَّه محاصر للقصبة، ولكنَّه لم يستطع منع دخول وخروج السُّفن القُرصانية الصغيرة من الوادي ليلاً بالمجاديف.

ثم اتَّصل بالشيخ أبي عبد الله العياشي، وعقد معه معاهدة بتاريخ ثامن عشر حجة عام ستة وأربعين وألف (18 حجة 05/1046 ماي 1637) باسم ملك إنجلترا شارل الأول. وسرَّح له حيناً الأسرى الإنجليزيين الذين كانوا عنده، ولا يتجاوز عددهم سبعة.

وفي الحين زاد في تضييق نطاق الحصار على القصبة، ولم يكتف بمنع وصول المُؤَن الغذائية إليها بحراً، بل أعان الجيوش العياشية المحاصرة لها وللرباط إعانة فعَّالة.

ومدّ العياشي بما كان محتاجاً إليه من النجّارين وصانعي الأسلحة ومصلحيها، والنبّائين الفنِّيين الاختصاصيِّين في بناء الأبراج والمراصد والإصطبلات للمدافع وآلات جرّها، فأقاموا عنده بسلا القديمة عدّة أسابيع حتى زوّدوه بجميع ما كان متوقّفاً عليه في حصونه وتحصيناته.

وحدّثوا أنَّهم قَاسَوْا شدائد، وتألَّموا ألماً كبيراً مدّة إقامتهم بالبرّ من شدّة الحرّ، وكثرة البعوض المستأسد الذي كان يفترسهم، وقلّة الماء، وعدم صلاحية الموجود منه، ولكنَّهم نجحوا في عملهم، ونصبوا للعياشي بطارية مدفعية كبيرة حطّم بها ثماناً من السفن القُرصانية التي كانت مرابطة بأبي رقراق.

وحاول ثلاثة من بحّارتهم في ليلة من اللّيالي إحراق بعض المراكب التي كانت راسية بالوادي، فلم ينجحوا في عملهم لكثرة نُباح الكلاب الحارسة لها، وطالت مدّة الحصار عدَّة شهور.

وفي شهر يوليوز (صفر) من السنة نفسها، رفض الأميرال شروط الصلح التي عرضها عليه الراغبون فيه من سُكَّان القصبة التزاماً لمحالفته مع العياشي، وأخيراً أذعن له لمّا رجع القَصْري لولايته من قِبَل السلطان الشيخ السعدي الأصغر، بعد نكبته التي تقدّم الكلام عليها، وسرّح له ثلاثمائة من الأسرى الإنجليزيين الذي كانوا عند الأندلسيين.

هذا، وقبل هذه الحوادث، كانت لإنجلترا مواقف أخرى نحو قراصنة العدوتين.

منها أنه في سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627) جاء جوهن هاريسون (John Harrisson) إلى الرباط ولم يكن معه أسطول، وقابله قائد القصبة، وقائد مدينة الرباط وأعضاء الديوان مقابلة جميلة، وأنعموا عليه بإطلاق سراح الأسرى الإنجليز الذين كانوا عندهم، وعددهم مائة وتسعون أسيراً.

ولمّا أراد السفر نزلوا لوداعه بالمرسى حتى ركب الزورق الذي حمله إلى السفينة التي كانت في انتظاره.

وقد كانت هذه المجاملة وهذا الإنعام بإطلاق سراح الأسرى لحاجة في نفس يعقوب قضاها. وهي أنهم كانوا في احتياج إلى جلب الأسلحة من إنجلترا، فساعدهم على ذلك، وأيّد طلبهم لمّا وصل إلى إنجلترا ووقف عليه وعضّده حتى وصلهم.

وبعد هذه الحوادث بنحو تسع وعشرين سنة، أي سنة ستّ وخمسين وستمائة وألف (1067/1656) رجع الأسطول الإنجليزي إلى الرباط تحت رياسة الأميرال بلاك (Blak) الذي كان تاجراً وصار بحّاراً إلى محاصرة القصبة، والعدوتين معاً بعدما دمّر عدّة سفن قُرصانية، وطلب تسليم الإنجليز الأسرى الذين كانوا بالرباط، وعددهم أربعة وعشرون فقط بدون أداء الفداء المعيّن لهم، وبقيت ثلاث دوارع إنجليزية رَابِضَة أمام المصبّ، مدّة فصل الشتاء كلّه.

وفي السّنة التي بعدها، حصّل على مطالبه، وسُرِّح له أبناء جِلْدَتِهِ ورجع بهم.

# المبحث السابع

## موقف هولاندا وفرنسا من قرصنة العدوتين السلاوية والرباطية

كانت هولاندا في أوّل عهدها من الدّول المسالمة لحكومة عُمْران مصبّ أبي رقراق، ولذلك لم تحتج إلى استعمال التهديد أو إظهار القوة أمام هذا العمران منذ مدّة طويلة، لأن أسراها كانوا قليلين بالنسبة للأسرى الإنجليزيين والفرنسيين. وكان الأندلسيون يعاملونهم معاملة خاصّة فيها بعض امتياز ومزيد اعتناء بهم، لِمَا كان بينها وبين رجال الحكم بالقصبة وبالمغرب من المواصلة الجميلة، منذ معاهدة سنة عشر وستمائة وألف (1019/1610).

وقد وقف أميرالها لورانس ريال (Lawrence Real) بأسطوله الحربي أمام مرسى الرباط سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627)، لا لمظاهرة ولا لمناورة، أو مذاكرة سياسية، ولكن لتجديد مَؤُونَته من الماء الذي كان في احتياج إليه، وإنّما حصل بعض الشَّنَآن بين بحّارته وبعض العامّة من المغاربة.

ومع ذلك قابلهُ حاكم القصبة بكلّ حفاوة واعتناء، وزوّده بأربعة وثلاثين كبشاً، وكمّية كبيرة من الخُبز والخُضر المتنوعة، فكافأه على ذلك بخمس قطع من الثياب النفيسة الجميلة.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (1039/1629) خاطب أمير القصبة ابن عبد القادر صرُّون، أمير أُورَنْج (Orange) برسالة، ووجّه سفيراً من قِبَله إلى البلاد المنخفضة لتجديد الوصلة بينه وبين هولاندا، وإحكام نصوص معاهدة سنة عشر وستمائة وألف (1019/1610).

وبعد هذه السفارة حدثت حوادث كدّرت صفو جوّ المواصلة التي كانت مُتأصّلة بين هولاندا وحُكّام القصبة.

منها، أنَّ قنصل هولاندا فان بيسطر- فيلت (Van Bystervelt) انْحاز إلى أبي عبد الله العياشي أثناء محاصرته للقصبة سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1046/1637)، وأيده وسانده مساندة محسوسة ملموسة، وبارح مركزه الرَّسمي بالقصبة ملتجأً إلى السفينة الهولاندية التي كانت واقفة أمام المصبّ، تحت رياسة القبطان پْيتَرْ پيتيرْسْ (Pieter Pietersz)، وَحرَّضه وأغراه بمنع ثلاثة زوارق وردت من طرف السلطان الشيخ السعدي الأصغر مشحونة بالأقوات لتموين القصبة، وتخفيف وَطْأةِ الحصار عنها من الدخول إلى المرسى.

ولكنه اضطرَّ إلى الانسحاب أمام أسطول الدّوق دوميدينا سيدونْيا (Duc de Medina Sidonia) الإصباني الذي كان في جانب حاكم القصبة.

وقد كانت الحكومة الهولاندية أنذرت قبل هذا بطلب من الملوك السعديين جميع تُجّارها وأمرتهم بأنْ لا يَتَعَرَّضُوا لشيء من الأموال والمتاع والسِّلع التي لجميع الرّعايا المغاربة.

ولكنْ ما صدر من هذا القنصل أدّى إلى أخذ الثّار، ومقابلة المثل بالمثل. واتّسع الخرق على الرّاقع، حتى كادت الحرب تُعلن بين أندلس القصبة وهولاندا.

وتَرَتَّبَ على ذلك مجيء الأساطيل الهولاندية إلى الرباط للاتِّفاق على معاهدة تاسع أبريل سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (09 أبريل 17/1651 صفر 1061). وسياتي مزيد بيان لهذه الحوادث في الفصل الآتي الخاصِّ بالدّلائيين.

وعقب ذلك تجدّدت الحوادث بين الطرفين، وحجز كلّ منهما سفن الآخر، وأُهِينَ القنصل والبحّارة إهانة كبرى.

واستمرتْ الحالة متوتِّرة إلى أنْ جاء الأميرال دورويتسر (De Ruytser) في أسطوله متظاهرًا أمام القصبة من سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1066/1654)، إلى سنة خمس وخمسين وستمائة وألف (1066/1655)، وهو الذي ضَمِنَ إصلاح أهمّ المسائل التي كانت مستحكمة في الخلاف بين الطّرفين.

ولمْ يتمّ حَسْمُ مادّة الخلاف إلاّ بمعاهدة حادي وعشري مارس سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (21 مارس 05/1657 جمادى الآخرة 1067)، وامتنع الأمير عبد الله الدلائي من المصادقة عليها، وماطل فيها كما كانت عادته، حتَّى حضر الأسطول الهولاندي مرة أخرى، وهدّده بضرب القصبة والمدينتين السلاويتين (القديمة والجديدة).

وحينئذ اضْطرّ إلى المصادقة على المعاهدة في عاشر غشت سنة ثمان وخمسين وستمائة وألف (10 غشت 10/1658 حجّة 1068).

في سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (1045/1635)، جاء إلى الرباط دوشلار (De Chalard) الفرنسي، فقابله رؤساء القرصنة السلاوية الرباطية مقابلة أظهروا فيها المجاملة، مراعاة للمعاهدة المعقودة بين فرنسا والسلطان الوليد السعدي، وسلّموا له الأسرى حالاً، ولكنْ بعد أداء ثمن فدائهم.

وكان القدر المعيّن لمائتين وخمسة عشر (215) منهم 106.200 ليرة ذهبية، ولأربعين آخرين منهم 5.503 دُوكَا.

وعشرة (10) من مقاطعة بروطاني (Bretagne) الفرنسية أدّوا فداءهم من عندهم.

وعُيِّن لثلاثمائة وثلاثة وثلاثين (333) آخرين 185.102 ليرة ذهبية يؤديها البلاط الملكي الفرنسي، قبل ثلاثين أبريل سنة ست وثلاثين وستمائة وألف (1045/1636).

ولمّا اطّلع البلاط الملكي الفرنسي على ما التزم به دوشلار (De Chalard) لمْ يسلّمه لأنّه افتات عليه، ولم يستأذنه فيه قبل الإقدام عليه، وسجنه بسجن الباستي (La Bastille).

وكان عدم الوفاء بهذا الالتزام سَبَباً في عداوةٍ وخصومةٍ بين فرنسا وحكومة أبي رقراق مدّة طويلة.

# المبحث الثامن

## الفداء بواسطة رجال الدين والتجار

كانت العادة جارية أيضاً في فكاك الأسرى وفدائهم بواسطة رجال الدين، وتوسّط بعض التجّار وأرباب الأعمال في شرائهم ممّن يملكهم.

ومن ذلك أنّه في سنة اثنين وأربعين وستمائة وألف (1052/1642) فدى الأب إِسْكُوفْي (Escoffier) واحداً وأربعين أسيراً فرنسياً وأرجعهم إلى فرنسا.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1065/1654) توسّط الآباء نازار (Nazares) وأرنو (Arnoux) وجان هيرون (Jean Héron) في فداء ثلاثة وأربعين أسيرا فرنسيا.

واقْتَفَى أثرهم الأب عطية (Athia) سنة تسع وخمسين وستمائة وألف (1070/1659)، فاشترى خمسين أسيراً فرنسياً، كانوا على وشك جحد دينهم المسيحي، والدخول في دين الإسلام.

ولمّا وصل هؤلاء الآباء المذكورون إلى الرباط، قابلهم الأمير أبو محمد عبد الله الدلائي بالقصبة بمحضر قائد سلا سعيد أجنوي، وحدّثوا عنه أنّه كان جالساً على جلد كبش مدبوغ، وهو "الهيدورة"، بدون أريكة، يظلّلها رواق من عود الصّنوْبر. قالوا : وذلك هو عرش إمارته ومظلّته التي يستظل بها.

ووصفوا المقابلة بأنها كانت جميلة، وصرّح لهم أثناءها بأنّه سيحميهم ولا يمسّهم نصب ولا تعب، ولا سوء إلى أن تنتهي مأموريتهم. وكذلك قال لهم قائد سلا سعيد أجنوي.

كما أن بعض التجّار بالعدوتين، وخصوصاً الإنجليزيين منهم، كانوا يهتمون بالأسرى، ويعملون غاية مجهودهم في فدائهم كالتاجر روبير دْوَانْ (Robert Douin)، الذي اشترى سنة ثلاث وخمسين وستمائة وألف (1064/1653) ثلاثة وعشرين أسيراً، وأعتقهم.

والتاجر طوماس واران (Thomas Warren) الذي توسّط في فداء عشرة آخرين بخمسمائة وثمانين ليرة إسطرلينية.

وهكذا كان شأنهم، ويجني من ورائهم أمراء القصبة وسكّان الرباط وسلا أموالاً طائلة ممّا يتحصّل في الفداء، ويعيشون بها عيشة التّرف والرّفاهية.

# الفصل الثالث

## عن العلاقات السياسية والمواصلات التجارية
## وتعيين القناصل لهذا الغرض،
## بين أندلس العدوتين وأوربا

# المبحث الأول

## العلاقات السياسية بين أندلس العدوتين الرقراقيتين وأوروبا(31)

كانت العلاقات السياسية بين أندلس العدوتين الرقراقيتين، ودول أوربًا مبنية على رغبة كلٍّ منهما فيها.

فالأوروبيّون، كانوا يريدون ربط حبل المواصلة السياسية مع أندلس العدوتين وقراصنتهم لفداء الأسرى، والأمْن على أنفسهم وسفنهم الماخرة في البحرين : الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانطيقي، لتستمرّ تجارتهم رائجة رابحة مع الأمم الساكنة على سواحلهما.

والأندلسيون، كانوا يرغبون في هذه المواصلة أيضاً لِمَا يتوقّعونه من الأموال والأرباح الطّائلة التي كانوا يحصّلون عليها من فداء الأسرى أيضاً، وممّا يجلبونه من الموادّ والعُدد الحربية من أوربًا التي كانوا يتوقّفون عليها لتجهيز قراصينهم، والظهور بمظهر القويّ المسلّح أمام السعديين والثوّار النابغين بالمغرب، والمادّين أعناقهم إلى الملك والرياسة، كالعيّاشي والدّلائيين، وغيرهم.

ولكنّ الأوروبيين، مع رغبتهم الشديدة في مدّ حبل هذه المواصلة، كانوا يحاولون فرض نفوذهم وسيطرتهم على الديوان بالقصبة ليستعمروها ويُرغموا أعضاءه على الاستسلام لإرادتهم، والعمل بكلٍّ ما يشيرون به عليهم وتخويفهم بحركة أسطولهم، وضرب نِطاق الحصار الطويل المستمرِّ على شاطئهم.

---

31) ص 229 وما بعدها من تاريخ كايي (Caillé) لمدينة الرباط، ببَعْضِ تَصرُّف وتلخيص.

ولكنَّ هذا كان غير ممكن، لأنَّ مصبَّ أبي رقراق لا يساعد على وُلوج البوارج والدّوارع الكبرى فيه.

والحصار الطويل المستمر متعذر أيضاً لهيجان البحر وتضارب أمواجه المرتفعة وتكسرها على الصخور والرمال المتراكمة على الضفتين مدّة فصل الشتاء كلّه، وحتى في بعض الفصول الأخرى.

وأمّا تدمير العمران القائم على الضّفتين : اليمنى واليسرى، وتحطيمه بالقنابل والمُدمِّرات، فإنَّه لا يفيد فائدة كبيرة، ويكلِّف نفقات باهضة، وخسائر جسيمة، لمقابلة المثل بالمثل من الأبراج والحصون بالبرِّ المواجهة للبحر من القصبة والعُدوتين معاً.

وقد فكّروا ودبّروا وتشاوروا وأنذروا باحتلال القصبة والرباط وسلا والقضاء على القرصنة الناشئة بهذا العمران، فوجدوا دون ذلك خَرْطَ القتاد، لصعوبة الوصول إليه وعواقبه الوخيمة، لاسيما وقد كانوا ينظرون إلى الشواطئ المغربية التي يحتلّها البرتغال والإصبان والإنجليز، وما يقاسونه من أليم النُّكال ومواصلة الجهاد والقتال، في كلّ حين وحال من الأحوال، ولذلك فضّلوا المخابرة السلْمية، وربط حبل المواصلة السياسية، لعلّهم يصلون إلى الحل المطلوب والأمل المرغوب.

وكانت المخابرة تجري في الغالب مع قوّاد ووُلاة القصبة، والرباط، وسلا، رأساً بدون واسطة، لاعتبارهم أنفسهم مستبدّين بشؤونهم، وإرادة أعمالهم، على أساس المساواة بينهم وبين ملوك وأمراء الدول التي يتخابرون معها، وعلى هذا الأساس كانوا يتبادلون السفراء والرّسل بينهم.

ومن ذلك سفراؤهم الذين وجّهوهم إلى إنجلترا سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627)، وسنة ثمان وعشرين وستمائة وألف (1038/1628)، وأمضوْا عدّة معاهدات، لم يستشيروا ولم يشيروا فيها إلى الحكومة السعدية الرّسمية التي كانت بمرّاكش.

ومنه أيضاً، أنَّ حكّام القصبة والرباط وهم : محمد بن عبد القادر بارْكو، وإبراهيم بن بوشعيب بركّاش، وباقي أعضاء الديوان، اتّفقوا على مشروع نصٍّ معاهدة باسم الأندلسيين مع القبطان جوهن هاريسون (John Harrisson) الإنجليزي، بتاريخ عاشر مايه سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (10 ماي 22/1627 شعبان 1036)، إلاّ أنَّ ملك إنجلترا لم يصادق على هذا النصِّ لسبب من الأسباب.

وفي ثاني أكتوبر سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (02 أكتوبر 13/1629 ربيع الأول 1039)، انعقدت معاهدة هدنة خمسة أشهر بين محمد بن عبد القادر صرّون حاكم القصبة وقبطانها العام، وبين فرنسا بواسطة الفارس دورازيلي (De Razilly) وقبطان السفينة دوشولارد (De Chalard).

وفي السنة بعدها، انعقدت معاهدة هدنة أخرى لمدة خمسة أعوام بين حكام القصبة وسلا، وبين فرنسا أيضاً، وأمضى عليها أحمد بن علي بيكسيل، وعبد الله بن علي القصري.

والقصري هذا، ومُحمَّد بن عمرو، هما اللَّذان وافقا بتاريخ فاتح شتنبر سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (01 شتنبر 16/1635 ربيع الأول 1045) على مواد المعاهدة المعقودة بين فرنسا، والشريف السعدي بتاريخ ثامن عشر يوليوز سنة أربع وثلاثين وستمائة وألف (18 يوليوز 17/1634 محرم 1044).

وبعد ذلك، في ثالث غشت سنة ستّ وثلاثين وستمائة وألف (03 غشت 01/1636 ربيع الأول 1046) صادقا على المعاهدة المعقودة بين هولاندا ومولاي زيدان بتاريخ رابع وعشري دجنبر سنة عشر وستمائة وألف (24 دجنبر 1610/ شوال 1019) بواسطة القنصل فان بيسطرفيلت (Van Bysterwelt).

وحتى في عهد وجود الدِّلائيين بالقصبة، كان قُوّادها يتدخّلون في العُهود والعُقود المبرمة بين الدّول الأوروبية، إذا كانت متعلّقة أو شاملة للعُدوتين السلاوية والرباطية وقرصنتهما وما يؤول إليها.

ومن جملة هذه العهود، العهد الذي أبرمه الأميرالان ڤِيلْدَتْ (Vildat) وطْرَامْپْ (Tramp) باسم الحكومة الهولاندية، بتاريخ تاسع أبريل سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (09 أبريل 21/1651 صفر 1062)، مع أُمراء وحُكّام سلا، فقد أمضى عليه قُوّاد القصبة.

والمعروف قبل ذلك، منذ سنة ستّ وأربعين وستمائة وألف (1057/1646)، هو أنَّ البلاد المنخفضة كانت مذاكرتها ومخابرتها بالعدوتين لا تروج إلاّ بواسطة القائد الحاج أَجَنْوي الذي كانت له اليد العليا، والكلمة المسموعة النافذة في جميع العُمْرَانِ الثُّلاثي البورقراقي.

وبمقتضى ذلك، صادق أمير سلا، أبو محمد عبد الله الدلائي، بتاريخ حادي وعشري يناير سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (21 يناير 02/1654 ربيع الأول عام 1064)، على عدّة عقود أُبرمت في غيبته مع حكومة البلاد المنخفضة باسمه.

ولهذه الحكومة عقود وعهود أخرى لم يتدخّل فيها قوّاد القصبة ولا ديوانها، وإنّما أبرمها معها نوّابه باسمه.

ومنها الاتفاق المؤرخ بثاني وعشري أكتوبر سنة خمس وخمسين وستمائة وألف (22 أكتوبر 20/1655 حجّة عام 1065)، المتعلّق بقانون تنظيم المغانم وتصفية حِسَابِهَا.

والمُعَاهَدَتَانِ المؤرختان بثاني وعشري مارس سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (22 مارس 5/1657 جمادى الأخيرة 1068)، وثاني وعشري أكتوبر سنة تسع وخمسين وستمائة وألف (22 أكتوبر 04/1659 صفر 1070)، ومعاهدة أخرى تمّ إبرامها بمدينة لهاي (La Haye)، وأمضى عليها سيدي عبد الله باسمه وصفته أمير المدن الثلاث : القصبة، والرباط، وسلا.

وكلّ هذه العقود متشابهة متداخل بعضها في بعض، لأنّها راجعة في مجموعها لتحديد تعويضات فكاك الأسرى، وحركة التجارة وحرّيتها ببلاد المتعاقديْن، وتعيين كيفية المعاملة بين قراصين سلا والرباط والسُّفن التي يصادفونها في البحر حتى لا يقع قتال بينهم.

وكانت هذه المسألة الأخيرة دائماً موضوع مزيد حِوَارٍ وبيان واحتياطات كبيرة.

وبناء على ذلك فقد تضمّن مشروع المعاهدة التي أمضاها هاريسون (Harrisson) سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627) أنّ السّفن السّلاوية الرباطية، والإنجليزية إذا تلاقت في البحر لا يتعدّى بعضها على بعض، ولا يُلزم ربابين أحدهما الآخرين زيارتها وتفتيشها، ومن فعل ذلك منهم يُعاقب عقاباً صارماً من قِبَلِ دولته.

وإذا علم قراصنة سلا والرباط الحربيين أنّ السُّفن الإنجليزية حاملة لسلع دولة معادية لهم، فيكون لهم الحقّ في حجزها، بشرط أن يردّوا السفن فارغة لأصحابها، بعد أداء النّفقات اللاّزمة لها لمن يستحقّها.

وقد كانت المعاهدة المبرمة مع فرنسا سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (1039/1629) تتضمّن أنّه لا يمكن لأي سفينة سلاوية رباطية أنْ تحجز سفينة ولا سلعاً إذا ثبت أنّها ملك لفرنسا.

وفي المعاهدة المبرمة مع البلاد المنخفضة بتاريخ تاسع يبراير سنة إحدى وخمسين وستمائة والف (9 يبراير 21/1651 صفر عام 1062) مزيد بيان وتفصيل فيما يتعلّق بهذا الشرط .

وأهمّه هو أنّ كل سفينة قرصانية سلاوية رباطية يلزمها قبل خروجها للبحر أن تضع قدراً من المال ضمانةً كافية لتعويض ما عسى أن تُحْدِثَهُ من الأضرار ببحّارة سُفُن البلاد المنخفضة.

ويلتزم السلاويون والرباطيون بعدم الإذن لقراصنة الجزائر وتونس، وطرابلس، ببيع مَغَانمِهِمْ الهولاندية ببلادهم، ولا يمكِّنوهم من جوازات ومكاتب عليها طابع سلا والرباط، أو العلامة الرَّسمية الخاصَّة بهما.

وفي مقابلة ذلك، يَلْتَزِمُ الهولانديون بعدم أسْر أو حجْز أيٍّ سفينة قرصانية سلاوية رباطية.

وفي بعض الأحيان، كانت هذه المُعاهدات والعُقود والاتِّفاقات، تتضمَّن شروطاً أُخرى مُعَمِّمَة أو مخصِّصة، حسب الظروف والأحوال.

مثال ذلك أنَّ مشروع معاهدة سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627) مع إنكلترا جاء فيه أنَّ الحورناشيروسْ، عرضوا إعانتهم وانحياشهم لملك الإنجليز ضدَّ الدول المعادية والمحاربة له، إذا التزم بإعانتهم هو أيضاً وسرَّح لهم سائر الأندلسيين والمغاربة، والمسيحيِّين الذين أسلموا وأسرتهم الأساطيل الإنجليزية، وقادتهم إلى بلادها.

وتضمَّن أيضاً صكُّ المعاهدة المبرمة مع فرنسا، سنة ثلاثين وستمائة وألف (1040/1630)، قبول تعيين قنصل فرنسي بالقصبة وسلا والرباط، وأنْ يتمتَّع هو وسائر الفرنسيين الموجودين بالعُدْوتين بحرِّية إقامة شعائرهم الدينية ...

وفي الغالب، كانت هذه المعاهدات والعقود، لا تتمُّ إلاَّ بعد مخابرة صعبة طويلة، ومظاهرات وتهديدات حربية من الأساطيل التي تكون راسية بالبحر قُبالة القصبة وأبراجها وحصونها، ومدافعها مُسدَّدة المرمى نحو المرسى، والحرب على قاب قوسيْن أوْ أدنى، وخصوصاً فيما يرجع لمسائل فداء الأسرى من الجانبين.

ومن ذلك أنَّه في العشرين من شهر يوليوز سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (20 يوليوز 28/1629 قعدة عام 1038) بينما كان الفارس رازيلي (Razilly) واقفاً بأسطوله المتركِّب من ثمانية قطع كبيرة، وقارِبيْن صغيرين، رمت القصبة بثلاث مقذوفات من مدافعها، ثلاث قِطَعٍ منه كانت قريبة من القصبة.

وبعد ذلك ببضعة أيام، طاردت قطعة من هذا الأسطول بعض الزوارق السلاوية الرباطية التي كانت داخلة إلى المرسى أمام المصب، فرمتها أبراج القصبة بثمانين مقذوفة من مدافعها، وأُجيبت من البحر بمثلها، ونتج عن ذلك تعطيل مدفعين من المدافع الأندلسية المجلوبة من إنكلترا.

ومع هذا كله، فقد كان رازيلي (Razilly) يتبادل مع حاكم المدينة رسائل المجاملة ويقدِّم كل واحد منهما للآخر بعض الهدايا...

ومنها أنَّ حاكم المدينة وجَّه له يوماً أثناء مرابطته على الرباط اثني عشر كبشاً، واثني عشر سلَّة من العنب المسكي، وعدداً كبيراً من الدَّجاج، فشكره على ذلك، وكافأه عنه بثمانية أَذْرُع من ثوب جيِّد النَّسج، بديع النَّقش والزخرفة.

وعقب ذلك وجَّه رازيلي (Razilly) إنذاراً قاطعاً إلى الدِّيوان، فأجيب عنه بِالرَّفْضِ لكلِّ ما طلبه.

وحينئذ أعلن محاصرته للمدينتين السلاويتين، القديمة والجديدة، والقصبة، وعطَّل عدَّة سُفُن قرصانية تمكَّن منها .

واستأنف دوشلارد (De Chalard) المخابرة في فداء الأسرى مع ديوان القصبة من الأندلسيين.

وتمَّ الأمر بينهم بعقد هدنة في العشرين من أكتوبر سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (20 أكتوبر 1629/2 ربيع الأول 1039)، وإطلاق سراح الفرنسيين الذين كانوا بالعدوتين بعد أداء (265) ليبرة ذهبية عن كل رأس منهم، إلاَّ أنَّ هيجان البحر منع من إركابهم في قِطَعِ الأسطول الذي كان في انتظارهم.

وفي السنة التي بعدها رجع رازيلي إلى العدوتين، ومعه ثلاث قطَع من الأسطول الفرنسي، وأرسى أمام المرسى، وطلع للسفينة التي كان فيها الرئيس مُوراَ رَايَسْ، ومعه جماعة من القراصنة السلاويين الرباطيين للسلام عليه، فقابلهم أجمل مقابلة، ووجَّه معهم عند رجوعهم أحد معينيه، وثلاثة من رجال الدِّين إلى القصبة، فتلقَّاهم السُّكان بالحفاوة والتصفيق، وافتتحوا مذاكرة جديدة مع رجال الديوان، وكلَّف دوشلار بمتابعتها إلى النهاية.

وكان القراصنة السلاويون الرباطيون يحاولون الاستيلاء على القطع الفرنسية بحيلة من الحيل على حين غفلة من بحَّارتها، ولكنَّهم شعروا بذلك قبل وقوعه، واحتاطوا له بما اتَّخذوه من وسائل الدفاع عنها.

وعُقدت جلسة المذاكرة مع حكّام العمران الثلاثي على المصب الرقراقي بالقصبة في قاعة مُزيَّنة مفروشة بالزرابي، وجلس المتذاكرون مُتَّكئين على الأرائك والوسائد الحريرية الموشاة المطرّزة، وأمامهم كاتب الجلسة، يُقيِّد ما يروج فيها، جالساً أمام مائدة (طاولة) صغيرة من العود مرتفعة عن الأرض بِنَحْوِ الذراع.

وتمَّتْ هذه المذاكرة بعقد صلح باسم ملك فرنسا لويس الثالث عشر، بتاريخ ثالث شتنبر سنة ثلاثين وستمائة وألف (3 شتنبر 24/1630 محرم 1040).

وبمقتضاه، أُطلق سراح مائة وعشرين أسيراً فرنسياً، فبادر دوشلار بإركابهم البحر في الحين.

وهذا هو الصلح الذي أمضى عليه أحمد بن علي بَكْسِيلْ وعبد لله بن علي القصري، حسبما تقدَّم الكلام عليه في فصل : «بعض أعمال الأسطول السلاوي الرباطي وما ترتَّب عنها».

# المبحث الثاني

## المواصلة بين قراصنة سلا ورباط الفتح وبعض دول أوروبا[32]

كان من نتائج انتشار القرصنة السلاوية الرباطية، ربط العلائق[33] والمواصلة مع بعض دول أوروبا.

وذلك أنَّ القراصنة والمجهِّزين لسفنها، لمَّا انتشرت قرصنتهم في البحار، وتعدَّد تردُّد أساطيلهم على السواحل والشواطئ الأوربية وتكرَّر، وجدوا أنفسهم مضطرِّين إلى زيادة الاعتناء بسُفُنهم، وجلب ما تحتاج إليه من الأدوات والآلات اللاّزمة لها، كالصُّواري والسلاسل والقلوع والجِمالات الصُّفر، أي قُلُوس السفن البحرية التي تُجمع فتُوثَّق بها، والمخاطيف، والبراميل، والمدافع، والمهارس النُّحاسية، والبارود، وغير ذلك من الأسلحة وآلات البحر، وبعض الأقوات والمؤن عِنْدَ الاحتياج إليها.

وفي مقابلة ذلك، كانت بعض الدول الأوروبية التي مسَّتها الضرّاء والبأساء من القرصنة السلاوية الرباطية، وزلزلتها بما أخذته من سفنها، وأسرته من بحّارتها، واختطفته من أعيانها، رغبت هي أيضاً في مدِّ يد المواصلة مع حكومة أبي رقراق للمخابرة معها في فداء أسراها، والحصول على ضمانة باحترام سفنها الماخرة في البحار، وعدم نهبها وإِتْلافها، ومعاهدات تخوّلها حق التجارة المستمرَّة بالعدوتين.

---

32) تاريخ الرباط لكايي، ص 227 من ج 1.

33) "Les Etats Barbaresques" par Jean Moulieras, p. 25.

وكانت إصبانيا وإنجلترا تسوِّل لهما نفسهما مدّ اليد إلى القصبة والاستيلاء عليها بسبب من الأسباب المنتحلة، أو حيلة من الحيل المفتعلة، أو عملية من الأعمال المشبوهة المستعملة.

وبِمُقْتَضَى حاجة الأولين، ورغبة الآخرين، وكلٌّ كان يعمل لمصلحة شخصه، ويجرُّ النار إلى قرصه، ويسعى بكل ما في وسعه للوصول إلى غايته، مدّ الطرفان في حين من الأحيان يدهما إلى بعضهما، وأمكنت المخابرة بينهما في مصالحهما المتبادلة.

ولا يغيب عنَّا هنا حالة الأسرى المسلمين بأوروبا، وما كانوا يقاسونه من أليم العذاب وشديد العقاب، وما قاساه المسلمون وأمراؤهم وملوكهم في فدائهم وإنقاذهم، وقد تقدَّمت أخبارهم، وتراجم بعض مشاهيرهم وأعيانهم مبسوطة قبل هذا في محلِّه.

ولا شكَّ أنهم كانوا من جملة عناصر المعاهدات والمخابرات التي كانت تروج بين أولي الأمر بالعدوتين ومبعوثي الدول الأخرى، زيادة على المسائل الاقتصادية، وجلْب ما تحتاج إليه الأساطيل القرصانية.

وكان أمراء القصبة وقوادها إذْ ذاك يروْن أنَّهم مستقلون بأنفسهم، منفصلون عن الحكومة السعدية، وأنَّهم متصرِّفون في المرسى بكل استقلال وحرية، كما تقدَّم ذكره فيما مضى.

وبناء على ذلك، كانوا يخاطبون ملوك أوروبَّا ورُؤَسَاءَهَا رأساً بدون واسطة، وخصوصاً شارل الأول ملك إنجلترا، وحكومة لاهاي بهولاندا، وأمراء أورانج (Orange) قرب مدينة أڤينيون (Avignon) التي كانت تتمتَّع بسيادة خاصَّة في القرن السابع عشر، تَحْتَ إشراف التَّاج الفرنسي.

ومن جملة ما تمَّ بينهم من العقود في ذلك العهد، أنَّه في سنة أربع وعشرين وستمائة وألف (1034/1624)، اشترى حاكم القصبة والأميرال مورا رايَسْ من تُجَّار أمستردام (Amsterdam)، بواسطة يهودي من مدينة سلا اسمه هارون كيريدو، مائتيْ مِجداف، ومائتيْ رُمْح، ومائة وعشرين بندقية، وألف كيلو من البارود للمدافع، وتسعين قنطاراً من البُنْبِ المختلف الحجم والوزن، وعشرة قناطير من الكبريت.

وكانت هذه المجلوبات كلّها تؤدِّي الحقوق الديوانية بالمرسى كغيرها من السِّلَع المجلوبة على يد الأجانب أوْ بواسطتهم.

وفي سنة ست وعشرين وستمائة، (1036/1626)، طلب الحورناشيروس من ملك إنجلترا، بواسطة القبطان جون هاريسون (John Harrisson) أربعة عشر مدفعاً وكمية من السلاح والذّخائر الحربية.

ولمَّا رجع هاريسون إلى المغرب، سنة سبع وعشرين وستمائة وألف (1037/1627)، جاء معه بخمسين رمحاً، وستة مدافع، وعدد من المقدوفات والبارود، وأعلن بمجرد وصوله للحورناشيروس أنَّه سيصلهم في القريب العاجل عدد آخر من المدافع وما تتوقف عليه من لوازمها.

وفي السنة بعدها، وعد شارل الأول ملك إنجلترا المقدَّم مُحمَّد المبعوث الخاص من قِبَلِ الحورناشيروس بلوندرة بمدافع أخرى.

وبعد ذلك رجع هاريسون إلى العدوتين أيضاً، وأصحب معه ستة مدافع، وعدداً آخر من الذخائر الحربية.

ولكنَّ الأوروبيين أدركوا عقب ذلك أنَّ هذه الأسلحة والعدد الحربية إنَّما تُستعمل في تدمير سفنهم ونهبها، وعدم احترامها، فصاروا يتلكّؤون في تلبية مطالب الأندلسيين الرباطيين، ويماطلون غاية المماطلة في إنجازها.

ولذلك، فإنَّه في سنة تسع وعشرين وستمائة وألف (1039/1629)، لم تأذن الحكومة الهولاندية لليهودي كيريدو السلاوي السابق الذكر في وسق خمسة عشر ألف كيلو من البُنّ، وخمسة عشر ألف كيلو من البارود من بلادها، حتَّى بيّن لها وتعهّد بأنها لا تستعمل إلاَّ فيما تحتاج إليه، وتتوقَّف عليه القصبة من مصالحها الداخلية.

ولمَّا كانت القصبة محاصرة من طرف أبي عبد الله العياشي سنة ثمان وثلاثين وستمائة وألف (1638 / 1048)، مدّ يد الإعانة إلى رؤسائها الدوق ميدنا سيدونيا (Le Duc de Médina Sidonia)، رئيس الأسطول الإصباني الذي كان راسياً أمامها بأسطوله، ووجَّه لهم ما كانوا في احتياج إليه من البارود والقنابل وغيرها من الأدوات الحربية والأقوات.

وبعد ذلك، حاول الشريف محمد الأصغر السعدي أنْ يشتري من هولاندا باسم القصبة قدراً من السِّلاح والذخائر الحربية، ولا ندري هل تمَّ ذلك أمْ لا.

وفي سنة ست وخمسين وستمائة وألف (1067/1656)، طلب أمير سلا وحاكم القصبة، أبو عبد الله الدلائي من الأميرال الهولاندي رويتار (Ruyter) أنْ يجلب له من بلاده نحو

خمسمائة كيلو من البارود للمدافع، والتزم له أنْ لا يستعمل حبة منه في القرصنة، وأنَّه إنَّما طلبه لاحتياج القصبة إليه.

وفي بعض الأحيان، كانت بعض الدول الأوروبية تقف في صفِّ أحد الخصمَيْن المتنازعيْن من سُكَّان العدوتين، كما فعل شارل الأول ملك إنجلترا، لمَّا أعان أبا عبد الله العياشي أثناء حصاره للمورسكوس سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1047/1637) بعدد كبير من الذخائر الحربية والمؤن التي كان في احتياج إليها كما تقدَّم.

وهكذا، كانت بعض هذه الدول المسيحية تنفِّس الخناق عن المحاصَرين بالقصبة، وتمدُّهم بالمؤن والأقوات إذا كانت لها مصلحة في ذلك، كما أعانت الأخرى العيَّاشي المحاصِر لهم لمصلحتها أيضاً.

ولمَّا وصلت المؤن والأقوات للقصبة وهي محاصرة سنة ثمان وثلاثين وستمائة وألف (1048/1638)، أنعشت سُكَّانها، وخفَّفت عنهم شِدَّة المجاعة بما جاءهم به بليك (Blake) الإنجليزي ومدِينَاسيدُونْيا من البيسكوت، ويقدَّر بنحو خمسمائة أو ستمائة قنطار.

وفي أثناء حصار الأمير عبد الله الدلائي بالقصبة من سنة ستين وستمائة وألف إلى سنة أربع وستين وستمائة وألف (1660-1071/1664-1075)، في قيام المولى الرشيد، وصله من طرف ملك البرتقال عدة أجفان مشحونة بالأقوات والسِّلاح الحربي.

وكذلك فعل معه حاكم مدينة قادس الإسبانية الكونط دو طيڤيوط (Le Comte de Téviot) المحافظ علي حصن طنجة من قِبَلِ الإنجليز في ذلك العهد، بواسطة رسوليْن مُوَجَّهَيْنِ إليه من قِبَلِه من مُسلمة الفرنسيين الذين كانوا بالرباط.

وفي مقابلة هذه الإعانة المادِّية التي أعانه بها، وجَّه له سنة ثلاث وستين وستمائة وألف (1047/1663) مكافأة له عدداً من الخيل وأربعين بقرة، وثمانين كبشاً. وفي ذلك دليل على وجود البقر والغنم بكثرة بالقصبة، وطلب منه أن يعينه بما هو في احتياج إليه أكثر، وهو وقوف سفينة إنجليزية أمام المصبِّ الرقراقي تحول بين المحاصِرين له وبين وصول كل مادَّة تعينهم من البحر. ولكنَّ الكونط دوطيڤيوط لم يستجب لطلبه، لوقوف شخص غَيْلاَن أمامه.

# المبحث الثالث

## المواصلة التجارية بين قراصنة سلا والرباط وأوروبّا وتعيين القناصل

تقدَّم لنا في الفصل السابق الكلام على ربط حبل المواصلة بين قراصنة سلا ورباط الفتح، وما نتج عن ذلك من الإعانة الماديّة بالسِّلاح والأقوات في أوقات الحصار والاحتياج إليها.

وسنذكر في هذا الفصل المواصلة التِّجارية التي كانت متبادلة بين الطرفين، والأطوار التي تطوَّرت فيها، وما نتج عنها أو صحبها من التقلُّبات والأحداث، وتعيين القناصل ليتحمَّلوا مسؤولية ذلك، فنقول :(34)

لم تكن القرصنة السلاوية الرباطية مانعة لحبل اتِّصال المواصلة التجارية بينها وبين الدول الأوروبية. وكان جماعة وافرة من التُّجّار المختلفي الأجناس مقيمين بالعدوتين معاً يروِّجون تجارة واسعة النطاق، مختلفة الأنواع، في جوٍّ من الاطمئنان على أنفسهم وتجارتهم، وإنَّما يؤدُّون الواجبات والضرائب المترتِّبة عليها.

ومع أن القرصنة كانت في أوَّل عهدها بالعدوتين موجهة ضد إِصبانيا انتقاماً منها لطردها الأندلسيين من بلادهم وتشريدهم كما تقدَّم، فقد أذن فيليب الرابع للإصبان بصفة استثنائية بمقتضى قرار سنة ست وعشرين وستمائة وألف (1036/1626) بمتاجرتهم مع الأندلسيين الذين عمروا القصبة ورباط الفتح على الضفَّة اليُمنى لمصبٍّ نهر أبي رقراق.

34) «تاريخ الرباط» لكايي، ص 236 وما بعدها من ج 1.

وأصبحت مرسى العدوتين في ذلك العهد أول المراسي المغربية، لاحتلال البرتقال لعدة مراس أخرى، وقلّتْ حركة آسفي وأكادير بالنسبة إليها، بعدما كانتا في العهد السعدي مقصودتيْن من العالم الأوروبيِّ.

وقد نوّه بها ونبّه على ازدهار مستقبلها جون هاريسون في بعض تقاريره سنة ثلاثين وستمائة وألف (1040/1630)، وذكر أنّه أحْصى السفن التجارية التي دخلت إليها في ظرف شهر ونصف، فبلغ عددها ثلاثين سفينة أجنبية.

وأخبر رازيلي ودوشلار الفرنسيان أنّهما وجدا في السنة نفسها عدداً كبيراً من السفن التجارية بمرسى العدوتين، وذلك ممّا يدلُّ على أهميتهما.

وجاء في بعض الإحصاءات التجارية أنّ التاجر الهولاندي رويتير، جلب لمرسى أبي رقراق سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1065/1654) قدراً كبيراً من التبغ والقطن والصمّغ والبارود، ووسق منها الثِّيران والبقر وجلودهما.

وكان أندلس القصبة والرباط يستفيدون من هذا الروجان التجاري مع أوربا، كما يستفيدون من القرصنة أموالاً طائلة، وأرباحاً عظيمة.

وفي الحقيقة انَّهم كانوا في احتياج إلى ما يجلبونه من منتوجاتها التي لا توجد عندهم. وفي مقابلة ذلك، كانوا يتمكّنون من بيع ما يتوفّر لديهم من سلَعِ المغانم التي لا تنفق إلاّ في الأقطار الأوروبية إلى التجار الأوروبيين، وأنّ ذلك كان ممنوعاً بفرنسا، لأنّها تعتبر أنّ تلك السلَع مسروقة أو مغتصبة.

وكان تُجّارها بالمغرب لا يشترون منه إلاّ منتوجاته ومصنوعاته الخاصّة به.

وأمّا غيرها من الدول الأخرى، فإنّها كانت لا تعتبر ذلك، ولا تلقي له بالاً، وتُقْدِمُ على شراء تلك السلع بدون اعتبار لأصلها ومصدرها.

وبذلك كان قراصنة أبي رقراق يجدون منفذاً وأسواقاً لمغانمهم المأخوذة من السفن الأوروبية في عدة مُدُن إيطالية، ليڤورن (Livourne) وجنوة (Gênes)، وبيزة (Pise)، وغيرها، وربّما باعوا بها حتى الرّقيق.

ولأِهمّيّة ما كان يُعلّقه الأوروبيون أنفسهم على المتاجرة مع الموريسكوس، فإنّه بِمجرّد انعقاد الهدنة الأولى سنة تسع وعشرين وستمئة وألف (1039/1629) مع فرنسا بواسطة رازيلي، قدّر الفرنسيون قدْر ما سيحصلون عليه من الأرباح والفوائد ذات الأهمية الكبرى من المتاجرة مع أولئك القراصنة، لاسيما إذا أسّسوا شركات تجارية ببلادهم.

وفي ثامن وعشري مايو سنة ثمان وثلاثين وستمائة (28 مايو 24/1638 محرم 1048)، أسَّست إنجلترا بإذن من ملكها شارل الأول شركة تجارية أطلقت عليها إسم باربارى كومپاني (Barbary Company)، وكانت تمارس حركتها التجارية بالرباط وسلا وغيرها من المدن المغربية.

وقد كان عدد كبير من التُّجار الأجانب الفرنسيين والإنجليزيين والهولانديين المقيمين بالقصبة والرباط وسلا يتعاطون التِّجارة بكلٍّ حرِّية واطمئنان، وهُمْ معروفون بأشخاصهم وأسمائهم، ومنهم من كان له اتِّصال مع حُكَّام المدينتين والقصبة ورجال الدِّيوان، وكانت لهم حقوق وامتيازات، منها إقامة شعائر دينهم في داخل بيوتهم.

ولكنَّهم كانوا مسؤولين عمًّا يصدر من أبناء جنسهم من التعدِّى على السُّفن القرصانية السلاوية الرباطية السابحة في البحار، وكلَّمَا وقع شيء من ذلك، انتقم منهم الأندلسيون بالعدوتين معاً، وصبّوا عليهم سَوْطَ عذاب، وكانوا لهم بالمرصاد، كما وقع سنة إحدى وثلاثين وستمائة وألف (1041/1631)، لمَّا تعدّى بعض الإنجليز على سفينة من سفن قراصنة أندلس الرباط، وأسروا من فيها، فأُلقي القبض على جميع التجَّار الإنجليزيين بالعدوتيْن، وحُجزت سفنهم، وتعطَّلت تجارتهم.

وفي سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1065/1654)، استولى أميرال البلاد المنخفضة ترامب (Tramp) علي سفينة من سفن القرصنة السلاوية الرباطية، وباعها بقادس. وبِمجرَّد ما بلغ الخبر لحكومة المصبِّ الرقراقي، أمرت بإلقاء القبض على رؤساء بحَّارة سفينتين هولانديتين كانتا راسيتين بالوادي، وسُجنوا في مطبق تحت الأرض.

وفي شهر نونبر من السنة بعدها، أسر القبطان لين براندت (Lyn Brandt) من زيلاندا ثلاث سفن لقراصنة العدوتين، سلا والرباط، فأمر أولو الأمر بها في الحين بالقبض على بحَّارة أربع سفن للبلاد المنخفضة وجدها الحال بأبي رقراق وسُجنوا. وبعد ذلك أُطلق سراحهم بالنَّهار، وصَارَتْ تقع عليهم الحراسة الشديدة باللَّيل، وأدّى التجَّار الهولانديون بالمدينة عنهم ضمانة قدرها ثمانية عشر ألف فْلورانْ.

وكانت هذه الحوادث المتجدِّدة من حين لآخر هي الباعث للدول الأوروبية على إحداث قنصلياتها واستمرارها بعمران أبي رقراق.

وكان من حق هؤلاء القناصل وواجباتهم حماية أبناء جنسهم والذّبّ عنهم، وكفّهم عمّا يحدثونه من الضَّرر، أو يصدر منهم من الأفعال والأقوال التي تمسّ بالحُرْمة والكرامة.

وكانوا مُكلَّفين أيضاً بمعالجة القضايا التجارية والسياسية التي تكلّفهم بها حكوماتهم، كفداء الأسرى ونحو ذلك.

وكان الأندلسيون الموريسكوس يتساهلون في قبولهم، ولكنَّهم كانوا يفضِّلون مباشرة قضاياهم التجارية والسياسية رأساً مع حكوماتهم المركزية في محلِّها، ولذلك كانوا يعتبرونهم أفراداً من عامَّة النَّاس، ولا يخصّونهم باعتبار زائد ولا تمييز، ولا يقصدونهم بإهانة خاصّة أو سوء معاملة.

ومن سنة ثلاثين وستمائة وألف (1040/1630) إلي سنة ست وستين وستمائة وألف (1077/1666)، عاش بالرباط والقصبة جماعة من قناصل فرنسا أوْ نُوابهم.

– منهم بيير مازي (Pierre Mazet) الذي عيَّنه رازيلي بتاريخ ثالث شتنبر سنة ثلاثين وستمائة وألف (3 شتنبر 24/1630 محرم 1040)، للسَّهر علي تنفيذ وتطبيق شروط الهدنة المعقودة بين فرنسا وديوان ما كان يُسمّى «بالجمهورية السلاوية الرباطية» في ذلك العهد. قالوا : وكانت سُمْعته ورزانته هي التي هيَّأته للقيام بهذا المنصب الرَّسمي، وسكن بالقصبة مُدَّة، لأنَّ بعض مقرَّراته ورسائله مُحرَّرة بها، وصادرة منها.

وقالوا أيضا : إنَّه كانت له مجاملة وحسْن معاملة مع رؤساء الموريسكوس، ونجح في مباشرة عِدَّة قضايا معهم في مَصْلَحَةِ أبناء جنسه.

ولَكنَّه لمّا لاحظ ضعف نفوذه، وعَدَمَ سماع صوته في نادي الديوان، وعجزه عن حلِّ بعض المشاكل، طلب من حكومته رجوع رازيلي إلى الرباط لمباشرتها، وحلِّ عُقدها بنفسه، وخصوصاً المسائل الراجعة لاسترقاق الفرنسيين.

– ومنهم گاسبار راستان (Gaspard Rastin)، وكان مقيماً بالرباط برتبة قنصل، وشارك في مفاوضة دوشلار في فداء الأسرى سنة خمس وثلاثين وستمائة (1045/1635).

وضمن ثلاثمائة وثلاثين منهم، إن فرّوا أوْ ماتوا قبل أداء القدر المقرَّر في فدائهم. وحيث إنَّ هذا القدر لم يؤدّ في الأجل المحدَّد له، أصبح متحمّلاً أداءه ومطالباً به.

ثم فرّ بعض الأسرى ومات بعضهم، وطالت المماطلة، وألحّ سُكَّان القصبة والرباط في أداء ما تمَّ الاتِّفاق عليه، وغَضِبُوا واشتدَّ غَضَبَهُمُ عليه.

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أوائل سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (أوائل 1637/أواخر 1046)، لمَّا جاء الخبر بأسر سفينة قرصانية سلاوية رباطية بمرسى لاروشيل (La Rochelle)

بفرنسا، فوقعت مظاهرة صاخبة وهيجان واضطراب بالرباط، وطالب المتظاهرون بالقبض على ممثل فرنسا وسجنه، ثم سكنوا وسكتوا، وانتظروا إلى شهر يوليوز من السنة نفسها، (يوليوز 1638 /صفر 1047)، ففرّ خمسة وعشرون آخرون من الأسْرى، وعادت المظاهرة والهيجان بأشدّ ممّا تقدّم، وأُلقي القبض حينئذ على راستان، وأُثقل بالحديد، ونُهبت داره، وفُرِّقت ثروته ومقتنياته، ثم أُطلق سراحه بعد حين، ولمْ تبق له همّة ولا ذمّة.

وطالما كان يطالب ريشوليو (Richelieu) بأداء الفداء المقرر والموعود به، فيتغاضى عنه، ولا يجد منه أذناً صاغية، ولا فكرة لِمَا كان يُتوقّع وُقوعه واعية، ولم يُحصّل على طائل.

وأخيراً، لمّا تحقّق أنّ بلاط الملك الفرنسي إنّما يعده ويُمنِّيه، ومواعده وأمانيه إنّما هي أحلام وأضاليل، غلب عليه اليأس، ومات حسرةً وكمداً سنة ثلاث وأربعين وستمائة وألف (1053/1643).

ولمّا أُهملت معاهدة دوشلار المذكورة، ولم تُطبَّق أحكامها وفصولها وفروعها وأصولها، توتّر حبل المواصلة بين فرنسا وحكومة مصبّ أبي رقراق، وكاد ينقطع، وبارت التِّجارة، وكادت أن تضمحلّ، وباءت بالخسارة، فاضطرّت فرنسا إذْ ذاك إلى معالجة الحالة لِمَا لها من المصلحة الخاصّة، وبالأخصّ التجارة في ذلك المركز المهمّ من المغرب، فانتدبت أندري بْرات (André Prat) لمباشرة هذه المشكلة الاقتصادية قبل كل شيء، ومعالجتها، فنجح فيها، وردّ المياه لمجاريها. وتوفّق إلى الحصول على ثقة الشيخ الدلائي أمير القصبة، وتخلّى له عَنْ مطالبه التي كان متمسّكاً بها، المتعلّقة بمعاهدة سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (1048/ 1635).

وبِحُسْنِ إعانة ولده هانري برات، عقد مع وُلاة القصبة والمدينتين الرباطية والسلاوية معاهدة سنة خمس وأربعين وستمائة وألف (1055/1645) المتضمِّنة لردّ العلاقة التِّجارية لِمَا كانت عليه مع عمران أبي رقراق وتطوان.

وبعد ذلك بمدّة قريبة، أمْضى بتاريخ حادي عشر مايو سنة ست وأربعين وستمائة وألف (11 مايو 23/1646 ربيع الأول 1056) مع الوُلاة المذكورين باسم شيخ الدِّلاء معاهدة أخرى جديدة تتضمّن حرية التجارة بالمدن المذكورة.

وبمقتضى هاتين المعاهدتين المذكورتين، سكنت الزوبعة التي كانت ثائرة بين فرنسا وقراصنة العدوتين، وعادت المواصلة التِّجارية لِمَا كانت عليه قبل سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (1045/1635).

ولمّا استقلَّ هانري بْرَاتْ بالقنصلية بالرباط وسلا والقصبة خلفاً عن والده في حدود سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف (1058/1648)، استقرَّ بمارسيليا، وأناط إدارة أعمال القنصلية المسندة إليه إلى ثلاثة نُواب قناصل عنه.

وكلُّهم حصلت لهم مشاكل في مباشرة أشغالهم القنصلية، لأنَّ التُّجار الفرنسيين بالرباط، كانوا يمتنعون عن أداء الضرائب المفروضة على السلع التي يجلبونها من الخارج، ويبيعونها بالمغرب.

ولمَّا وصل أحدهم المسمى سيطراني (Citrani)، وأراد النزول من السفينة إلى المرسى بما معه من البضائع في شهر يونيو سنة خمسين وستمائة وألف (يونيو 1650/جمادى الآخرة 1060)، مُنع من ذلك حتَّى يستأذن حاكم المدينة، فكتب إليه يستأذنه، وبقي في انتظار الجواب سنة كاملة، وحينئذ أذن له.

وقد امتنع هانري برات هذا من أداء واجبات كنيسة صلاتهم المأنون لهم فيها، والنَّفقة على رجال الدِّين الموظفين فيها، فاشتكوا به إلى الملك بباريس، فورد الأمر منه بتاريخ ثامن وعشري يناير سنة اثنتين وخمسين وستمائة وألف (28 يناير 1652/صفر 1062)، بإلزامه أداء جميع ما طُلب منه من نفقات الواجبات الكنيسية لغاية أربعمائة ليرة شهرية، وإنْ امتنع يُعزل من وظيفته.

هذا، وكما كان لفرنسا قناصل بالعدويتين السلاوية والرباطية، فقد كان لهولاندا كذلك قناصل يمثلونها ويَسْهَرُونَ على مصالحها التجارية، ومقاصدها السياسية.

– ومنهم جوريان ڤان بيسترڤيلت (Jurian Van Bysterwelt) الذي عُيِّن بتاريخ تاسع وعشري دجنبر سنة خمس وثلاثين وستمائة وألف (29 دجنبر 19/1635 رجب 1045)، بمقتضى لائحة رفعها التُّجار الهولانديون لحكومتهم بطلب تعيينه.

وكان معتَمَداً لها لدى الحكومة الرقراقية ولدى الحكومة السَّعْدية، ويمتدّ نفوذه القانوني بالمغرب كله، ومحلُّ سكناه وإقامته بالقصبة، وهو الذي توسَّط في مصادقة حُكّام القصبة وسلا الجديدة والقديمة، على المعاهدة الهولاندية المغربية السَّابق عقدها مع المولى زيدان سنة عشر وستمائة وألف (1019/1610)، وعليها انْبنت المعاهدات التي عُقدت بعدها.

واستمرَّ يباشر وظيفته هذه عملياً إلى سنة ثمان وثلاثين وستمائة وألف (1048/1638). ولم يُعين خلفه المسمَّى هاندريك دوپير (Hendrik Dopper)، من مدينة أمستردام، إلاَّ سنة ثلاث وأربعين وستمائة وألف (1053/1643).

وكانت مهمَّته منحصرة في السَّهر على المعاهدة المذكورة المعقودة مع السلطان السَّعدي، والمحافظة على ما تضمَّنه الصكُّ الودادي مع السلاويين والرباطيين، ومساعدة الرَّعايا الهولانديين في ترويج تجارتهم، والدبِّ عن حقوقهم وحمايتهم، إلاَّ أنَّه لم يقم إلاَّ مدَّة قصيرة بالرباط، وكان له اتِّصال أثناءها مع وُلاة القصبة القابضين على زمام الحكم بها.

وخلفه داڤيد دوڤيري (David de Viries) سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (1062/1651)، لمَّا عيَّنته حكومة لاهاي للمصادقة على عقد الصُّلح المؤرَّخ بثالث أبريل سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (3 أبريل 11/1651 صفر 1061).

وكان سبقت له الإقامة مُدَّة طويلة بالبرازيل، خدم فيها مصلحة بلاده، وفي طريق رجوعه منها إلى بلاده بأوربا، أسره القراصنة السلاويون، وتَمَّ فداؤه بقدر له بال من المال، وأقام بعد هذا الفداء مُدَّة بالرباط.

وسعى بكل ما في وسعه في التَّوفيق بين حكومته وحكومة القصبة أثناء المذاكرة التي كانت جارية بين الطرفين سنة خمسين وستمائة وألف (1060/1650) في عقد الصلح الذي جاء للمصادقة عليه بعد رجوعه لبلاده.

ولمَّا رجع وأرست السفينة المُقلَّة له بشاطئ المصبِّ الرقراقي في الحادي والعشرين من شتنبر سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف (21 شتنبر 4/1651 شوال 1061)، وجَّه له شيخ الدلاء الأمير بالقصبة أربعة نواب من طرفه للسلام عليه، ثمَّ استقبله حكَّام الرباط وسلا وأعيانهما بغاية الحفاوة بالقصبة، ورحَّب به أميرها سيدي عبد الله بنفسه.

إلاَّ أنَّ هذه الحفاوة لم تدمْ طويلا، ولقي في تنفيذ مهمته، وما جاء لأجله، صعوبات وعراقيل ومشاكل كثيرة نتيجة الأعمال القرصانية التي وقعت في البحر بين قراصنة الطرفين، وتعدّى بعضهم على بعض، فتحمّس قراصنة العدوتين، وأرادوا الانتقام منه ومن قناصل سائر الدول الأوربية الأخرى أخذاً بثأر إخوانهم المُعتدَى عليهم، لاسيما وقد كان سبق لهم أَسْرُهُ قبل ذلك لمّا كان راجعاً من البرازيل، كما تقدَّم.

وذلك أنَّه في شهر مايو سنة اثنتين وخمسين وستمائة وألف (مايو 1652/جمادى الآخرة 1062)، شاع بالعدوتين أنَّ سفينة سلاوية أسرها الأسطول الهولاندي واستوْلى عليها فقامت القيامة في الحين، وتظاهر ثلاثمائة من السكَّان أمام دار القنصل وهم يصيحون «يموت القنصل، اقتلوه»، وكادوا يفعلون لولا أنَّ الباب كان مغلقًا محكماً.

وفي الحين تدارك الموقف الأمير عبد الله الدلائي، ووجَّه ثلاثة من الأعيان من قِبلِه، فسكّنوا الضجّة القائمة، وأعادوا الأمن إلى نصابه.

وبعد سنتين تجددّت المظاهرات والمطالبة بالقبض على هذا القنصل والبطش به بسبب أسْر السفينة القرصانية المذكورة.

وفي خامس عشر يوليوز سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (15 يوليوز 1654/متم شعبان 1064)، حُوصرت داره، وجُعلت عليها الحراسة لتمنعه من الخروج، لأنَّ الحكّام بلغهم أنَّه يحاول الهروب إلى المعمورة، وهي المهدية التي كانت ما تزال بيد الإصبان.

وبعد ظُهْر يوم من الأيام في شهر نونبر من السنة المذكورة (محرم 1065)، هجم عليه خادمه وأهانه، وسحبه خارج بيته، ثم دحرجه من أعلى الدرج إلى الأرض، ونزع منه مفاتيح داره وخزائنه فانتُهبت في الحين، وسُجن بمطمورة تحت الأرض، وبقي فيها أربعة أيام بلياليها، وأُلحق به أعوانه وحشمه، ثم أُطلق سراحه، وجُعلت عليه الحراسة الشّديدة لإحصاء حركاته وسكناته، وفي الليل كان يحرسه أربعة حُراس، وأُلزم بأداء ثلاثين ريالاً كل ليلة أجرة لهم من ماله الخاص. واستمر على هذه الحالة السيئة إلى شهر يونيو سنة خمس وخمسين وستمائة وألف (يونيو 1655/ شعبان 1065).

وقد عبّر عمّا كان يقاسيه من المشاق في مباشرة وظيفته هذه في إحدى رسائله المحرَّرة سنة ست وخمسين وستمائة وألف (1066/1656) بقوله : «كنت كلّما رفعت صوتي، حملتُ سكّان العدوتين معاً على ظهري، وكانت حياتي في خطر، لأنَّه لمْ يكن تمَّ نظام ولا عدل».

ومع هذا كلِّه، فقد كان له صوت أثناء المذاكرة المترتِّبة على المظاهرة الحربية التي قام بها الأسطول الهولاندي أمام سلا والرباط، كما تقدَّم، في فصل «موقف هولاندا من قرصنة العدوتين» منذ سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1064/1654) إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة وألف (1069/1658).

ومات في وظيفته هذه بالرباط سنة اثنتين وستين وستمائة وألف (1073/1662).

وأمَّا إنجلترا فإنَّها وإنْ كانت أول دولة أوربية اتَّصلت بالحورناشيروس وأندلس العدوتين، فإنَّها لمْ يكن لها قنصل رسمي مقيم يمثلها بالقصبة والرباط في أول الأمر.

وقد نبّه هاريسون مَلِكَ إنجلترا، شارل الأول، سنة ثمان وعشرين وستمائة وألف (1038/1628) على ضرورة تعيين قنصل رسمي لدى أندلس مصب أبي رقراق، يسهر على المصالح الإنجليزية، ويدافع عن سياسة الدولة، ويحمي تُجّارها وتِجارتها من اليد العادية.

وبعد سنة سبع وثلاثين وستمائة وألف (1047/1637)، نصح القبطان جان پين (Jean Penne)، الملك أيضاً بالمبادرة بتعيين قنصل إنجليزي رسمي بالرباط، يلاحظ، زيادة على أشغال مهمته القنصلية والتجارية، تسليح السفن القرصانية وتجهيزها، وأخذ الضمّانة الكافية من القراصين حتّى لاَ يُهَاجِمُوا السفن الإنجليزية، ويحترموها كلّما صادفوها في بحر من البحور، ولكنّ الملك لم يلتفت إلى نصيحته.

وأخيراً طلب هذا القبطان إسناد هذه الوظيفة إليه، فأجيب إلى ذلك، بعدما عضّد طلبه جماعة من تُجّار الإنجليز بالرباط.

وصدر الأمر بِتَعْيينه بتاريخ تاسع يناير سنة ثمان وثلاثين وستمائة وألف (9 يناير1638/ 20 شعبان 1047)، ولكنَّه لَمْ يقمْ أبداً بمدينة من مدن أبي رقراق.

وبعده عُين القنصل ناتانيل لوك (Nathaniel Lock)، وشَملَتْ ولايته القصبة وسلا الجديدة وسلا القديمة. وهكذا توالى القناصل الممثلون لدولته بعد ذلك.

ومنذ عهد الدولة العلوية الشريفة عُيِّن لقناصل الدُول الأجنبية بالرباط محلُّ السُّكْنى بشارع سوق القناصل، لقربه من القصبة التي كانت مقرٌ بعض القواد والأمراء وفرق من الجيش وإشرافه على الوادي والمرسى.

ودور بعض مشاهيرهم مازالت معروفة إلى اليوم، كالدار التي كان يسكنها لوي شيني (Louis Chénier)، وغيره. ولذلك سُمي بهذا الإسم، وكان محور الحركة التجارية في ذلك العهد.

واستمرٌ القناصل والأجانب ساكنين ومُروِّجين تجارتهم به إلى أنْ وقع الاحتلال الفرنسي سنة اثنتي عشرة وتسعمائة وألف (1330/1912) فصاروا يسكنون حيث شاؤوا من المدينة لأنّها صارتْ عاصمة المملكة.

# الفصل الرابع

## عن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي
## في عهد الدلائيين، وما نشأ خلاله
## من حوادث سياسية ومظاهرات عدائية أوروبية،
## وعن صدى ذلك في المجتمع المغربي
## آنذاك من خلال الشعر.

# المبحث الأول

## الأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته
## في عهد الدلائيين

سنذكر في هذا الفصل حالة الأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته في العهد الذي استولى فيه الدلائيون على العدوتين وعمران المصبِّ الرقراقي، وما نشأ عن ذلك من حوادث سياسية، ومظاهرات عدائية، مع بعض الدول الأوربية، وإنْ كان قد تقدَّم ذكر بعضها أو الإشارة باختصار إليها في الفصول السّابقة، وموقف هولاندا من قراصنة العدوتين، كتنافسهما وارتباط بعضها ببعض، مع زيادة بيان، فنقول :

لمَّا قُتل الشيخ أبو عبد الله العياشي، وخلا الجوُّ للدلائيين، وبسطوا سلطانهم على الغرب والعدوتين السلاوية والرباطية، أخضعوا الأندلسيين إلى سلطتهم الفعلية، وسكنت الأحوال في الجملة، وانطفأت جمرة الفتنة، واستأنفت القرصنة أعمالها من جديد بحماسة وشدَّة، مُدة خمس وعشرين سنة، فكانت تهاجم سائر السفن التجارية الأوربية، بدون تمييز ولا فرق بين دولة من الدول، حسبما تقدَّمَ. ونشأ عن ذلك خسارة فادحة في التجارة البحرية الأوروبية، زيادة على الحوادث الطبيعية التي لابدَّ منها للسفن المُلجّجة في البحار عند حدوث الزوابع، ومعاكسة الرياح التي كثيرا ما يتسبب عنها الغرق والفساد، وارتفع واجب الضَّمانة التي تؤدِّيها السُّفن إلى أربعين في المائة بالنسبة لأثمان محمولها، وصار البحّارة والنَّواتية يمتنعون من المغامرة والمخاطرة بأنفسهم في السُّفن التِّجارية ظنّاً بحياتهم وحريتهم.

ومع ذلك فإنَّ دول أوربّا اختارت لمصلحة حالتها المخابرة مع أولي الأمر من قراصنة سلا ورباط الفتح، وعقد المعاهدات والمواصلة السياسية والتجارية التي تقدَّم الكلام عليها في الفصول السابقة معهم، عن مقابلتهم بالمثل أو إِشهار الحرب عليهم علانية.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة وألف (1059/1649)، أرادت هولاندا أن تُظهر قوتها أمام القرصنة الإفريقية، مع أنَّها كانت تحابي قراصنة العدوتين كلَّما اقتضت مصلحتها ذلك، فأخرجت أسطولها إلى رأس سان ڤانسان (Saint Vincent) وبوغاز جبل طارق، وأمرت أميراله بأسر وإغراق كل سفينة قرصانية تونسية أو جزائرية أو سلاوية رباطية مهما وجدت لذلك سبيلا، وقرَّرت، زيادةً على هذا، محاصرة مرسى سلا والرباط وحلق المعمورة.

وكانت النتيجة أنْ اصطدم هذا الأسطول مع خمس سفن قرصانية سلاوية رباطية، أكبرها تحمل اثنين وعشرين مدفعاً ومائة وعشرين بحاراً، فأسر بعض السفن وأحرق البعض الآخر، وكانت رياستها لرئيس إنجليزي كان مسيحيا وأسلم، وقتل من البحّارة ثلاثاً وثلاثين وأسر الباقي، فاستعبدهم الهولانديون وباعوعهم بأسواقهم.

وقد شجَّعت هذه المعركة الهولاندية هولاندا على توجيه أسطول آخر سنة خمسين وستمائة وألف (1060/1650)، فحاصر مرسى العدوتين وضيَّق عليها، وصادف هذا الحصار اضطرابات سياسية داخلية، وانتهى بعقد صلح مع هولاندا بتاريخ تاسع يبراير سنة احدى وخمسين وستمائة وألف (9 يبراير 1651/ربيع الأول 1061)، ولم يكن لهذا الصلح مفعول قوي، ولم يحترمه الفريقان.

وكان القراصنة الجزائريون والتونسيون والطرابلسيون يأتون بالغنائم والأسرى الهولانديين، فيبيعونهم بالأسواق السلاوية الرباطية.

وزيادة على ذلك، فإنَّ عدداً من السفن الرافعة للراية الهولاندية هاجمتها سفن القرصنة السلاوية الرباطية سنة أربع وخمسين وستمائة وألف (1065/1654)، وأرغمتها على الاستسلام إلى الأسر، وقادتها إلى نهر أبي رقراق.

فاستاءت هولاندا من هذه المعاملة، وأخرجت طرفاً من أسطولها لحماية سفنها التجارية الماخرة في البحر الأبيض المتوسط والذّاهبة في المحيط إلى الشواطئ الإصبانية البرتقالية، فهاجمت سفناً سلاوية رباطية في المحيط، وأسرت ثلاثاً منها، فكان ردُّ الفعل في سلا والرباط أنْ أمر أولو الأمر بهما بالقبض على قنصل هولاندا وسجنه، وسجنوا أيضاً قبطان وبحّارة بعض السُّفن الهولاندية التي وجدها الحال بالمرسى.

فوجَّهت حينئذ هولاندا في الحادي والعشرين من يونيو سنة خمس وخمسين وستمائة وألف (21 يونيو 1655/رمضان 1065) إلى سلا بعض أسطولها، وأمرت رئيسه بالمخابرة مع والي القصبة أبي مُحمَّد عبد الله الدلائي في إطلاق سراح الأسرى، وردِّ السُّفن المحجوزة وإلاَّ فعل كل ما يقدر على فعله من الأذى.

وكان وصول هذا الأسطول إلى المرسى في فاتح شهر أكتوبر من السنة (أكتوبر 1655/ ذو الحجة 1065)، وافتتح المذاكرة مع الحكومة بالقصبة، وطالت المذاكرة عدَّة أسابيع، ونتج عنها وضع أسس لعقد معاهدة جديدة بين الطرفين، وفوّضت الحكومة الهولاندية لأحد قناصلها المسمى دوفري (De Vrie) في الاتِّفاق مع والي القصبة الدِّلائي المذكور على تفاصيلها، فاشترط الوالي قبل الموافقة عليها، أنْ تتعهَّد هولاندا بالإذن في شراء ألف ليفر من البارود للمدافع للدفاع عن القصبة لا غير، ولا تستعمله الأساطيل في القرصنة البحرية، وعلى هذا المبدإ تمَّ العمل.

– وأما إنجلترا، فإنَّها منذ الحوادث السَّابقة معها، كانت مُمسكة عن كلِّ ما فيه تهييج للقرصنة السلاوية الرباطية، وكانت تجارتها رابحة بالعدوتين بغاية التحفُّظ، ومع ذلك، فإنَّ القراصنة كانوا لا يحترمون سفنها، ويتعرَّضون في كل مناسبة لها.

وبسبب ذلك كان عدد الأسرى الإنجليز يتزايد في العدوتين السلاوية والرباطية كل سنة.

فاضطرت إلى إجراء مخابرة مع الرئيس الدلائي، واتَّفقت معه على أداء قدر معلوم من الضرائب، وتذاكرت معه أيضاً على تجارتها وسلَعها وعلى ثمن فداء الأسرى، وكل أسير يُقدَّر ثمنه بحسب شخصيته وسنِّه، وكونه ذكراً أوْ أُنثى.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة وألف (1064/1653)، تمَّ الاتِّفاق على تعيين القدر الواجب من فداء كل أسير.

فعُيِّن لكل بحَّار أو تلميذ بحري ثلاثون إبرة إنجليزية، وستون إبرة لكلِّ ضابط بحري، ومطلق الضبَّاط يُتَّفق على قدر فدائهم.

وفي ذلك التاريخ أُطلق سراح عشرة من الإِنجليز وجب في فدائهم خمسمائة وثمانون إبرة إنجليزية.

واستاء عامَّة الإنجليز من هذا، واقترحوا توجيه أسطول لمرسى العدوتين يطالب بتسليم باقي الأسرى حالاً.

فتوجَّهت قطع منه، وحاصرت المرسى، وبعد مدة طويلة تجاوزت الشهر، تم عقد الصلح مع الرئيس الدلائي، وسلّم لهم بعض الأسرى، وذلك سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (1068/1657).

وفي هذه السنة، يعني سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (1068/1657)، رجع الأسطول الهولاندي إلى مرسى العدوتين لتوطيد دعائم الصلح واحترامه، فتمَّ ذلك. ولكنَّ الرئيس عبد الله الدلائي ماطل في المصادقة عليه، وبعد الأخذ والردِّ صادق عليه في عاشر غشت سنة ثمان وخمسين وستمائة وألف (1069/1658).

## حادثة سفينة الرئيس أحمد القرطبي.

وبعد هذا الصلح، وقعت حادثة بين السلاويين والرباطيين والهولانديين، وهي أنَّ الرئيس أحمد القرطبي كان ملجَّجاً في سفينته المسمَّاة : «الشمس» ذاهباً إلى قادس في مهمَّة رسمية، ومعه ورقة التسليم من قنصل هولاندا بالرباط، طبق شروط الصُّلح المتَّفق عليه أخيراً، فلقيه القبطان البحري لوبيك (Lubek) الهولاندي في سَفِينَتِه فأوقفه، وبعد الاطِّلاع على أوراقه وعلى تسليم قنصله، لم يعتبر ذلك، وأمر بحجز سفينته ونهبها وإحراقها، وقتل بعض بحَّارتها، وأسر الرئيس أحمد القرطبي وباقي بحَّارته...

فأحدثت هذه القضية ضجَّة عظيمة في المغرب عموماً، وفي العدوتين سلا ورباط الفتح خصوصاً، وبهولاندا كذلك.

وحيث إنَّ الحكومة الهولاندية كانت قريبة عهد بعقد الصلح، وتريد المحافظة عليه، فقد سعت في ترضية الحكومة السلاوية الرباطية، وأمرت بالقبض علي القبطان المُعتدي، وحاكمته على فعلته الشَّنْعاء، وحكم عليه بأداء تعويض للرئيس أحمد القرطبي قدره تسعة آلاف وخمسمائة فلوران (Florins) [35].

وزيادة على ذلك، عوَّضت السفينة المحرقة بسفينة أخرى مثلها في جرمها ومحمولها، ووجَّهتها إلى العدوتين، فبيعت بمرسى أبي رقراق باسم الرئيس المذكور.

وبعد هذه القضية كفَّ الهولانديون عن مهاجمة الأسطول السلاوي الرباطي عملاً بالمعاهدات المعقودة بين الطرفين، ووقوفاً عند حدودها، وأنَّها حتَّى لوْ كانت محْلولة، فهي موجودة، غير مفقودة، ويمكن الرجوع إليها، وبمقتضاها لا يتعدَّى أحد حدوده، ودام ذلك مدة عشر سنين.

---

35) الفلوران (Le Florin) قطعة نقدية هولاندية، كانت ذهبية قديماً، وأصبحت اليوم فِضِّية. وهي مقسَّمة إلى 100 سانت (Cents).

وكـان الأسطول الـسـلاوي الرباطي يخـوض البـحـر طوَالَ هـذه المُـدَّة في أمن وأمـان، وسلامة واطمئنان، وازدادت مداخيل الدِّيوانة زيادة مهمَّة، وظهر أثرها على الناس، وتظاهروا بمظهر الغنى والتَّرف.

لولا أنَّه بعد هذه المدَّة تجدَّدت الفتنة، وكشف الأندلسيون القناع في عداوة الدلائيين، وعـادت هَيْفٌ إلى أديانهـا، فـضَـعُفَت سلطة عبد الله الدلائي، وكَثُرت الدسـائس، وتشـوَّف الأندلسيون إلى الاستقلال بشؤونهم مرة أخرى.

وقد عاشت القرصنة السـلاوية الرباطية مستقلَّة مدَّة حُكم الأندلسيين المهاجرين من الحورناشيروس والموريسكوس والدلائيين بالقصبة ومدينة رباط الفتح إلى أنْ استولى المولى الرشيد على العدوتين، ودخلت تحت طاعته وحكمه، فقضى على الدلائيين وغيرهم من الثوار المادّين أعناقهم للملك، والمتشوِّفين إليه، وصارت الأساطيل حكومية، والقرصنة حكومية، ودخلت في طور جديد، وكان ما سنذكره بعد هذا بحول الله.

# المبحث الثاني

# نظم شيوخ الملحون قصائدهم في الإشادة بالأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته

لمَّا بلغ الأسطول المغربي السلاوي الرباطي وقرصنته في هذا العهد - عهد تجرُّد الأندلسيين وما انضمَّ إليهم من المغاربة لأخذ الثأر من العدو - هذا المبلغ من الظهور والقوة والبأس والشُّهْرة إلى أنْ ظهرت الدولة الشريفة العلوية لعالم الوجود، وكان لها في هذا الميدان المقام الأعلى، والقِدْحُ المُعلَّى، كما سياتي بيانه وتفصيله، وإيضاحه وتحصيله، صارت القرصنة حديث المجالس، ورواية كل أنيس مُجالس، فلا يتحدَّث إلاَّ بها وعنها، ولا يخبر إلاَّ بنوادرها، وأخبارها، ولا يفتخر إلاَّ بأعمالها، وعظيم انتصاراتها التي حيرت العدو وأذهلته، وأدخلت الخوف والرعب عليه، وهو في عقر داره وبلاده، وبين ذويه وأهله وأولاده.

ونظم فيها حتَّى شيوخ الملحون القصائد البارعة الرائقة الرائعة في هذا الفن الشائع الذائع بين جميع طبقات الناس، فكانت تُنشد في كلِّ مجمع ودار، وتُشنِّف الأسماع بألحانها المشفوعة بالطار والتعريجة والمِزْمار، في الحفلات العامَّة، والأندية الخاصَّة، المُخلَّلة بالألحان والأناشيد، حول أواني الأشربة والموائد.

ومن ذلك : قصيدة القرصان للشيخ ابن سليمان.

## التعريف بالشيخ ابن سليمان.

هو أبو عبد الله، مُحمَّد بن سليمان، من أهل فاس. وكان من كبراء الملحون بها، وكلامه محفوظ متداول بين الناس. عاصر الشيخ ابن علي، وهو أصغر منه سنّاً، وكانت بينهما منافسة كبيرة، لأنَّه تلمّذ له في أول أمره، كما كان ابن علي تلميذاً للشيخ النجّار. وكان حيّاً

بعد الثلاثين من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). ولم يُعَمِّرْ ابن سليمان طويلاً، إذ يُقال إنَّه تُوفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة في القرن العاشر الهجري، ولو طال به الزَّمان لفاق من سبقه، رحمه اللَّه.

ومن أشهر قصائده : «الرَّعْد»، و«الباقي»، و«التَّوْبة»، و«الحافي»، و«الحجَّام»، و«الطبيب»، و«المقياس،» و«المقياس،» وهو السِّوار، و«عطُّوش»، و«الغزال» و«القلب» و«الوردة»، و«الياقوتة» و«القرصان»، وغير ذلك.

## قصيدة القرصان

هَزْنِي رِيحْ لَهْوَ الْمَحْبُوب هَزَّتْ اعْلاَمْ مْبَهَّجْ

طَلْقُوا مَنْ ضَمْنَتْ نَسَّاجُو زَيُّ الْحَرْجَا

لَوْ جَانِي فِي صِيفَتْ نَارْ لَصْفَقْ تَلْهَلَجْ

كُلْ لَرْكَانْ سْبَقْ بَسْرَاجُو حْرَقْ المُهْجَا

أوْ جَانِي فِي صِيفَتْ مِيرْ رَاكَبْ لَجْوَادْ مْسَرَّجْ

يَدْرَسْ قَلْبِي دَرْسَا تَسْرَاجُو بَاقِي نَرْجَا

بَعْدَهَا جَانِي فَبْحرْ لَغْرَامْ قُرْصَانْ مْبَوَّجْ

رَيِّسْ وْشَا لاَيَنْ امَّاجُو فُوقَ المُهْجَا

كُلْ رَايَسْ عَسَّاسْ أحْرِيصْ مْلْقَاهْ امْزَهَّجْ

جَابْ لَغْنَايَمْ مَرْكَبْ عَاجُو قْلاَعْ الفُرْجَا

قسم 1 هَكْذَا قُلْ لَلدَّاعِي يْدِرْ قُرْصَانُو يَخْرُجْ

كِيفْ مَنْ سَافَرْ بِينْ لَمَّاجْ وَغْنَمْ فُرْجَا

مَرْكْبِي دَايَرْ بِهْ قْلاَفْطِي وْرَافَدْ مَا يَحْتَاجْ

كُلْ عِيبْ يَصْلَحُو بْلاَجُو ضَدْ الْمُهْجَا

لبِيسْطَا عَنْ ظْهَرْ الكُوبِيرْطَا لْبَحْرِيَّ تَدْرَجْ

كُلْ بَحْرِي عَارَفْ مَنْهَا جُوْ مْحَضَّرْ لَهْجَا

نَاصَبْ المِيزَانْ وَالطَّرَانْكِيطْ وَلَمْسَطْرَمَجْ

وَالدْمَانْ يَهَدَّنْ تَهْيَاجُو هَوْلَ الْخَلْجَا

طَالَقْ لَمْطِربُو وَالْغَبْيَ وَلَشْكُوطَا تَرْتَجْ

الْبُوصلَى تَسْبِي مَنْ تَعْوَاجُو مَا لُو حُجًّا

وَارَدْيَانْ وَابْلُوطْ يْكَانْجِي عْلَى الْمُوجْ مْفَجَّجْ

وَنَقْرَا لَلْبَحَرْ أدْرَاجُو خُذْ اتْهَجًّا

هَكْذَا قُلْ لَلدَّاعِي يْدِرْ قُرْصَانُو يَخْرَجْ قسم 2

كِيفْ مَنْ سَافَرْ بِينْ لَمَّاجْ وَغْنَمْ فُرْجَا

هَزَّنِي مَنْ هَذَا الْحَالاَ رَافَدْ النَّارْ امْبَوَّجْ

سَاعدُو بَمْهَدَّنْ حَمْلَجُ هَوْلُ الْخَرْجَا

بَرْكْضِي وَزْبَرْجَدْ وَرْمَادِي يَكْسِي لَوْلَجْ

وْلَبْجَدْ وَعَسْجَدْ فْتَاجُو نَايَرْ وَهْجَا

وَتْبَرْ وَالجُمَانْ وَبَرْهْمَنْ وَالْيَقُوتْ اخْرَجْ

زَادْ لِي مَنْ خَسْرُو وَدْبَاجُو صَافِي نَهْجَا

دُونْ يَمَانِي وَدِيمَانْطْ بْنَارُ يَتْلَهْلَجْ

جَابَدْ القُرْصَانْ مَنْ أفْوَاجُو لِيهْ تْرَجًّا

جَابْ جَهْدَ لَّي مَا يَرْفَدْ مْرَكْبِي المَوْسُوقْ تَخَوَّجْ

تَحْتْ رِيحُو فَلْجَاجُو مَالُو حُجًّا

هَكَذَا قُلْ لَلدَّاعِي يْدَرْ قُرْصَانُو يَخْرُجْ قسم 3

كِيفْ مَنْ سَافَرْ بِيْنَ الْمَّاجْ وَغْنَمْ فُرْجَا
رَايَسْ وْقَارِي عِلْمَ الْكَارْطَا وَعقْلِي مَا يَفْلَجْ
كُلْ حَرْبْ امْيَقَّظْ فَمْزَاجُو نَيَرْ وَهْجَا
وَيَنْ مَا شَافْ مْرَاكَبْ صَايْقَةْ لَلنَّفَاضْ يَخْرَّجْ
طُبْجِي فَحْسَابْ اللِّي رَاجُو عِينْ صَنْجَا
رَافدْ العَسْكَرْ مَنْ حدَا الزْرَايَبْ رِيحُو نَسْمَجْ
بَلْشْوَاقْ الزَّايَدْ تُوَدَّجُو وَالطُّوبْ بْجَا
جَالْ ثَلْثَ سْنِينْ فبْحَرْ لَهْوَا تَغْنَيَمْ وَتَفْجَّجْ
صَابْ لِيهْ التُّجَّارْ احْتَاجُو تَاكْ فْطَهْجَا
قَامَتْ أَهْلُ الْمَرْسَى لِيلَى وْيُومْ غَنِي وَمْحَوَّجْ
يَاكْ يَكْمَلْ بَدْرُو فَحْرَاجُو مَدَّ الْفُرْجَا
قسم 4 هَكْذَا قُلْ لَلدَّاعِي يدْرِ قُرْصَانُو يَخْرَجْ
كِيفْ مَنْ سَافَرْ بِينَ لَمَّاجْ وَغْنَمْ فُرْجَا
وْلَى يَعْرَضْ شِي بَرِّي مَنْ جْهَلْ بَحْمَارْ اعْرَجْ
فَلْفْيَافِي صَادَفْ تَهْيَاجُو مَا لِيهْ نْجَا
كُلْ مْفَرَّطْ وْطَاحْ فِي الصَّدّْ مْزَدَّجْ
ضَاقْ سَمُّ وَعْدَمْ فَعْلاَجُو حَنْش الْمَرْجَا
لاَشْ يَحْكِي يَاقُوتْ اغْنَايَمْ الْفَخَّارْ مْزَدَّجْ
فُوقْ حْجَرْ يَتْكَسَّرْ زَاجُو طَعْمُو رَهْجَا
دَارْ هَذَا الْقُرْصَانْ اجْلاَيْبِي وْحَرَّرْ مَنْسَجْ
كُلْ دَاعِي مَخْنُوعْ ارْتَاجُو قَوْلُو تَلْجَا

وَالسْلَامْ عْلَى مَنْ غُصْنُ بْرِيحْ لَهْوَا كَيْتْرَهْوَجْ

ابْن سلْيمَانْ صَفْا مَنْهَجْ يَا نْسِيمْ لَهْجَا

وِينْ مَا يَبْغِي يَوْقَفْ لَلْعَرْضْ يَلْعَبْ بِهْ الْبَنْجْ

هَكْذَا نَسْقِي لُومَنْ بَأزو خَمْرَ الحَدْجَا

ومن شيوخ الملحون الذين كان لهم اعتبار وشان، في هذا الميدان، واعتناء بوصف الأسطول المغربي السلاوي الرباطي، الشيخ عبد العزيز المغراوي.

## التعريف بالشيخ عبد العزيز المغراوي

أصله من أمغرا من صحراء تافيلالت.

وكان معدوداً من علماء وقته. وقيل إنَّه درس بجامع القرويين لمَّا رحل من بلاده متجوِّلاً بأهمِّ مُدُن المغرب الكبرى وعواصمه كفاس، وكان يسكن المدرسة المصباحية .

وفي هذه الرحلة دخل سلا ورباط الفتح في حدود سنة سبع وعشرين وألف (1618/1027)، حسب ما يوخذ ذلك من ديوانه في الملحون حيث يقول في ختام إحدى قصائده :

«وَالسْلَامْ نْعِيدْ بَخْتَامْ ذَا النّْشَادْ

عام شد وْدال وْجيم رَهْجُوَا»

وقد كان وصل قبل ذلك للمغرب عام عشرين وألف (1611/1020)، حيث يقول :

«عَامْ العَشْرِينْ بَعْدْ عَشْرَ مْيَا

حسْبَان الهَجْرَا فِي ارْبِيعْ ثَامَنْ الاسْعَادْ»

ولا ندري هل وصل إلى سلا والرباط في ذلك العهد أم لا.

وبالجملة فهو من أشهر شيوخ الملحون وأبرعهم وأحسنهم ترصيفاً وتنسيقاً.

ومن أحسن قصائده قصيدته المعنونة بـ «السلوانية»، وصف فيها سلا ورباط الفتح وشالة ومآثرها ونوَّه بالأسطول السلاوي الرباطي بأبي رقراق، ووصفه وصفاً كاشفاً دقيقاً، شخَّص فيه حالته التي كان عليها في ذلك العهد، والأفراح والنُّزه التي كانت تُقام بالوادي حوله.

## قصيدة السلوانية

أَمْبَدْعُوا امَنْ أَنْهَارْ اَلسَّلْوَانْ خَدْنَا عْلَى اَسْلاَ اَلْحَصِينْ
اَعْشِيَّة مَنْ انْهَارْ فِي حَسَّانْ عْلَى اَلْمْنَارْ اَلْحَصِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

اَمْبَدْعُوا مْنَ انْهَارْ قَدْ يُرْغَابْ خَدْنَا فِي سَاحَلْ اَسْلاَ
بِالْوَجْهْ سَكْرُوا لَقْلُوبْ دُونْ شْرَابْ مَنْ مَا حُسْنْ دَاكْ اَلْمْلاَ
كَا يَجْتَمَعُ كُلّ الَّيْثْ مَنْ اَلْحْبَابْ هُمْ أَهْلَ اَلْجُودَة وَالْعْلاَ

أَوَاهْ مَنْ لاَ اسْلاَ * اَوْفِي سَاحَلْ هَلْ اَسْلاَ * اَفْطُولْ اَلزْمَانْ لاَ اسْلاَ

قَبْلُو اعْلِينَا ابْحَالْ الاَخْوَانْ اَهْلَ اسْلاَ الْمَاجْدِينْ
اَهْلَ الثّْنَا وَالْفْضَلْ أُوالاَحْسَانْ مِنْ جُمْلَةْ اَلْمْسَالْمِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

خَضْنَا اَمْقَيْلْ امْعَهُمْ اوْفُرْجَة مَثْلُه اَقْلِيلاً إِيْكُونْ
تَرَى اَنْسُوقُوا بْسَاطْنَا لَرَّهْجَة تَرى اَنْجَدّْوا الْمُوزُون
تَرَى اَتْهِيمْ لَعْقُولْ فِي حَرْجَة مَنْ شُغْلْ تِلْكْ اَلسْفُونْ

وَحْنَا فِي حَالاً اَعْجِيبْ * امْنَ الصّْبَاحْ إِلَى اَلْمْغِيبْ * اَمْعَ كُلّْ مَنْ هُو اَلْبِيبْ

وَهْلَ اَلطْرُورْ وَالرّْبَابْ وَالْعِيدَانْ تَرْتِيوْا ابْصَوْتاً اَحْنِينْ
بَغْنَا إِيدُوَّبْ اَلْقْلُوبْ الصَّفْوَانْ مَا بَالَكْ اَلْهَا يْمِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

سَاحَلْ سْلاَ اَمْبَدْعُو لَلنَّظَّارْ يَزْهَا وْا اَبْرُونَقْ اَحْفِيلْ
اَنْظُرْ تِلْكْ اَلْعَشِي حِيناً تَصْفَارْ اَلشَّمْسْ وَقْتْ الأُصِيلْ
حَتَّى اتْقُولْ اَلْتْقَى اَلْمَا وَالنَّارْ وَالثَّلْجْ دَايَبْ أَفْنِيلْ

اَلشَّمْسْ عَنْد لَغْرُوبْ * تَكْسِي تَلْكْ السّْحُوبْ * مَثْلْ الدّْهَبْ حِينْ إِيْدُوبْ

اَتْرَى اَلشَّفَقْ بَعْدْهَا كَالنَّعْمَانْ    عُقْبْ اَلرّوَاحْ يَا سْتَّبِينْ
اتْرَى اَلنُّجُومْ كَاجْيُوشْ السُّلْطَانْ    وَالْبَدَرْ وَجْهاً اَحْسِينْ
وَالْفَجَرْ وَقْتاً إِيلُوحْ فُوقْ اَلْمَا    وَالشَّمْسْ تَنْشَرْ اعْلاَمْ
عْلَى مْنَازَهْ مْلُوكْ الْهَمَّا    وَرْسَامْهُمْ الْعْظَامْ
تَشْهَدْ لَرَّبْ اَلجْلِيلْ بَالْعُظْمَة    وَالْمُلْكْ طُولْ الدَّوَامْ

اسْفُونْ تَظْهَرْ جْبَالْ * مَنْ بَعْدْ كَانُّهُمْ جْمَالْ * امْبَرّكَه فَالرّمَالْ

وَصْوَارْ امْشَيْدِينْ اَلْبُنْيَانْ    اعْلَى اَلْبْلاَدْ دَايْرِينْ
سَاخُوا ابْطُولْ الزّْمَانْ مَا يُومَانْ    كِيفْ سَاخَتْ اَلْبَادْيِينْ

آشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ الَمْجَاهْدِينْ

انْهَارْنَا فِي سْلاَ كَانْ عْرُوسْ    وَالْيُومْ صَرْفْ اَلزّْمَانْ
عْلِيهْ سَلاَتْ لَقْلُوبْ أُولَنْفُوسْ    اَلَوْ رِيتْنَا يَا فْلاَنْ
وَحْنَا كَانْخُوضُو الْجُوجْ اَلْقَامُوسْ    لَيْسْ اَلخْبَارْ كَالْعْيَانْ

سَرْنَا فِي قَرَبْ اَزْهُوجْ * فَهْوَالْ غُسْقْ اَللّجُوجْ * وَمْقَادَفْ بِينَا ازْعُوجْ

ثُمَّ اوْجَدْنَا رَبْعَة مَنْ اَلجْفَانْ    اَتْجَارَتْ اَلْكَافْرِينْ
امْعَهُمْ اَصنَادلْ اصْغَارْ كَالْفُصْلاَنْ    بِينْ اَلنّيَاقْ رَاضْعِينْ

آشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ الَمْجَاهْدِينْ

تَمْ اَوْجَدْنَا رَبْعَة امْنَ الْجَلْسَانْ    مَنْ كَافْرِينْ التّجَارْ
خَدْنَا اَمْعَهُمْ اَمْقِيلْ وَالْفُرْجَانْ    مَنْ حَرّ وْغَرّ اَلنّهَارْ
نَتْأَمَّلْ فِي شُغْلْ اَلرِّيْسَانْ    وَحْرَاكْهُمْ اَلصّغَارْ

اتْرَى اَنْشَاهْدُوا بَالْعْيُونْ * فَالصَّارِي وَالأَرْضْ مُونْ * وَحْرَاكْهُمْ وَالسّكُونْ

تَرَى اَنْحُوفُوا اَلْحَالْ اَلْعَوْمَانْ    اَكْمَا اَلسَّمَاكْ غَاطْسِينْ
صُبْيَاناً اَصْغَارْ كَابْدُورْ اَلْغَزْلاَنْ    مَا بِينْنَا لاَعْبِينْ

آشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ الَمْجَاهْدِينْ

لَمَّا الْتَاحْ النّهَارْ وَقْلَعْنَا    لَمْقَامْنَا اَلْمُنْشِي

اَلْمُومْنِينْ زَرْنَا اَمْنَايَنْ اَطْلَعْنَا    أُوجَدَّدْنَا فَالْمْشِي
لَرْجَالْ شَالَّة اَكْدَاكْ اقْصَدْنَا    جِينَا فِي أَوَّلْ اَلْعْشِي
مَهْمَا اْدخَلْتْ لَلْقْصَرْ * وَنَا اَنْجَدَّدْ اَلنَّظَرْ * إِلاَّ اَوْدَمْعِي اَهْمَرْ
لَمَّا اَقْرِيتْ اَلسّْطُورْ كَالْعُنْوَانْ    عْلَى اَلْقْبُورْ شَاهْدِينْ
هَدَا فْلاَنْ بَنْ افْلاَنْ دَاكْ افْلاَنْ    امْنَ اَلْمْلُوكْ اَلأَوْلِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

وَلْسَانْ اَلْحَالْ قَدْ قْضَاوْا فِي حُضْرَا    قَايَلْ فِي قُولْه إِيْقُولْ
كُنَّا اَجْوَادْ اَلْمْلُوكْ يَا حُضْرَا    بِنَا تُضْرَابْ اَلْمْثُولْ
وَالْيُومْ تَحْتْ اَلتّْرَابْ وَالْغُبْرَا    مَنْ بَعْدْ جَرّْ اَلدّْيُولْ
بَعْدْ اَلجْيُوشْ أُو لَقْصُورْ * وَجْوَارْ اَمْثِيلْ اَلْبْدُورْ * صَرْنَا اَرْشَاتْ فَالْقْبُورْ
مَادَايَمْ سِوَى اَلْكْرِيمْ اَلْمَنَّانْ    رَبّْ لَعْبَادْ اَجْمَعِينْ
وَالْغَيْرْ اَلْكُلّْ لَلْفْنَى يَا لاَ خْوَانْ    هَدَا هُوَّ اَصْحِيحْ اَلْيَاقِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

فَلَمَّا اَسْمَعْتْ اَلجْوَابْ بَالنِّيَّة    اَوْشَقْلِي اَلْفُؤَادْ كَالْحْسَامْ
إِلاَّ وْدَمْعَتْ اَلْعْيُونْ مَجْرِيَّة    أَوْ نَحْكِي اَلْغَيْثْ اَلْغْمَامْ
عَايْشْ اَلْحَيَاةْ فَالدّْنْيَة    صَارَتْ فِي عَيْنِي أَظْلاَمْ
دَغْيَ ارْجَعْنَا اَنْحَاطْ * نَنْظْرُوا اَلْتَلْكْ اَلشّْطَاطْ * حَتَّى ابْلَغْنَا اَلرّْبَاطْ
بَتْنَا وَدْمُوعْ الاَعْيُونْ كَالطُّوفَانْ    عْلَى اَلْخْدُودْ سَاكْبِينْ
نَادَمْ عْلَى حَالْتِي فَالْعَصْيَانْ    تَايَبْ امْنَ اَلتَّايْبِينْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْجَاهْدِينْ

لَمَّا ازْيَانْ اَلنّْهَارْ وَادِّينَا    فَرْضْ الصّْلاَة بَالْخْشُوعْ
اُوفَالْحِينْ بَعْدْ لَلْمْقَامْ وَلِّينَا    بَعْدْ لَوْدَاعْ لَلَرْجُوعْ
فَمْقَامْ نَعْمْ اَلرّْجَالْ اَدْعِينَا    فَجْوَارْ بُرْجْ اَلدّْمُوعْ
اَبْحُرْمَتْ اَلأَنْبِيَّا * وَكْرَامَتْ اَلأَوْلِيَا * اَمْوَاتْهُمْ وَالأَحْيَا

اَسْــأَلْنَا اَللَّهْ اَلْجْلِيلْ اَلْغُــفْــرَانْ    يَغْــفَــرْ أَخْطَا اَلْمُــدْنْبِــيـنْ
وِيْعَــمْنَا بَالْفْــضَلْ وَالإِحْــسَــانْ    أُوِيـرْتَـحَمْ اَلْمُـــسْلِمِـــيـنْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سَلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْــجَــاهْدِينْ

أَوْخُــودْ النْظَامْ كَــالدُّرْ الضَّــاوِي    وَعْــرَضْ عَــقْــدُه اَتْمِــيــزْ
مَنْ شُــغْلْ مَـاهَرْ الْعْقَلْ سَمْسَاوِي    مَنْ شُــغْلُه مَــاهَرْ اَلْحْــفِــيــزْ
شَــاهَرْ اَكْــرِيمْ اَلنَّسَبْ مَـغْـرَاوِي    اَلْحَـــاجْ عَــبْـــدْ اَلْعْــزِيزْ
نَظْمِي جُمَّانْ فِي سْلُوكْ * أَوْ اَلنُّجُـــومْ فِي حْلُوكْ * أَوْ بُرْهْمَـــانْ اَلْمْلُوكْ
خُــودْ اَلنْظَامْ كَــالدُّرْ وَالْعُــقْــيَــانْ    وَعْـــرَضْ عْلَى اَلْجَــاهْلِينْ
مَنْ شْـغُلْ مَـاهَرْ اَعْـقِيلْ اَلْفُرْسَانْ    وَارْحَــمْ عْــلَـى اَلْــوَالْــدِيــنْ

اَشْ رَا مَنْ لاَ زْهَى فِي وْطَانْ سَلْوَانْ    اَمْعَ اَلْكْرَامْ اَلْمْــجَــاهْدِينْ

انتهت القصيدة المباركة بحمد الله وعونه

وقد حوَّل هذه القصيدة الملحونة أبو عبد الله مُحمَّد بن علي الدكالي السلاوي إلى رجز جامع مانع، حافظ فيه على كل ما جاء فيها. وهو الذي سنثبته هنا، قال :

## أرجوزة القصيدة «السلوانية»

هَـذَا نِـظَـامٌ نَّـابَ عَنْ مَـلْحُــــونِ    لِكَوْنِهِ فِي طَبَـــقَـــاتِ الدُّونِ
وَقَـــدْ تَحَـــامَى الأُدَبَاءُ نَقْلَهُ    بِكُتْبِــهِمْ وَلَمْ يَرَوْا تَدْوِينَهُ
وَكَــوْنُهُ لَحْناً أَخَـا غَــرَابَةْ    لَمْ نَتْـرُكِ الْقَيْـدَ وَالاِسْـتِطَابَةْ
لِذَاكَ قَــالَ النَّاظِمُ السَّــلاَوِي    نَقْـلاً عَنِ الْحُـلاَحِلِ الْمَـغْـرَاوِي
أَمَّــا سَـلاَ فَـالْبَلْدَةُ الْحَصِينَةْ    أَسْـوَارُهَا عَظِيمَـةٌ مَتِينَةْ
وَتُشْبِهُ سُورَ الصِينِ فِي الضَّخَامَةْ    قَدْ شُيِّدَتْ قِدَماً عَلَى اسْتِقَامَةْ
ثُمَّ اسْـتَدَارَتْ بِالدِّيَارِ وَالرُّبُوعْ    وَطَالَ عَهْدُهَا فَمَالَتْ لِلرُّكُوعْ[36]
أَخْنَى عَلَيْـهَا الدَّهْرُ وَالزَّمَـانُ    فَسَاخَ مِنْهَا الأُسُّ وَالأَرْكَانُ

36) تهدم أسوار سلا بعد الألف للهجرة

وَأَصْبَحَتْ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةْ ... وَالدَّهْرُ لا يَنْسَى بِطُولِ غَدْرَةْ
أَدْرَكْنَا فِيهَا السُّلْوَ وَالأَفْرَاحَا ... وَغَنِمَتْ أَنْفُسُنَا انْشِرَاحَا[37]
لِلَّهِ مِنْ يَوْمٍ وَمَا أَبْدَعَهُ ... كَأَنَّمَا السُّرُورُ خَصَّ رَبْعَهُ
مَا أَبْدَعَ العَشِيَّةَ الثَّمِينَةْ ... فَوْقَ المَنَارِ الفَرْدِ ذِي السَّكِينَةْ
مَنَارِ حَسَّانَ أَخِي الْحَصَانَةْ ... وَالْمَثَلِ الشَّهِيرِ فِي الْمَتَانَةْ
لِلَّهِ مِنْ مَرْأًى جَمِيلٍ حَسَنِ ... يَفْعَلُ فِي النَّفْسِ كَرَاحٍ مُزْمِنِ
لَكِنَّ سُكْرَ ذَلِكَ المَرْآى العَجِيبْ ... يُنْسِيكَ سُكْرَ الرَّاحِ، ذَا الأَمْرُ الغَرِيبْ
مَقَرُّ أَجْوَادٍ وَمَجْمَعُ عُلاَ ... وَمَحْشَرُ اللُّيُوثِ مِنْ كُلِّ مَلاَ
أَهْلُ مَحَبَّةٍ فَأَوَّاهِ عَلَى ... مَنْ لاَ سَلاَ بِرَبْعِهِمْ كَيْفَ سَلاَ
ذَلِكَ سَاحِلٌ عَلَيْهِ رَوْنَقُ ... وَأَهْلُهُ عَلَى قِرَانَا اتَّفَقُوا
وَأَقْبَلُوا إِقْبَالَ إِخْوَانٍ حِسَانْ ... أَمَاجِدٌ أَهْلٌ لِفَضْلٍ وَامْتِنَانْ
فَأَحْسَنُوا وَاسْتَوْجَبُوا الثَّنَاءَ ... وَمِنْ جَمِيلِ الذِّكْرِ زِدْ جَزَاءَ
غَنِمْنَا فُرْجَةً وَقُلْنَا يَوْمَا ... قَلَّ نَظِيرُهُ لَوْ كَانَ دَوْمَا
مَا بَيْنَ إِنْشَادِ قَصِيدٍ وَمَدِيحْ ... وَزَجَلٍ تَوْشِيحٍ لِهَمِّنَا مُرِيحْ[38]
وَرَجْعِ نَغَمَاتٍ بِعُودٍ وَرَبَابْ ... وَدَسٍّ أَوْتَارٍ بِأَصْوَاتٍ صِحَابْ
وَنَقْرِ طَنْجَاتٍ وَطَارٍ بِيَدِ ... وَرَدِّ صَوْتٍ فَاقَ لَحْنَ مَعْبَدِ
يَذُوبُ مِنْ رِقَّتِهِ الصَّفْوَانُ ... وَلاَ يَطِيقُ حَمْلَهُ الإِنْسَانُ
وَوُجِّهَ الطَّرْفُ لِمَتْنِ الْبَحْرِ ... حَيْثُ تَرَى السُّفْنُ عَلَيْهِ تَجْرِي[39]
كَأَنَّهَا الأَعْلاَمُ مُنْشَآتُ ... رَاسِيَةٌ أَدْرَكَهَا الثَّبَاتُ
وَنَحْنُ فَوْقَ المَتْنِ مِنْ بَدْءِ الْغُدُوْ ... إِلَى الأَصِيلِ وَلَنَا بَدَا سُلُوْ
مَعَ أَلِبَّاءِ سَلاَ الأَكْيَاسِ ... أَهْلِ الزَّكَا وَالْحِذْقِ بَيْنَ النَّاسِ
لِلَّهِ سَاحِلٌ وَمَا أَبْدَعَهُ ... يَزْهُو بِرَوْنَقٍ يَزِينُ رَبْعَهُ

---

37) السلو والانشراح بسلا طبيعي (قالها الناظم).
38) كانت الموسيقى والطرب معروفة في ذلك العهد بسلا، ولعلّها ممّا جلبه الأندلسيون. (قاله الناظم).
39) وصف الأسطول السلاوي الرباطي الراسي بأبي رقراق. (قاله الناظم).

لاَ سِيَمَا عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ     وَالاسْفِرَارُ فِي عَجِيبِ اللُّبْسِ
فَعِنْدَ ذَاكَ اسْتَعْمِلِ التَّشْبِيهَا     وَحَكِّمِ الفِكْرَ وَكُنْ نَبِيهَا
يَحْكِي اسْفِرَارُ الشَّمْسِ فَوْقَ الْمَاءِ     نَاراً تَوَقَّدَتْ عَلَى نَمَاءِ
وَقَدْ يُقَالُ ذَهَبُ الأَصِيلِ     عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ يَا خَلِيلِي
أَوْ بَرَدٌ ذَابَ بِمَتْنِ النِّيلِ     أَوْ وَجْنَةُ الْمُحِبِّ فِي التَّقْبِيلِ
أَمَّا احْمِرَارُ الشَّفَقِ الشَّهِيرِ     بَعْدَ غِيَابِ الشَّمْسِ فِي التَّمْثِيلِ
فَمِثْلُهُ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ     وَكَالنُّجُومِ عَسْكَرُ السُّلْطَانِ
وَإِنْ يَلُحْ فَجْرٌ عَلَى ذَا الْبَحْرِ     فَتِلْكَ أَثْوَابُ نَسِيجِ التِّبْرِ
وَلَوْ رَأَيْتَ الشَّمْسَ فِي الإِشْرَاقِ     عَلَى قُصُورِ الْمُلْكِ كَالإِبْرَاقِ(40)
لَسَرَّكَ الْمَنْظَرُ لِلْمَنَازِهِ     ذَاتِ الشُّمُوخِ وَالْعُلاَ الْمُنَوَّهِ
وَدَلَّكَ الشَّكْلُ عَلَى الإِعْظَامِ     وَالشُّكْرُ دَائِماً لِذِي الإِنْعَامِ
وَلَوْ تَرَى السُّفْنَ عَلَى لُجِّ الْبِحَارِ     فَقُلْ جِبَالٌ أَوْ جِمَالٌ فِي قِفَارِ(41)
فَكَانَ يَوْمُنَا كَعُرْسٍ بِسَلاَ     وَسَاعَدَ الدَّهْرُ بِصَفْوٍ وَوَلاَ
وَسُرَّتِ الْقُلُوبُ وَالأَرْوَاحُ     وَقَدْ سَلاَ الْخَاطِرُ وَالأَشْبَاحُ
وَلَوْ رَأَيْتَ خَوْضَنَا لُجَّ الْبِحَارْ     فِي قَارِبٍ يُسْرِعُ فِي خَوْضِ الغِمَارِ
وَأُعْمِلَتْ مَجَادِفٌ فِي الْمَاءِ     كَأَنَّنَا نَطِيرُ فِي السَّمَاءِ
حَتَّى قَصَدْنَا مِنْ مَرَاكِبِ الْعَدُو     أَرْبَعَةَ الأَجْفَانِ حَلَّتْ بِهُدُو(42)
مَلأَهَا صَنَادِيدٌ صِغَارُ     كَأَنَّهُمْ أَبْكَارُ عِيسٍ ثَارُوا
وَقَدْ رَأَيْنَا مَعَهُمْ تُجَّارَا     أَرْبَعَةً بِعَقْلِهِمْ يُجَارَى
فَقُلْنَا مَعْهُمْ وَحَرُّ الْهَاجِرَةْ     مُلْفَعٌ مِنَّا الْوُجُوهَ الْمُسْفِرَةْ

---

40) منارة الملوك وقصورهم بالقصبة، لم تزل ظاهرة معروفة إلى زمن المغراوي سنة 1618/1028. (قاله الناظم).

41) الأسطول السلاوي الرباطي في عهد المغراوي سنة 1618/1028. (قاله الناظم)

42) تجارة الأجانب مع سلا والرباط بعد الألف ؛ وليس إلاّ الفلامنك، حسبما يؤخذ من وصف ذواتهم بالنعومة والحضارة ورجاحة العقل. (قاله الناظم).

فَكَانَ عِنْدَنَا نَشَاطٌ أَكْمَلُ ... وَبِالْحَدِيثِ مَيِّزُوا هَلْ يَعْقِلُوا
وَفِي رِئَاسَةٍ لِّبَحْرٍ عَبَرُ ... تَنَزَّهَتْ مِنَّا بِشُغْلٍ فِكَرُ
فَتَارَةً يُثِيرُونَ الأَلْعَابَا ... وَفِي السِّبَاحَةِ نَرَى الصَّوَابَا
كَأَنَّهُمْ حُوتٌ بِبَحْرٍ يَسْبَحُ ... وَمَعَهُمْ أَبْنَاءُ حُسْنٍ يَرْجَحُ
مِثْلُ بُدُورِالتَّمِّ يَلْعَبُونَ ... وَيُكْثِرُوا اللَّهْوَ وَيُنْشِدُونَ
وَحِينَ أَقْبَلَ الْعَشِيُّ نَزَلُوا ... حَيْثُ الْقِبَابُ الْمُنْشَآتُ وَصَلُوا
مَقَابِرَ الْمُلُوكِ وَالصُّلاَّحِ ... وَأَكْمَلُوا اللَّيْلَ إِلَى الصَّبَاحِ
حَيْثُ تُرَى شَلَّةُ فِي الزَّوَايَا ... عَظِيمَةَ الْمِقْدَارِ وَالْمَزَايَا(43)
وَهْيَ الَّتِي دَعَاهَا بِالقَصْرِ الْمَشِيدْ ... حَوَى جَمَالاً لَّيْسَ عَنْهُ مِنْ مَزِيدْ
فَأَمْعَنُوا النَّظَرَ وَالدَّمْعُ انْسَكَبْ ... وَانْهَمَرَتْ أَعْيُنُهُمْ فَمَا كَتَبْ
مِنَ الْحُلَى وَالصِّفَةِ الْمَرْسُومَةْ ... وَالأَسْطُرِ الْمَجْلُوَةِ الْمَرْقُومَةْ
عَلَى مَقَابِرِ بَنِي مَرِينِ ... أَبْنَاءِ عَبْدِ الْحَقِّ مُحْيِ الدِّينِ(44)
مَنْ شَهِدَتْ بِفَضْلِهِمْ عُلاَهُمْ ... وَنَطَقَتْ بِعَدْلِهِمْ حُلاَهُمْ
لِسَانُ حَالِهِمْ وَهُمْ أَمْوَاتُ ... يَقُولُ لاَ يَغُرُّكُمُ الطُّغَاةُ(45)
كُنَّا كَأَطْوَادِ الْمُلُوكِ الْعُظَمَا ... بِمُلْكِنَا تُضْرَبُ مُثْلُ الْحُكَمَا
يَا حَسْرَتِي مَنْ جَرَّ ذَيْلَ التِّيهِ ... وَمِنْ فَخَارِ الْمَرْءِ مَا يُرْضِيهِ
هَا نَحْنُ تَحْتَ التُّرْبِ فِي انْطِرَاحِ ... مُعَفَّرِي الْخُدُودِ وَالصِّفَاحِ
وَفِي الثَّرَى مِنْ بَعْدِ جَيْشِنَا الْعَدِيدْ ... أَقَمْنَا وَالْقَصْرِ الْمُزَيَّنِ الْمَشِيدْ
أَمَّا جَوَارِينَا فَمِثْلُ الْبَدْرِ ... حُسْناً وَصِرْنَ عِبْرَةً فِي الْقَبْرِ
صِرْنَا رَمِيماً وَرُفَاةً وَبِلاَ ... وَذَاكَ أَوْضَحُ دَلِيلِكَ عَلَى
أَنَّ دَوَامَ الْمُلْكِ لِلْقَهَّارِ ... فَاتَّعِظُوا وَاعْتَبِرُوا مَزَارِي

---

43) كانت زاوية شالة في عهد المغراوي تدعى القصر، حسبما بالأصل الملحون (قاله الناظم)

44) لم تزل قُبُورُ بني مرين سالمة، وأضرحتهم قائمة البناء إلى عهد المغراوي، سنة 1618/1028، بدليل قوله : هذا فلان بن فلان، وذاك فلان بن فلان، من الملوك الأولين... (قاله الناظم).

45) الاعتبار بمشاهدة قبور بني مرين والعِبْرة بمآلهم، بعد فخارهم وشامخ مجدهم. (قاله الناظم).

وَلْتَنْدَمُــــوا فَـــإِنَّنَا نَدِمْنَا عَلَى الَّذِي سَلَفَ لَوْ عَلِمْنَا
وَأَرْسَلَتْ لَدَى الْقُبُــورِ الأَدْمُعُ وَكُــرِهَ العَــيْشُ وَجَلَّ الْجَــزَعُ
وَلَمْ نُقِمْ لِذِي الدُّنَيَّـــا وَلاَ عَــدَدْنَاهَا تُسَــاوِي شَــيَّـا
وَإِنَّمَا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ فَقَطْ مَنْ رَامَ صَفْوَهَا فَسِمُهُ بِالْغَلَطْ
وَعُــدْنَا بِالذِّكْــرَى إِلَى الرِّبَاطِ مَعَ اتِّعَـــاظٍ بَالِغِ الشَّطَاطِ
وَنَحْنُ نَرْمُقُ شُطُوطَ الْعُــدْوَتَيْنْ وَنَزِنُ الحُسْنَ بِقِسْطِ الْكِفَّتَينْ
وَانْهَمَــرَتْ لَدَى الرِّبَاطِ الأَدْمُعُ وَعَظُمَ انْحِـزْنُ بِنَا الْمُــرَوَّعُ
وَعَظُمَ المَنْدَمُ عَمَّـا سَلَفَا وَجُـدِّدَتْ تَوْبَتُنَا بِمَـا كَـفَـا
وَعِنْدَمَا انْبَلَجَ ضَوْءُ الصُّبْحِ وَأُدِّيَتْ فَـــرَائِضُ لِلنُّجْحِ
رَجَــعْنَا قَصْداً لِمَدِينَةِ سَلاَ نَزُورُ أَهْلَهَـــا وَنَدْعُــو بِالوَلاَ
لَدَى الضَّــرَائِحِ مُــوَدِّعِــينَا وَبِالدُّعَـــا بِرَبْعِــهِمْ عُنِينَا
فَـزُرْنَا زُمْرَةَ الرِّجَالِ الْعُظَمَا مُجَاوِرِي بُرْجَ الدُّمُوعِ اللُّذْ سَمَا(46)
هُنَاكَ مَدْفَنُ الْكِرَامِ الأَتْقِـيَـا وَالصَّالِحِينَ الأَكْرَمِينَ الأَصْفِيَا
وَمَـــا أَلَوْنَا مِنْ دُعَـــا يَعُمُّ وَلاَ تَرَكْنَا مَــقْــصَــداً يُؤَمُّ
إِلاَّ دَعَـوْنَا وَطَلَبْنَا الْمَـغْـفِـرَةْ مِنَ رَبِّنَا مُسْدِي الْجَمِيلَ مِنْ دَرَاهْ
شَبَّهْتُهَا بَالدُّرِّ وَالْعِقْيَانِ وَالسِّلْكِ قَـدْ نُظِّمَ بِالْجُمَـانِ
أَوْ أَشْبَهَتْ ضِيَا نُجُومٍ فِي الْحَلَكْ أَوْ حَــجَــراً بَرْهَمَنِي لِمَنْ مَلَكْ
وَانْتَسَبَ النَّاظِمُ لِلْمَــغْـرَاوِي عَبْدِ الْعَزِيزِ أَصْلُهُ صَحْرَاوِي
قَدْ انْتَهَى المَعْنَى وَجَاءَ النَّظْمُ مُكَلَّفَـــاً عَنْ لَحْنِهِ لَمْ يَسِمْ
سَمَّاهَا ذَاكَ الشَّيْخُ بِالسُّلْوَانِيَّةْ جَـاءَتْ بِوَصْفٍ كَاشِفٍ عَلاَنِيَةْ
وَاللَّهُ يَجْـزِي رَبُّهَـا إِحْسَـانَا فَـــقَـــدْ أَبَانَ لِلنُّهَى بَيَـانَا
وَصَلَّى رَبُّنَا عَلَى خَـيْـرِ الوَرَى مُـحَـمَّـدٍ نَبِـيِّنَا لَيْثِ الشَّـرَى
وَآلِهِ وَصَــحْــبِــهِ الْكِرَامِ ذَوِي النُّهَى وَالْفَضْلِ وَالإِكْــرَامِ

46) جبانة صلحاء سلا خارج باب المعلقة كانت تدعى «برج الدموع». (قاله الناظم).
والذي يظهر لنا أنها جبانة الشيخ أبي العباس ابن عاشر، لأنّ «برج الدموع» بالسور الممتدّ من الصقالة بالركن المجاور له. والله أعلم

## القصيدة «السلوانية»

## للشيخ ابن قاسم، رحمه الله.

أتى بعد الشيخ عبد العزيز المغراوي المتقدِّم الذِّكر شيخ آخر من شيوخ الملحون، تأخَّر عنه في الزَّمن، وهو الشيخ ابن قاسم. ونظم قصيدة أخرى في الموضوع نفسه أيضاً.

ويقال إنَّ ابن قاسم هذا أصله من مكناس، وتربَّى بفاس. ولعلَّه كان معاصراً للشيخ الصالح سيدي عبد القادر العلمي، حسبما سمعته ممَّن لهم وُلوع بالملحون. ولكنَّه توفي قبله، ولم نقف على تاريخ وفاته بالضَّبْط.

وقد كانت وفاة الشيخ سيدي عبد القادر العلمي سنة ستين ومائتين وألف (1844/1260)، وعليه فقد توفي الشيخ ابن قاسم قبل هذا التاريخ.

وعلى كلِّ حال، فقد عاش الشيخان معاً في زمن السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله.

ولعلَّ الشيخ ابن قاسم نظم قصيدته هذه التي سمَّاها «السلوانية»، كقصيدة المغراوي في عهد هذا السلطان، لمَّا حاول تجديد الأسطول، واستئناف أعمال القرصنة سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف (1243/1827-1828)، فلم يتمّ له ذلك، كما سياتي بيانه في محلِّه.

وإنَّما أثبتناها هنا، وإنْ تأخَّر زمنها، لاتِّحادها في الموضوع مع القصيدتيْن اللَّتيْن قبلها : «القُرْصان» للشيخ ابن سليمان، ونظم أبي عبد الله محمد بن علي الدكالي لـ «سلوانية» الشيخ المغراوي.

قال الشيخ ابن قاسم :

قسم 1 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يَوْمَ اجْمْعَ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بَالآلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينْةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

هَاجَتْ لَفْكَارْ، وَلاَيَمْنِي يَبْلِيهْ بِالْهَجْرْ، مَنْ لاَ ذاقْ الحُبْ مَعْذُورْ، جَايَحْ دُونْ اشْوَارْ.

مَا هَزُّو رِيحْ جْمَالْ زَافْرَا

قَالُوا لَحْبَارْ، السَّفَرْ يْهرَّسْ سْنَانْ لَبْقَرْ، وَلْجُولْ تَنْبِيهْ لَذْكَرْ

وَتْزِيدْ الْيَدْ مْرُوَّ وَالرَّزْقْ يْنَادِي وَلَمْهَجْرَا

صَحَّتْ لَخْبَارْ، فَانْهَارْ كْتَابْ، سْرِيتْ لَسَّفَرْ، قُلْتْ لْغِيبَ حَدَّهَا شَهَرْ، خَرْجَتْ عَنْ لَقْطَارْ

هَايَمْ فُوقْ الْبِيدَا الْعَاطْرَا

مَا صَبْتْ قْرَارْ، غِيرْ نْقَاجِي لَهْمُومْ وَالَكْدَارْ، وَنَنْظُرْ فْمَهَامَهْ الَقْفَارْ، وَنْمَتَّعْ لَبْصَارْ

رِيتْ الْمَرْسَى قُلْتْ يَا تْرَى

بَانُو الَجْدَارْ، وَظْهَرْ حَسَّانْ لَهْمَامْ مْشَتْهَرْ، عَنْ شَالَّةْ فَقْبَتْ النَّصَرْ، رَاكَبْ عَلَّشْجَارْ.

فُوقْ اسْفَاينْ وَابْحُورْ زَافْرَا

مَثْلِي يُعْذَارْ، جَالُو بِيَ لَقْدَامْ بْلَهْجَرْ حَتَّى رِيتْ جْلاَيَبْ لَمْهَرْ، تَاهُو فَنْوَارْ

خَطْفُو عَقْلِي وَنْسِيتْ مَا جْرَا

قسم 2 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يُومْ اجَّمْعَ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بَالآلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينَةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

خَــــرْجُـــــوا لَبْكَارْ لَزْيَارَا     وَرَاحْ مَـنْ بْـغَــــــــــا يْـزُورْ
تَزْهَـي وَتْشُـــوفْ دَ الْعْــبَـــارَا     رَكْـــبُـــو لَفْـــرَاتَنْ لَبْـــحُـــورْ
قَـــالُوا يَزْهَـا وْبَالتّــمَـــــارَا     خَـــرْجُـــو بَرًّا مَنْ لَّقْـــصُـــورْ

هَيْفَاتْ صْغَارْ، صَالُوا بَالزِّينْ اعْوَانَسْ لَحْضَارْ، كُلّ اغْزَالاَ، فَاقَتْ لَنْدَارْ، وَطْلُوعْ الْغْرَّارْ.

خَرْجُوا فَكْسَاوِي لَلْمَعَابْرَا

شَاهَدتْ اقْمَارْ، فُوقْ الْخَدْ حْمُورَا بْلاَ عَكَّارْ، وَالشَّامَا وَالْخَالْ وَاشْفَارْ، وَالْعِينِينْ كْبَارْ

بِينْ اسْوَالَفْ بَالْمَسْكْ ظَافْرَا!

سَكْنُوا لَدْيَارْ، نَاسْ الطِّيبَا وَالْعَزّ وَلَوْقَرْ، فُوقْ ضَيّ كْوَاكَبْ لَفْجَرْ، طَعْنُونِي بَشْفَارْ

هَادُوا مَلْكُوا ذَاتِي بْلاَ شْرَا

حَضْرُوا لَجْوَارْ بَقْطَايَفْ وَحْيَاطِي عْلَى النَّقْرْ، وَزْرَابِي وَلْحُوفْ تْنَشْكَرْ، وَصْطَارَمْ تَنْشَارْ

والسَّفْرَا بَالْكِيسَانْ دَايْرَا

شَلاً يُذْكَارْ، فْوَسْطْ الْحَرْجَاتْ، الْوَرْدْ وَالزَّهَرْ، وَمْرَشَّاتْ امْطَارَبْ لَخْمَرْ، وَالنَّدّ فْتَعْقَارْ

وَقْمَارِي لاَحْ نْسِيمُو عَاطْرَا

قسم 3 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يُومْ اجْمْعَ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بَالاَلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينْةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

بَرْزُوا لَعْنَاسْ لَتْيَارَا — وَبْقِيتْ مَنْ لَجْفَا نْدُورْ

لِيَ قَالُوا بْلَهْجَرْ — نَزْهَا وَأعَشَّانْ لَبْدُورْ

وَقُلْتَلْهُمْ بْلَيْشَارَا — عَمَّرْ لَعْشِيقْ مَا يْبُورْ

بَاحَتْ لَسْرَارْ، قَالُوا لِي زِدْ تْمَتَّعْ لَنْظَارْ، وَتْشُوفْ الْحُسْنْ وَالصُّغْرْ، وَتْمَرَّحْ لَبْصَارْ

وَتَشْهَدْ حَضْرَتْنَا الْبَاشْرَا

قَرَّبْ تَحْضَارْ، اشْكُونْ انتِ فَقْبَايَلْ لَقْطَارْ، قُلْتْلْهُمْ لَفْصِيحْ فَذَكَرْ، عَرْبِي مَنْ لَحْرَارْ

وَتْرَابِي بَهْجَتْ فَاسْ ظَاهْرَا

قَالُوا : تْزَارْ، قَرَّبْ تُسْقَى بَكْيُوسْ لَخْمَرْ، تَتْسَلَّى وَتْلُوحْ كُلّ ضرّ، وَتْرُوضْ الْيَضْمَارْ

تَزْهَى وَتْعَاوَدْ كَلّ مَاجْرَى

مَثْلِي يُعْذَارْ، قُلْتْلْهُمْ جِيتْ غْرِيبْ نَسْتَجَرْ، مَا نَعْرَفْ سَكْرَى وْلَى خْمَرْ، مَا نَفْعَلْ مُنْكَارْ

نَزْهَى وَطْرِيقْ اللّهْ ظَاهْرَا

قسم 4 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يُومْ اجْمَعْ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بَالاَلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينَةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

مَارْمَتْ رْحِيقْ بِالشّطَارَا — وَغْنَمْتْ سْوَايَعْ اسْرُورْ

مَا تَسْمَعْ غِيرْ هَاكْ وَارَا — وَخْدُودْ اهَلْ الْبْهَا تْنُورْ

وَعْيُونْ مْهَدَّبْ سَكَارَا — وَالسَّاقِي بكْلِيهْ شُورْ

خَرْجُوا بَنْهَارْ، صَالُوا عَنْوَا سَطْوَا لَمَّنْ ظَهَرْ، صَاكَتْ بْصَاكَتْ بَالنّكَرْ، وركْبَنَ بَنْهَارْ

جَاتْ فْلاَيَكْ وَسْفُنْ ظَاهْرَا

زَهْرُوا لَمْهَارْ، قَالُوا : يَا شِيخْ ايْلَى انْتَ حبَرْ سمَّنَا، فَمْوَاهَبْ كَشْعَارْ، قُلْتْلْهُمْ اخْيَارْ

نَبْدَا بَهْلاَلْ الزِّينْ طَاهْرَا

دَوْحَتْ لَزْهَارْ، مِينَا وَحْلِيمَ، رَايَتْ النّصَرْ، وَخْدِيجْ وَزْهُورْ تْنَشْكَرْ، وَهْنِيًا دُكَّارْ.

وَفْضِيلَ وَأُمّ الْغِيثْ حَاضْرَا

زِينَبْ تُشْكَارْ، وَالسَّعْدِي وَفْرُوحْ فْلُوكَارْ، لَغْزَالاَ عَدًا كُلّ شَرّ، صِينَيت لَوْكَارْ

سَلْطَانَ وَالْبَاتُولْ نَاصْرَا

مَرْيَمْ خُنَّارْ، بِينْ احْمَامْ، هَشُّومْ فَالسّطَرْ، وَخْنَاثَى مَشْمُومْ أَخْضَرْ، زَادَتْ قَلْبِي نَارْ

مَنَّانَ وَمْكَلْتُومْ نَافْرَا

طَامُو تْنْصَارْ، وَعْوِيشْ، وَرْقِيَّ عْلَى لَمْهَارْ، حَجُّوبَ مَنْ شَافْهَا ظْفَرْ بَكْثَرْ التُّجَّارْ

مَنْ لاَ شَافْ الْهَيْفَاتْ آشْ رَا

قسم 5 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يُومْ اجْمَعَ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بَالآلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينْةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

تَوْصَفْ الزِّينْ وَاتْجَرَا — هَادُوكْ انْزَايَهْ السّرُورْ
بَمْعَانِي رَايِقْ اعْبَارَا — وَحْدِيثْ الْعِلْمْ فَالسّطُورْ
وَاصْغَ تَفْهَمْ لِشَارَا — هَيْفَاتْ لَكْوَاعَبْ الدّكُورْ

شُوفْ لَمْسَطَّرْ فُوقْ الْوَجْنَاتْ — يْبَانْ كَقْمَرْ، وَيْنَبّهْ تْنْبِيهَتْ لَنْبَارْ، وَهْدَانَا مَنْ جَارْ

صَاحُو لَوْتَارْ، وَلْعَيَّنَتْ وَدَفّ يَنْتْقَارْ، وَجْنَاحْ السَّنْتِيلْ يَنْدْكَارْ، وَبْرَاوَلْ وَشْعَارْ.

جَاتْ الْمَايَا بَالْكَفّ عَاقْرَا

نَاحُو لَطْيَارْ، قَامُوا طَبْعَ اصْبِهَانْ فْشْجَارْ، وَلِّي ظَمَانْ يْزِيدْ لَنْهَارْ، مَا يَحْتَاجْ لْتَحْزَارْ

هَادِي سِيرَتْ لَيَّامْ ظَاهْرَا

قُرْصَانِي سَارْ، سَمَكْ عُمْقْ الْبَحْرَانْ بَلْقَهَرْ، جَهْدُ مَا يُحْصَرْ، كُنْ حَبْرْ، وَزَيَّطْ بِالنَّارْ

جَادَتْ لِيهْ الرِّيحْ لَمْسَافْرَا

هَاجْ بَتَّعْبَارْ، وَعْظَمْ وَجْدِي وَكْرَايْحِي لَكْتَارْ، وَعْبَرْتْ عْلَى كُلّ مَنْ ذْكَرْ لَجْمَاهَرْ وَالنَّارْ

هَامَلْ سُوقْ الدُّنْيَا الْغَارًا

وَلِّي صَبَّارْ، لاَبَدَّ يْنَالْ، الْخِيرْ وَالأَجْرْ، وَيْبَدَّلْ لَمْنَامْ بَالسّهَرْ، وِيْحَيَّرْ لَخْتِيَارْ

قَبْلْ بَانَتْ قُومَانْ يَاسْرَا

بَهْجَتْ سَلْوَانْ كَالْمْنَارَا — مَنْ سَبْعْ مْدُونْ مَا تْبُورْ

مَا قَبْلُوا نَاسْهَا ادْسَارَا — كَتْبُوا فَشْوَاهَدْ اسْطُورْ

لُحَتْ قْبَايَلْ النّصَارَا — تَفْنَى بَدْوَ اهَلْ الشّرُورْ

قسم 6 خَرْجُوا لَبْكَارْ، يُومْ اجْمَعْ لَسْوَاحَلْ لَبْحَارْ، بِالآلاَ وَنْغَايَمْ لَوْتَارْ،

شُوفْ مْدِينَةْ سَلْوَانْ زَاهْرَا.

صَالَتْ بَسْوَارْ، قَلْعْ مَبْنِي حَازَتْ لَوْعَارْ، وَالْهِيبَة وَالْعَزّ وَلَوْقَرْ، بَمْنَارَهْ وَدْيَارْ،

بِينْ اسْقَايَلْ وَبْرَاجْ عَامْرَا،

فْكُلّ شْبَارْ، لَمْهَارَزْ لَكْبَارْ، تَهْزَمْ مَنْ دَسَرْ، وَبْطَلْ الْفَرْدْ عْلَى النّمَرْ، وَالْمَدْفَعْ طَرَّارْ،

وَاصْحَابْ اهْلَ الْوِزْرَ الْقَاهْرَا

سَاعَتْ لَكْحَارْ، عَسَّاسِينْ عْلَى كُلْ مَنْ حْضَرْ، وَالْفَلْكْ اللِّي تَاكْ يَنْكَسْرْ، بَعْوَاطَفْ لَسْرَارْ

تَفْنَى لُجَّتْ اكْنُوسْ كَاتْرَا

نَزْلُوا كُفَّارْ، بِينْ الْكَرْمْ وَحَجْرَتْ نَكَرْ، بْخْرُوجْ الْيَسْلاَمْ لَشْقَرْ، كَيْفْدِيُو التَّارْ،

يَاتِي اخْبَارْ الْفِيضَ الْوَاعْرَا

جَابُوا لَخْبَارْ، ايْلَى عَادَتْ سَكْنَى لَمَّنْ كْفَرْ، وَيْسِيبُو لِيهُودْ فْلَقْصَرْ، هَدَاكْ الْبَشَّارْ.

فَاقُوا بْحَرْبُوا لَلْمْجَاسْرَا

يَرْكَبْ مَعْيَارْ، يَاتِي لِمَامْ يَامَرْ بِلَبْطَرْ، مَلاَّ طَاعْ الْحَقّ يَنْزْبَرْ، جَايْحَا دُونْ شْوَارْ

تَبْقَى نَارُو فَلْقَلْبْ زَافْرَا

نْهِيتْ حْدَايَقْ اعْبَارَا     وَلْفَاظِي زَادْنِي بْكُورْ
وَالدَّاعِي ضْرَبْتُ خْسَارَا     بَاقِي مَا يَلِيهْ شُورْ
مَاشَافْ الزِّينْ فْلِيشَارَا     يَعْرَفْ لَيَّامْ كَتْدُورْ

كَلْبْ الدُّوَارْ، قَتْلُو إِلَى فَاتْ يَنْسْعَرْ، أَوَيْحُو مَنْ قْجَرْ، وَعْرَفْتُو قَنْجَارْ
لِيهْ سْوَاجَرْ مَنْ هَنْدْ نَظْرَا
وَاعَرْ غدَّارْ، اشْحَالْ مَا عَاشْ يْمُوتْ بَلْقَهَرْ، هَمُّ دُونْ اسْيُوفْ يْنَبْتَرْ، عن قَتْلُو بَتَّارْ
ضَاعْ فْسُوقُو مَا بَاعْ مَا شْرَا
عُكْلِي مَطْيَارْ، تَالْف رَيُّو مَازَالْ مَا ظْهَرْ، مَا بِينْ الْهِيعَاتْ يْنَشْهَرْ، لَعْدِيمْ النَّكَّارْ.
مْخَلَّصْ دِينُو بَعْدْ مَا جْرَى
مَا يَفْدِي تَارْ، يَتْعَزَّى فَحْيَاتُو ايْلَى نْكَرْ، وْجَبْ كُلّ ذْلِيلْ يْنَحْقَرْ، رَانَا مَنْ لَحْرَارْ.
يَحْصَلْ وَيْبِينْ كُلْ غُبْرَا
قَالْ الْعِيَّارْ، مَلاَّ مَيَّزْ مَعْنَى وْلاَ اشْطَرْ، قَيَّسْتْ كْلاَمُو ايْلَى هْدَرْ، كَصَوْتْ حْمَارْ
عَنْدْ المُولَى مَنْكُورْ مَا قْرَا
قُومْ الْمُنْكَارْ، مَلاَّ فَرَّقْ يَقُوتْ مَنْ حْجَرْ، وَاشْ الذِّيبْ ايْصَيَّدْ النَّمَرْ، يَا مَعْمِي لَبْصَارْ
مَنْ رَادْ يْكُونْ حْمَامْ بَشّرَا
بَازِي غَزَّارْ، لِيهْ ازْعَامَ وَفْرِيدْ فْلَعْصَرْ، مَا يَخْشَى مَنْ دُوْلَتْ لَبْقَرْ، وَالْقُومْ الْفُجَّارْ
مَنْ لاَ يَفْقَهْ مَعْنَى وَلاَ دْرَى
انْجِيبْ شْطَارْ، وَسْلاَمِي لَلدُّهَاتْ يْنَذْكَرْ، بَلْعَنْبَرْ وَالنَّدّ وَزْهَرْ، وَالْوَرْدْ الْمَسْرَارْ
وَقْمَارِي وَاعْطَرْشَى الْبَاشْرَا
حَافَظْ لَشْعَارْ، خُذْ اقْصِيدَا مَنْ خْلاَصْ التّبَرْ، بَمْعَانِي وَلْفَاظْ تْنَشْكَرْ، مَا تَحْتَاجْ عَيَّارْ

مَنْهَا قُوفَانْ بْقَاتْ غَايْرَا

اسْمِي يُذْكَارْ، فْنَاصَفْ الدَّالْ ايْبَانْ مْشَتْهَرْ، خَمْسِينْ وَلَمْيَا لَمَّنْ انْظَرْ، تَلْتَمْيَا تَكْرَارْ

وَعْشُورْ التَّا لَحْرُوفْ ظَاهْرَا[47]

نِعْمَ القَهَّارْ، يَغْفَرْ لِي وَلْكُلّ مَنْ حَضَرْ، وَجْمِيعْ لِيسْلاَمْ، وَالْبَشَرْ، بْحَقّ الْمُخْتَارْ

وَزْوَاجُوا وَانْصَارُوا الْبَاشْرَا

هذا، وما زال الشعراء من ذلك العصر إلى عصرنا هذا يذكرون الأسطول المغربي وقرصنته في أشعارهم وقصائدهم في كل مناسبة، وينوّهون به وبأعماله التي سجّلها التاريخ، وخصوصاً الأوروبوي، وفصّلها تفصيلاً.

وممّن نذكره من شعراء عصرنا الآن، الشاعر الأديب، السيد المدني الحمْراوي، وخصّص قصيدة من شعره لسلا وأخرى لرباط الفتح، نشرتهما مجلة «دعوة الحق» في عددها العاشر من السنة الرابعة عشرة، الصادر في ذي الحجة عام واحد وتسعين وثلاثمائة (حجة 1391/يناير 1972)، والرابع من السنة الخامسة عشرة، الصادر في جمادى الاخرة عام اثنين وتسعين وثلاثمائة وألف (جمادى الآخرة 1392/يوليوز 1972)، قال في القصيدة السلاوية :

## حديث سلا

سَـلاَ لَوْ تَرَى بَهْـجَـةَ النَّاظِرِ ... وَفِي رَبْعِـهَـا سَلْوَةُ الْخَـاطِرِ

تُذَكِّـرُنِي كُلَّمَـا زُرْتُـهَـا ... بِمَـجْـدٍ لَهَـا تَالِدٍ غَـابِرِ

كَـأَنِّي بِهَـا لَمْ تَزَلْ أُمَّـةً ... لِشَـاطِئِـهَـا عِـزَّةُ الْقَـاهِرِ

سَـفَـائِنُهَـا بِالرَّدَى أَبْحَـرَتْ ... إِلَى كُلِّ مُـسْـتَـأْسِـدٍ جَـائِرِ

تَشُقُّ الْعُـبَـابَ إِلَى وَقْـعَـةٍ ... بِهَـوْلٍ بَعِـيـدِ الصَّـدَى مَـاخِـرِ

47) يؤخذ من هذه الأسطار أن القصيدة أنشئت أواسط القرن الثالث عشر الهجري (أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي). وهو الزمن الذي كان المولى عبد الرحمان مُهتماً فيه بإحياء الأسطول المغربي.

بَوَارِجُ عَائِمَةٌ أَشْبَهَتْ ... جِبَالاً تَسِيرُ عَلَى مَائِرِ
قِلاَعٌ إِذَا رَكَدَتْ حَصَّنَتْ ... دِيَاراً بِسُورٍ لَهَا دَائِرِ
وَإِنْ سَبَحَتْ عَجَّلَتْ غَارَةً ... فَعَادَتْ بِنَصْرٍ لَهَا بَاهِرِ
غَنَائِمُهَا أَثْقَلَتْ حَمْلَهَا ... فَسَارَتْ عَلَى مَهَلٍ حَاذِرِ
تَلُوحُ مِنَ الْبُعْدِ إِنْ أَقْبَلَتْ ... بُرُوجاً عَلَى جَبَلٍ عَابِرِ
وَأَبْطَالُهَا كَلُيُوثِ الشَّرَى ... لَهُمْ صَوْلَةُ الْجَحْفَلِ الظَّافِرِ
لأَسْرِ الْعِدَى أَحْكَمُوا خُطَّةً ... تَطِيحُ بِشَيْطَنِهِ الشَّاطِرِ
فَلاَ يَتَّقِي مَكْرَهَا بَاسِلٌ ... يُرَاوِغُ فِي مَكْرِهِ الْمَاكِرِ
فَلَيْسَ لِمَنْ قَصَدَتْ صَوْبَهُ ... سِوَى حَظِّهِ الأَنْكَدِ الْبَائِرِ
يَمُوتُ إِذَا شَاءَ مُسْتَقْتِلاً ... وَإِلاَّ فَفِي قَبْضَةِ الآسِرِ
لُيُوثُ «سَلاَ» مَجْدُهُمْ خَالِدٌ ... يَجُولُ بِصِيتٍ لَهُمْ طَائِرِ
فَكَمْ مِنْ أَسَاطِيلَ قَدْ أَغْرَقُوا ... وَصَالُوا عَلَى مُعْتَدٍ كَافِرِ
وَكَمْ حَطَّمُوا مِنْ «سَفِينِ» الْعِدَى ... عَلَى لُجَجِ الْهَائِجِ الْهَادِرِ
«قَرَاصِنَةُ الرُّومِ» مِنْ بَأْسِهِمْ ... عَلَى فَزَعٍ دَائِمٍ حَاضِرِ
فَلَيْسَ لَهُمْ إِنْ رَأَوْا فُلْكَهُمْ ... سِوَى نَفْرَةِ الْهَارِبِ النَّافِرِ
يَرَوْنَ الرَّدَى خَلْفَهُمْ طَارِداً ... وَمُسْتَأْصِلاً شَأْفَةَ الدَّابِرِ
فَلِلَّهِ مِنْ عُصْبَةٍ أَخْلَصُوا ... جِهَادَ عَدُوٍّ لَهُمْ وَاتِرِ
وَقَامُوا بِصَوْنِ الْحِمَى عِنْدَمَا ... رَأَوْهُ عَلَى خَطَرٍ فَاقِرِ
تَصُونُ تَوَارِخُنَا فَضْلَهُمْ ... فَلَيْسَ بِنِسْيٍ وَلاَ دَاثِرِ
وَنَذْكُرُ مَا قَدَّمُوا مِنْ يَدٍ ... وَنَجْعَلُهَا عُدَّةَ الذَّاخِرِ
وَنَأْخُذُ مِنْ دَرْسِهَا عِبْرَةً ... فَنَمْشِي عَلَى مَنْهَجِ الْبَاصِرِ
فَمَا كَالْعَزَائِمِ إِنْ جُرِّدَتْ ... فَإِنَّ لَهَا حِدَّةَ الْبَاتِرِ
وَلاَ كَالتَّوَاكُلِ مِنْ آفَةٍ ... تَعُودُ بِعَجْزٍ عَلَى قَادِرِ
وَمَا كَانَ آبَاؤُنَا عَالَةً ... تُضَعْضِعُهُمْ صَيْحَةُ الزَّاجِرِ
وَلاَ يُسْلِمُونَ الْحِمَى إِنْ دَهَتْ ... خُطُوبٌ بِمُسْتَكْرَهٍ نَّاجِرِ

وَلَكِنَّهُمْ مَعْشَرٌ بَرَزُوا — بِعِزٍّ رَفِيعِ الذُّرَى ظَاهِرِ
وَسَادُوا وَشَادُوا وَكَانَتْ لَهُمْ — مَوَاقِفُ فِي مُلْتَقَى شَاجِرِ
وَنَحْنُ بَنُوهُمْ عَلَى نَهْجِهِمْ — مَشَيْنَا وَنَمْشِي إِلَى آخِرِ
نَصُونُ مَفَاخِرَ أَحْسَابِهِمْ — بِعَزْمٍ حَدِيدِ الشَّبَا سَاهِرِ
وَنَحْفَظُ مِنْ إِرْثِهِمْ عَادَةً — بِإِيمَانِ ذِي هِمَّةٍ صَابِرِ
بِمِثْلِ «الْعَيَّاشِيِّ» فِي عَزْمِهِ — تُسَرُّ الْمَشَاعِرُ مِنْ ذَاكِرِ
وَيُقْتَبَسُ النُّورُ مِنْ مَجْدِهِ — فَتَمْشِي عَلَى جُدَدٍ نَّائِرِ

* * *

لَقَدْ أَذْكَرَتْنِي سَلاَ صَفْحَةً — مِنَ الحَسَبِ الأَرْفَعِ الفَاخِرِ
بِعَزْمِ بَنِيهَا وَإِقْدَامِهِمْ — تُحَدِّثُ بِالسَّنَدِ العَاطِرِ
تُؤَلِّفُ فِي مَجْدِنَا حِقْبَةً — سَتَبْقَى مَدَى دَهْرِهِ الدَّاهِرِ
أَتُطْوَى وَأَحْفَادُهُمْ بَيْنَنَا — عَلَى الدَّرْبِ فِي مَوْكِبٍ سَائِرِ ؟
تَأَسَّوْا بِآبَائِهِمْ فِي الْعُلاَ — فَلاَ مِنْ كَسُولٍ وَلاَ سَادِرِ
تَنَادَوْا إِلَى نَهْضَةٍ بَشَّرَتْ — بِيُمْنٍ جَمِيلِ الْمُنَى وَافِرِ
فَتِلْكَ «مَعَارِفُهُمْ» أَطْلَعَتْ — زُهُوراً بِرَوْضٍ لَهَا زَاهِرِ
وَتِلْكَ «صِنَاعَتُهُمْ» تَسْتَبِي — بِفَنٍّ بَدِيعِ الْحُلَى مَاهِرِ
وَتِلْكَ الْخُطَى مِنْهُمُ أَسْرَعَتْ — إِلَى كُلِّ مُسْتَحْسَنٍ نَّادِرِ
بِهِمَّةِ ذِي نَخْوَةٍ صَامِدٍ — بِوَاجِبِ تَارِيخِهِ شَاعِرِ
«وَمَسْجِدُهُمْ» لَمْ يَزَلْ آيَةً — تُذَكِّرُ بِالزَّمَنِ النَّاضِرِ
زَمَانِ الْجِهَادَيْنِ فِي حَلْقَةٍ — مِنَ الدَّرْسِ كَالدُّمْلُجِ الدَّائِرِ
وَفِي مَعْرَكِ الْحَرْبِ إِنْ سُعِّرَتْ — بِكُلِّ فَتًى بَاسِلٍ ثَائِرِ
جِهَادٌ تَوَاصَلَ مُسْتَبْسِلاً — فَلَيْسَ بِوَانٍ وَلاَ فَاتِرِ
بِهِ أُمَّةٌ أَتْعَبَتْ دَهْرَهَا — وَأَعْيَتْ يَدَ الْكَاتِبِ السَّاطِرِ
فَيَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى حِقْبَةٍ — لَهَا فَرْحَةُ الْمُبْهِجِ السَّامِرِ
تُرَصِّعُ تَارِيخَنَا عِزَّةً — وَتَبْعَثُ فِيهِ يَدَيْ نَاشِرِ

تُرَى هَلْ تَعُـــودُ بِأَيَّامِـــــه مَطَالِعُ لِلْفَلَكِ السَّـــاخِــرِ ؟
وَهَلْ يَلْحَقُ الْقَــوْمَ أَخْــلاَفُـــهُمْ أَمِ انْقَطَعَ السَّـيْـرُ بِالسَّائِرِ ؟
وَهَلْ دَرْبُهُمْ لَمْ يَزَلْ مُــعْلَمــاً بِصُــوَاه، أَمْ هُوَ كَـــالدَّاثِرِ ؟
فَــوَا أَسَــفَــاهُ، وَيَا حَــسْــرَتَى إِذَا الْكَسْــرُ أَعْـيَـا يَدَا الْجَـابِرِ
وَطَالَ الْمَــسَـــاءُ عَلَى رَكْـــبِنَا وَبُدِّدَ فِي فَــدْفَـــدٍ شَــاغِـــرِ
وَلَكِنَّنِي أَمِلٌ نَّعْــــشَــــةً وَإِنْ أَبْطَـأَ الدَّهْرُ بِالْعَـــاثِرِ

* * *

«دِيَارَ سَــــلاَ» طِبْتِ مِنْ أَرْبُعٍ وَمِنْ مَــعْــهَــدٍ بِالْعُــلاَ عَــامِــرِ
فَكَمْ بَارَكَ الْمَــجْــدُ تِلْكَ الرُّبَى وَكَمْ عَــمَــرَ الْعِلْمُ مِنْ غَــامِــرِ
وَكَمْ وَطِئَتْ أَرْضَـــهَـــا أَرْجُلٌ تَسِــيــرُ بِهَــدْيٍ لَّهَــا طَاهِرِ
ذَكَــرْتُ «ابْنَ عَــبَّـادٍ» الْمُــرْتَضَى قَــــرِيعُ الدُّهُورِ بِلاَ نَاكِـــرِ
وَبَحْــرُ التَّـــصَــوُّفِ بَلْ قُطْبُــهُ وَمَـنْـهَلُ وَارِدِهِ الصَّـــــادِرِ
«رَسَــــــائِلُـهُ» لَمْ تَـزَلْ آيَـةً وَأُعْـــجُــوبَةَ الدَّارِسِ الْخَــابِرِ
هِيَ الْوِتْرُ فِي بَابِهَـــا لَمْ نَجِــدْ لَهَــا شَــافِــعــاً لَيْسَ بِالنَّاصِــرِ
«صَحَـائِفُـهَـا مِنْ سَـلاَ» أُرْسِلَتْ إِلَى سَـــائِلٍ بَاحِثٍ سَـــابِرِ
وَكَمْ عَـــالِمٍ نَّامَ فِي حَــضْنِهَــا وَذِي حِكْمَــةٍ شَــاعِــرٍ نَّاثِرِ
وَكَمْ مِنْ وَلِيٍّ بِهِ حُــصِّنَتْ مِنَ الشُّــؤْمِ وَالْعَطَبِ الْجَــازِرِ
وَلاَ مِـثْلَ «مُـوسَى» بِشَـاطِئِـهَـا وَلاَ كَـ«ابْنِ عَــاشِــرٍ» الزَّاخِــرِ
وَلاَ «كَــابْنِ حَــسُّــونَ» فِي تُرْبَةٍ ثَلاَثَتُــهُمْ بُغْــيَــةُ الْحَــائِرِ
وَمَـــا أَنْصَفَ «ابْنُ الْخَطِيبِ» وَلاَ رَعَى أَدَبَ الْوَافِــــدِ الزَّائِرِ
تَقَلَّبَ فِي خَــيْــرِهَا نَاعِــمــاً فَــمَـا كَـانَ بِالْحَـامِدِ الشَّاكِرِ
وَمَا قُلْتُ مُسْتَقْصِياً فَضْلَهَا فَــإِنَّهُ فِي كَـــثْـــرَةِ الْكَاثِرِ
وَلَكِنَّهَــــــا قَطْرَةٌ نَّزْرَةٌ وَوَمْـــضَـــةُ بَرْقٍ إِلَى نَاظِرِ
وَرَنَّةُ شِــعْــرٍ لَّهَــا سَكْرَةٌ بِخَــمْـرَةِ مَــجْـدٍ لَنَا فَــائِرِ
تَحِـيَّـاتُ شِـعْـرٍ إِلَى ثَغْـرِهَا وَتَارِيخِـهَـا الْمُعْجِبِ السَّاحِرِ

«حَـــدِيث سَـــلاَ» شَــــائِقٌ رَائِـعٌ مِـنَ النَّمَطِ الْمُــــدْهِـشِ النَّادِرِ
وَلِلشِّـــعْــرِ مِنْ وَحْــيِـــهِ سَلْسَلٌ تَتَــابَعَ كَــالْهَــاطِلِ الْهَــامِــرِ
فَـعُـذْراً «سَـلاَ» إِنْ تَكُنْ مَـدْحَـتِي بِإِيجَـــازِهَا نَـقْــرَةَ النَّاقِـــرِ
فَــمَـــا هِيَ إِلاَّ صَـــدَى هَتْــفَــةٍ تُحَــــيِّــــيكَ مِنْ عَـــابِرٍ زَائِرِ

ثمَّ قال في قصيدة الفتح :

## عرين الملك

يَا «رِبَاطَ الفَـتْحِ» حَـيَّـاكَ الرِّضَى مِنْ فُــؤَادٍ بِهَــوَاكَ انْتَــفَــضَــا
يَا خَـرُوطَ البَحْـرِ يَا بِنْتَ العُـلاَ بِسَنَاهَا مَـــرْبَعُ العِـــزِّ أَضَـــا
أَيُّ مَــــجْـــدٍ لَّكِ فِي تَارِيخِنَا مُـهْجَـةٌ صَـانَ وَوَجْـهاً بَيَّـضَـا
يَدُ «يَعْــقُــوبٍ» أَجَـادَتْ نَظْمَـــهُ لَكِ عِـــقْــداً لُؤْلُؤِيّاً أَوْمَـــضَــا
حِلْيَــةٌ جِــيـدُكِ مِنهَــا سَــاطِعٌ وَبِهَـــا قَلْبُ حِــمَـــانَا نَبَـضَــا
نَتَـــمَلَّى فِي مَــــرَايَاكِ الأُلَى بِهِمُ المَــغْــرِبُ قِـدْمــاً نُـهَـضَـا
عَكَفَ النَّصْـــــرُ عَلَى رَايَاتِهِمْ وَحَــمَــاهَا وَرَعَـــاهَا وَارْتَضَى
وَمَعَ العِـــزِّ مَــشَـــوْا فِي دَرْبِهِ فَلَهُمْ فِي نَهْـجِـهِ مَـا فَــرَضَـا
لَهُمُ الجَـــيْشُ عَلَى هَامِ العُــــلاَ رَفَعَ الرَّايَةَ لَمَّـــا رَكَــضَـــا
فَـمَــشَى بِالنُّورِ يَمْـحُــو ظُلْمَـــةً وَجَـدَ الإِشْـرَاكُ فِـيـهَـا غَـرَضَـا
بِيَــدِ العَـــدْلِ تَقَــصَّى أَرْبُعــاً فَــزَوَى عَنْهَـــا شَــقَـــاءً وَنَضَـا
كَـشَفَ الغُـمَّـةَ عَنْهَـــا وَشَــفَى فِي نُفُــوسٍ لِّبَنِيــهَـــا مَــرَضَـا
وَبِنُورِ الوَحْيِ أَحْــيَـــا أُمَّـــةً وَبِهِ الْجَـهْلَ مَـحَـا فَـانْقَـرَضَـا
أَيُّ عَـــهْـــدٍ كَـــانَتِ الدُّنْيَـــا بِهِ رَوْضَـــةً فِـيـهَـا حِـمَـانَا رَبَضَـا
مِنْ جِنَانِ الْخُلْدِ وَافَى حُـسْنَهَـــا لَيْتَ ذَاكَ الحُسْنِ مَا كَانَ انْقَضَـا
فِي جَـبِـينِ الدَّهْرِ يَحْكِي غُــرَّةً وَعَلَى الأَرْضِ سَـــلاَمــاً وَرِضَى
كُلَّمَــــا خَـــالَجَ فِكْرِي ذِكْــرُهُ شَبَّ فِي مُـهْجَتِي جَمْرُ الغَضَـا

يَا «رِبَاطَ الْفَتْحِ» حَدِّثْ مُهْجَتِي     عَنْ فَخَارٍ فِيكَ يَهْوَى مَرْبِضَا
فَلَكَمْ آوَيْتَ قِدْماً رَكْبَهُ     كُلَّمَا خَيَّمَ دَهْراً قَوَّضَا
وَلَكَمْ وَدَّعْتَ مِنْ أَجْيَالِهِ     مَوْكِباً نَادَاهُ مَبْعُوثُ الْقَضَا
ثُمَّ رَحَّبْتَ بِجِيلٍ قَادِمٍ     كَانَ مِمَّنْ وَدَّعُوكَ الْعِوَضَا
يَسْبَحُ الْخَاطِرُ فِي أَمْوَاجِهِ     كُلَّمَا ذِكْرُ الْمَعَالِي عَرَضَا
فَيَرَى «يَعْقُوبُ فِي أُسْطُولِهِ»     يَغْمُرُ الْبَحْرَ بِهِ إِذْ خَضْخَضَا
وَيَدُ النَّصْرِ تُحَيِّي رَايَةً     بِيَدِ الْعِزِّ عَلَيْهَا قَبَضَا
وَهِلاَلُ الدِّينِ يَبْدُو عَالِياً     عَنْهُ غَيْمُ الشِّرْكِ وَلَّى مُعْرِضَا
ثُمَّ لاَحَ الْبَدْرُ مِنْ عَلْيَائِهِ     كُلُّ أُفْقٍ بِالسَّنَا قَدْ فَضَّضَا
فَبَكَى الْمِلْيَسُ فِي أَغْلاَلِهِ     نَاعِياً دَوْلَتَهُ مُمْتَعِضَا
صَوْلَةُ التَّوْحِيدِ أَرْدَتْ حِزْبَهُ     ثُمَّ هَدَّتْ صَرْحَهُ فَانْتَقَضَا
يَوْمُنَا «فِي الأَرْكِ» يَوْمٌ خَالِدٌ     ظَلَّ فِي جَوِّ الْعُلاَ مُعْتَرِضَا
مِنْ «رِبَاطِ الفَتْحِ» زَفَّتْهُ الْمُنَى     وَبِهِ رَكْبُ الْمَعَالِي أَوْفَضَا
لَمْ يَزَلْ «حَسَّانُ» يَعْلَى رَمْزَهُ     هَيْكَلاً فِيهِ يُجْلَى مَعْرِضَا
«وَأَبُو رَقْرَاقٍ» يَشْدُو لَحْنَهُ     وَعَلَى ذِكْرَى جِهَادٍ حَرَّضَا
وَالصَّدَى فِي الشَّطِّ يَحْكِي صَخَباً     فِيهِ جَيْشُ الفَتْحِ قِدْماً فَضْفَضَا
هَا هُنَا مَجْدٌ قَدِيمٌ صَارِخٌ     حَثَّ أَجْيَالاً لَنَا وَاسْتَنْهَضَا
قَدْ قَهَرْنَا بِمَزَايَا رُوحِهِ     سَيْفَ بَغْيٍ كَانَ فِينَا مُنْتَضَى
فَالْتَقَى الْحَاضِرُ بِالْمَاضِي وَلَمْ     يَكْذِبِ التَّارِيخُ فِيمَا قَرَضَا
مَدَدٌ مِنْ مَجْدِنَا مُسْتَرْسِلٌ     لَمْ يَزَلْ مُسْتَنْفِراً مُسْتَوْفِضَا
قَدْ حَفِظْنَا عَهْدَهُ فِي دَمِنَا     هَكَذَا مَوْثِقُهُ لَنْ يُنْقَضَا
رُوحُنَا نَحْيَا بِهَا نَسْمُو بِهَا     وَسِلاَحٌ بِهِ نُرْدِي مُبْغِضَا
بِشِعَارِ الْحَقِّ وَالدِّينِ لَهُ     صَوْلَةٌ سَاءَتْ عَدُوّاً مُغْرِضَا
دِينُنَا قُرْءَانُنَا ءَادَابُنَا     أُسُسُ الْعِزِّ الذِي لَنْ يُضْحَضَا
وَيَنَابِيعُ حَيَاةٍ نَّبْعُهَا     مَا تَغَشَّاهُ الهَوَى أَوْ غَيَّضَا

هِيَ فِي نَهْجِ الْمَعَالِي عِصْمَةٌ سَدَّدَتْنَا وَوَقَتْنَا مُدْحِضَا
طَالَمَا كَانَ الْحِمَى فِي سَيْفِهَا مَتْنَهُ بَلْ حَدُّهُ وَالْمِقْبَضَا

* * *

يَا «رِبَاطَ الْفَتْحِ» يَا رَأْسَ الْعُلاَ وَمَطَاهَا، وَالْحَشَا وَالْمَأْبَضَا
يَا مَهَبَّ النَّصْرِ فِي هَاذِي الرُّبَى كَمْ بِعِطْرِ الْفَتْحِ عَطَّرْتَ الْفَضَا
مَطْلِعُ الأَمْجَادِ تَجْلُو سِرَّهُ مِنْكَ عَيْنٌ جَفْنُهَا لَمْ يُغْمَضَا
أَنْتَ أَقْرَضْتَ بَيَانِي سِحْرَهُ فَأَنَا فِيكَ أُحَيِّي مُقْرِضَا
وَفُؤَادِي فِيكَ أَلْفَى صَفْوَهُ وَقَرِيضِي فِيكَ لاَقَى مُنْهِضَا
لِشَبَابِي كُنْتَ مِرْآةً، وَهَا لِمَشِيبِي لَمْ تَزَلْ مُسْتَرْوِضَا
لَكَ حُبِّي كُلُّهُ يَا مَوْطِناً جَوْهَراً أَحْسِبُهُ لاَ عَرَضَا
قَدْ تَمَلَّيْتُ الصِّبَا فِي ظِلِّهِ وَرَعَى حَقٌّ فُؤَادِي وَقَضَى
فَإِذَا غَنَّى بِهِ شِعْرِي فَقَدْ أَنْطَقَ الْمَجْدُ لِسَانِي وَاقْتَضَى
وَدَعَا فَضْلُهُ شِعْرِي مُغْرِياً فَقَضَى وَاجِبَهُ الْمُفْتَرِضَا
مَرْبَعٌ فِي أَرْضِ قَوْمِي لَمْ يَزَلْ مُهْجَةً فِيهَا وَوَجْهاً أَبْيَضَا
تَوَّجَ الْفَتْحُ وَأَعْلَى رَأْسَهُ كُلَّمَا سِيمَ صَغَاراً رَفَضَا
وَعَرِينُ الْمُلْكِ فِي أَحْضَانِهِ لاَ كَفَخْرِ الْعَرْشِ فَخْرٌ يُرْتَضَى
فَلْيَصُنْكَ اللَّهُ يَا رَبْعَ الْمُنَى وَافِرَ الْعِزِّ وَمَوْفُورَ الرِّضَى
لَكَ مِنْ خَالِصِ حُبِّي صَبْوَةٌ وَوَلاَءٌ حَقُّهُ لَنْ يُرْفَضَا

وقد تقدَّم وصف الأسطول السلاوي ومنشآته وأعماله في قصيدتنا في سلا التي عنوانها «سلا في التاريخ» عند الكلام على دار الصناعة السلاوية ومآلها، فَلْيُرْجَعْ إليها.

# الفصل الخامس

---

## عن الأسطول المغربي
## في عهد دولة الأشراف العلويين،
## وكيفية تجهيزه، ونظامه،
## ونمط معيشة بحارته، وبعض أعماله.

# المبحث الأول

# الأسطول المغربي بسلا ورباط الفتح في عهد الدولة العلوية[48].

## تمهيد

دكّت الفتن صرح الدولة السعدية دكّاً، وهتكت في جميع المغرب سلطانها وسلطتها، وفتكت بها عواصف الفوضى والاستبداد، وقام في كل ناحية قائم يدعو لنفسه، ويجرُّ النار إلى قرصه، ومدَّ شيوخ الطرق وأرباب الزّوايا أعناقهم إلى الملك، محاولين الركوب في ذلك الفلك، والانخراط في ذلك السّلك، فكان الشبانات بمراكش، وآل أبي حسّون السّملالي بإيليغ من بلاد سوس، والدّلائيون بالأطلس وفاس والرباط، والخضر غيلان بالهبط، وأعرّاس ببلاد الريف، والأندلسيون بسلا ورباط الفتح والقصبة، وغيرهم بنواحي أخرى، والأشراف العلويّون بسجلماسة ودرْعة وما اتّصل بهما من الأقاليم الجنوبية الصحراوية.

والذي زاد في الطين بلّة، وفي الجسد علّة، هو تكاثر الأوروبيين بالمراسي المغربية، من التُّجّار وأسرى القرصنة، وتدخُّلهم في شؤون المغاربة، ونشر أخلاقهم وعوائدهم بينهم.

هذا، وقد أظهرت دول أوروبّا، منذ ذلك العهد، شرَهاً كبيرا إلى تملُّك أطراف المغرب وسواحله والسيطرة عليها، عملاً واقتداءً بسيرة الإصْبان والبرتقال فيها، وكان غرضهم من ذلك خدمة مصالحهم السياسية، والحصول على امتيازات تختصُّ بها الواحدة دون الأخرى.

---

48) اعتمدنا في هذا القسم كالذي قبله على ما جاء في كتاب :

"Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" par Henri de Castries, France, Pays-Bas

"Les Corsaires de Salé" par Roger Coindreau. : وكتاب

فيما يتعلّق بقرصنة العدوتين، ومراجع أخرى، سيُنبّه عنها في محلّها.

– وقد كانت إصبانيا محتلة للعرائش، منذ سلَّمها لها الشيخ المامون السعدي، في رابع رمضان عام تسعة عشر وألف (4 رمضان 21/1019 نونبر 1610) .

– والمعمورة، وهي المهدية، منذ سنة ثلاث وعشرين وألف (1614/1023).

قال في «الاستقصا» :[49] «أراد الإصبنيول أن يضمَّها إلى العرائش لينضبط ما بينهما من السواحل، وتتقوّى عساكره بهما، فخيَّب الله ظنَّهُ، ولقي من أهل الإسلام عرق القربة...».

– وكانت هولاندا وفرنسا تتشوَّفان إلى امتلاك هذا الساحل أيضا، وإلى ساحل السُّويرة قبل وجودها.

– وفي الوقت نفسه، يعني سنة ثلاث وعشيرن وألف (1614/1023)، تخابر دوق ساڤوا (Le Duc de Savoie) مع القراصنة في احتلال المعمورة.

– وقد كانت فرنسا طلبت من البرتقال سنة سبع وخمسين وستمائة وألف (1068/1657) أن تتخلَّى لها عن طنجة التي أخذها منهم الإنجليز، سنة ثلاث وستين وستمائة وألف (1074/1663).

– كما كانت إصبانيا وإنجلترا تحلمان أيام هذه الفوْضى باحتلال قصبة رباط الفتح.

وسائر هذه المحاولات والأطماع كانت ناتجة عن تكاثر الأوروبيين بالمغرب، وعدم وجود حكومة مركزية مُوحَّدة مسيطرة عليه كلِّه من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه.

– فهولاندا كانت تريد الاستيلاء على المراكز التي تعنيها من سواحل المغرب لتُضايق الإصبان والبرتقال، وتعمل على إبطال القرصنة منها، وهيهات هيهات في ذلك الوقت أنْ يمكن لسفنها أن تسير في أمان إلى الهند.

– وفرنسا أرادت أخذ الساحل الذي بُنيت به الصويرة، لتَضْغط على أمراء المغرب في الجنوب، وتُضايق على الإصبان هنالك.

– وإنجلترا، مكَّنها احتلالها لطنجة من حرية مرور أساطيلها من المحيط إلى البحر الأبيض المتوسط.

كما أنَّها كانت تطلب من الأمراء السَّعديين مساعدتها على إحداث مرسى بالوليدية لتعزيز مركزها التجاري بقبائل الحوز المغربي، ولذلك كانت تتمنَّى احتلالها أيام الفتنة.

49) ص 119 من ج 4، طبع القاهرة. وص 261 من ج 5 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

– ودوق ساقوا (Le Duc de Savoie)، أراد احتلال المعمورة لمضايقة إصبانيا في مركزها السياسي والتجاري بالعُدْوتين السلاوية والرباطية، وفي ذلك دليل على ما كان لهما من الأهمية العظمى في ذلك العهد.

## ظهور المولى الرشيد

وفي أثناء هذه الفوضى، وغليان مرجل هذه الفتن، داخل المغرب، وتظافر الثُّوار على الاستبداد بالملْك، واضطراب السياسة الخارجية، وتسابق دول أوربا إلى احتلال ما ذكرناه من الشواطئ المغربية، وفرض سياستها الاستعمارية، ظهر صقر الدولة الشريفة العلوية، المولى الرشيد بالجنوب، وانقضَّ على الثُّوار، والتقطهم الواحد بعد الآخر، فأنزلهم من صياصيهم، وقادهم من نواصيهم، وكوّن الدولة ووحّدها، وأبرزها للعيان وأوجدها، ورفع شأنها ومهَّدها، وجمع الكلمة عليه، وبُويع له بعد أخيه المولى مَحمد سنة خمس وسبعين وألف (1664/1075).

ثم هدّ ركن زاوية الدلاء، واستولى عليها ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف (8 محرم 18/1079 يونيو 1668)، وشرّد الخَضِر غَيْلان إلى الجزائر، فاستراح منه. وهكذا تتبّع باقي الثوار بمراكش والسوس، فقضى عليهم...

## إخضاع أندلس القصبة
## وضَمّ القرصنة والأسطول للدولة العلوية.

ثم أخضع لسيطرته أندلس القصبة الرباطية، وجعل حدّاً لقرصنتهم التي كانوا مستقلّين بها، يستغلُّونها لأنفسهم، فضمَّها إليه وجعلها تحت نظره وأمره، وصَارَتْ أساطيلها معدودة في جملة أساطيل الدولة، وصار ملوكها هم الذين يُجهِّزون السفن وينفقون على إنشائها، وتكون ملْكاً للدولة، وازداد عددها بالنسبة لما كانت عليه قبل ذلك، لمّا كان الأفراد هم الذين يتولَّون إنشاءها وتجهيزها.

قال جان بابتيست إسطيل (Jean Baptiste Estelle)، وكان قنصلاً لفرنسا بالعدوتين في العهد الإسماعيلي :

أنشأ المولى إسماعيل سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (1110/1698) ثمان سفن. وكان لابن عائشة سفينة خاصّة به ملكاً له، وهي التّاسعة، وكفّ تجّار العدوتين عن بناء السفن على نفقتهم، لِتولّي السلطان أمرها، ولأنّهم صاروا لا يحصّلون على نفع شخصي يعود عليهم منها.

وكان الملوك العلويون يُسندون أمر إنشاء السفن وتجهيزها لقبطان المرسى المكلّف بتدبير شؤونها، ويُنفق عليها من المداخيل الديوانية والضرائب المفروضة على دخول السفن إليها والخروج منها، وعلى السلَع التي توسق منها وتوضع فيها، وهي عشرة في المائة، تُؤدّى على كل سلعة تجارية، ما عدا الجلد، فإنّه كان يؤدّي التجّار عنه خمساً وعشرين في المائة. وبذلك كانت مداخيل الديوانة عظيمة جداً، تحصّل فيها من يناير سنة سبع وتسعين وستمائة وألف (يناير 1697/رجب 1098)، إلي يونيو سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (يونيو 1698/حجة 1099)، مائتا ألف إبرة (200.000)، وهذا قدر له بال في ذلك الوقت.

وإذا اطّلع السلطان على خيانة من قُبْطان المرسى في النّفقات التجهيزية، عزله، وأغرمه ستة أو سبعة قناطير من الفضة، وربّما جلَدَه جزاء فعله وخيانته.

## كيفية تجهيز السفن بالرجال

أما تجهيز السفن بالرجال، فكان كما يلي :

* أركان الحرب أو قيادة السفينة، وتشتمل على :

القبطان، وهو الرئيس، وينْضَمُّ إليه خلفاؤه، وفي الغالب يكونون من الأجانب الذين أسلموا.

* ويُلحق بأركان الحرب، أو رياسة السفينة أرباب المِهَن، والفنّيون والمختصّون بالوظائف المهمّة بالسفينة، كالقائد أو المرشد، والربّان المكلف بنشر وطيٍّ الشُّرُع، وصاحب الشاقور، أو النجّار، والقلفاط، والمدفعيون، وأصحاب أفواه المدافع، والجرّاح، والكاتب، وهو بالسفينة بمنزلة الكوميسير.

* وبعد هؤلاء المختصّين بالوظائف، يأتي النوتية، أو البحّارة، وجلُّهم من الأسارى النّصارى المأخوذين من الخمسمائة أسير الموجودين دائماً بالعدوتين.

وبعضهم كان شغله نشر القلوع وطيُّها، والبعض يُستعمل في تسيير السفينة عند سكون الرياح بالمجاذيف.

ولا يشارك الأسارى في المعارك عند نشوبها مع سفن أخرى، خشية أن يصدر منهم ما يعوقها أو يفسدها، لعدم الثِّقة بهم، لاسيما وقد وقع منهم ذلك في بعض الأحيان، وهم دائماً يترصَّدون الفرص للفرار، أو إعانة العدو، أو السَّيْطرة على السفينة، إنْ وجدوا لذلك سبيلا.

* وبعد هؤلاء العملة وذوي الاختصاص بالوظائف، ياتي الجند، فتحمل كل سفينة عدداً منه بقدر أهميتها وكبرها، وما تحتاج إليه منه.

وكل جندي يكون مُسلَّحاً تسليحاً كاملاً بالسيوف والخناجر والشواقير والمُسدَّسات.

ولا يشتغل أثناء السفر المعتاد في البحر بشؤون السفينة، وإنَّما يشارك في الهجوم على السفن التجارية أو الحربية التي يريد الرئيس مهاجمتها أو اقتفاءها.

وهؤلاء الجنود مختارون من شباب الأندلس والمغاربة الأقوياء الأشدَّاء، ويعتبرون أنفسهم مجاهدين في سبيل الله.

وكان جلُّ المسلمين بضواحي العدوتين يتسابقون إلى هذه المكرمة، وحتَّى من القبائل الأخرى، طلباً للأجر والغنيمة.

وكانت الحكومة تُسقط على كل جندي باع نفسه في سبيل الله، ولجَّ في البحر، الضرائب، وتَخْلُفُه في أهله وتقضي حوائجه وحوائج أسرته، مُدَّة غيبته.

وهكذا كان ملوك الدولة العلوية يعملون كلَّ ما فيه تقوية الجيش البحري، والرَّفع من شأنه وشأن الأسطول، وتشجيع القرصنة.

وسياتي مزيد بيان لهذا في أخبار الأسطول والقرصنة في عهد السلطان سيدي محمد ابن عبد الله، رحمه الله.

# المبحث الثاني

# أعمال الأسطول والقرصنة
# في عهد المولى الرشيد

لمَّا تمَّ الأمر للمولى الرشيد، ولم يبق منازع ينازعه في الملك في المغرب، نظر في السياسة الخارجية، فامتعض لموقف أوروبّا من مملكته، وتحزُّبها عليه، فصمَّم العزم على الانتقام منها، ومحو ما اعتبره عاراً في حقِّه، فأصدر حينئذ أوامره إلى قراصينه بالخروج إلى البحر، ومطاردة كل سفينة مسيحية يصادفونها ماخرة فيه، بقصد أخذها أو إغراقها أو إحراقها، وإلحاق ما قدروا عليه من الأذى والضَّرر بها.

وبمقتضى هذه الأوامر الملكية، أخذ قراصنة سلا ورباط الفتح أُهبتهم، وأعدّوا عدّتهم، وهيّؤوا سفنهم، وكان عددها تسعة مراكب، من بينها «فركاطة» أُنشأت بالمصنع الذي كانت تُصنع به السفن السلاوية الرباطية، فيها أربعة وعشرون مدفعاً، وثلاثمائة بحّار، وخرجوا إلى البحر كسابق عادتهم، يتخلّلون رؤوس السواحل الأوروبية، ويترصَّدون السفن التجارية، ويغالطون المراكب الحربية، ويقاومونها بشدة وصرامة لا هوادة فيها.

وفي زمن قريب، أسروا عدّة سفن إنجليزية في بحر المانش، وساقوها إلى نهر أبي رقراق.

وجواباً عن هذه الغارات الحربية البحرية، أرادت بعض دول أوروبّا أن تُظهر لسلا ورباط الفتح قوتها البحرية، تخويفاً وتهديداً وإنذاراً لهما.

فأمر ملك فرنسا، لويس الرابع عشر، نائب الأميرال البحري في عمارته البحرية الحربية، بالتجوُّل في البحر الأبيض المتوسط.

وكان غرضه بذلك تأمين تجارة فرنسا، وحماية السياحة بسواحل قادس، وإظهار القوة لقراصنة الجزائر وتونس وطرابلس والعدوتين الرقراقيتين بالمغرب الأقصى، فذهبت قطعتان إلى جبل طارق لتمنع القراصنة من المرور منه، وذهبت قطع أخرى إلى مصبٍ نهر أبي رقراق، وأرست أمام سلا ورباط الفتح.

وكان وصول هذا الأسطول المُخوِّف المهدد إليهما يوم الثامن والعشرين من شهر مايو سنة سبعين وستمائة وألف (28 مايو 8/1670 محرم 1081)، فوجد قطعاً من الأسطول الهولاندي قد سبقته إلى مرسى المصبٍ ببضعة أيام، لتعضِّد قنصل هولاندا في المخابرة الجارية بينه وبين أولي الأمر في تجديد معاهدة سنة ثمان وخمسين وستمائة وألف (1069/1658).

وأقام نائب الأميرال الفرنسي أمام العدوتين مُّدة نصف شهر، ورجع إلى قادس، وخلَّف بعض القطع واقفة لخفر الساحل ومراقبته.

ولم يكتف لويس الرابع عشر بهذا، فجدَّد سنة سبعين وستمائة وألف (1082/1670) أوامره بتجهيز أسطول آخر لمحاربة ومطاردة قراصنة سلا والرباط، ومحاصرة مرساهما، والتجوُّل بالساحل الممتدٍ من سلا إلى المعمورة.

وفي يوم من أيام الحصار، حاولتْ خمس سفن قرصانية مجاوزة المصبٍ والدخول إلى الوادي، فمنعتها الوحدات الفرنسية الراسية أمامه من الدخول، ووقعت معركة حامية بين الطرفين، استمرٍ فيها رمْي القنابل بالمدافع من الجانبين، مدة خمس ساعات، وأظهر البحّارة المغاربة شجاعة عظيمة، وفضّلوا الجنوح إلى البرّ على الاستسلام للعدو.

وعَقِبَ هذه المعركة، أقلع نائب الأميرال الفرنسي مولِّياً وجهه شطر مدينة قادس، وخلَّف في محلِّه خلفاً عنه الفارس شاطو رونو، وحاول نائب الأميرال الفرنسي المذكور أن يبيِّض وجهه عند ملكه بأنَّه انتصر علي قراصنة العدوتين، فلم يقتنع الملك بذلك وغضٍ عنه.

لأنٍّ هذا الحصار والمطاولة والمماطلة التي كان المقصود منها تحطيم أسطول القرصنة السلاوية الرباطية لم يَأْتِ بشيء يُذكر، ولم تحصل منه نتيجة تُعتبر أو تُسطَّر، فضلاً عنْ أنْ يُنَوَّه بصاحبها أو يُشكر.

لاسيما وهؤلاء القراصنة، بدلاً من خوفهم أو تأثُّرهم بمحاصرة مرساهم، ازدادوا حماساً وتصلُّباً وطلباً للغنيمة والانتقام من عدوهم، فأسروا في السادس عشر من أكتوبر سنة سبعين وستمائة وألف (16 أكتوبر 1/1670 جمادى الآخرة 1081) فركاطة فرنسية.

وفي الثامن والعشرين من مايو سنة إحدى وسبعين وستمائة وألف (28 مايو 1671/18 محرم 1082)، أسروا سفينة أخرى تابعة للشركة الهندية.

وفي شهر يناير سنة اثنتين وسبعين وستمائة وألف (يناير 1672/رمضان 1082) سقطت في أيديهم سفينة أخرى، فكانت لديهم غنيمة باردة.

فاحتدم الملك لويس الرابع عشر غيظاً، وأسند الإمارة على طرف من أسطوله أيضاً إلى الفارس شاطو رونو، وأمره بالتجوُّل بالبحر الأبيض المتوسط، وبوغاز جبل طارق، والسواحل المحيطية إلى بحر المانش، ومطاردة سفن قراصنة سلا والرباط، واتِّخاذ كلِّ ما لديْه من حيلة وقوة في أسرها، ومنعها من الدخول إلى مرسى العدوتين أو الخروج منها، والتجوُّل في المناطق البحرية التي أُسندت إليه مراقبتها، وأعلمه بأنَّه إذا امتنع ملك المغرب من الصلح المعروض عليه، أو ألحَّ قراصنة العدوتين السلاوية والرباطية في متابعة قرصنتهما، فإنَّ العهدة في ذلك عليه وعليهم، وسائر الاحتياطات اللاَّزمة ستُتَّخذ لمحاربتهم حرباً قاسية شديدة، لا هوادة فيها.

ولكنَّ نشوب الحرب بين فرنسا وهولاندا في سادس أبريل سنة اثنين وسبعين وستمائة وألف (6 أبريل 1672/29 حجة 1082)، حالتْ دون تنفيذ هذه الأوامر الحربية البحرية، فبقيت حِبْراً على ورق، وطبَّقها الأميرال المذكور على الأسطول الهولاندي، واستمرَّ قراصنة سلا والرباط في قرصنتهم وهجومهم على الأساطيل الفرنسية المجاهرة بعداوتهم وتتبُّع حركاتهم في البحار، وأخذها مهما وجدوا لها سبيلا.

ثم توفي السلطان المولى الرشيد رحمه الله في حادثة وقعت له وهو راكب مُهْراً بجنان المسرَّة بمراكش، ثاني عيد النحر سنة اثنتين وثمانين وألف (11 حجة 1082/9 أبريل 1672)، وخَلَفَهُ أخوه السلطان الأعظم، أبو النَّصر، المولى إسماعيل.

## المبحث الثالث

# الأسطول المغربي السلاوي الرباطي والقرصنة في العهد الإسماعيلي

استمرت القرصنة المغربية عموماً، والسلاوية الرباطية خصوصاً، جارية في عملها وغاراتها البحرية المستمرّة المتواصلة بعد وفاة المولى الرشيد، إلاّ أنّها آلت غنائمها كلُّها أو جلُّها إلى السلطان والدولة الإسماعيلية بعده، ولم يبق للقراصنة من الغنائم إلاّ جزء مقسوم ونزر يسير معلوم.

وكان ملوك أوروبّا ورؤساء الحكم فيها يعتبرون قراصنة سلا والرباط هم المسؤولون عن أعمالهم القرصانية، ويتخابرون معهم في عقد العقود، وتقرير الصلح وربط العهود، ثم يتوجّهون إلى الحكومة المركزية لإتمام المخابرة في شأن فكاك الأسرى بصفة نهائية رسمية.

وبمقتضى هذا، أمضى القبطان البحري جون ناربرو (John Narbrough) الهولاندي مع رؤساء القرصنة السلاوية الرباطية في شهر شتنبر سنة ست وسبعين وستمائة وألف (شتنبر 1676/ رجب 1087) هدنة لمدة عامين.

ووجّه كولبير (Colbert)، بتاريخ ثاني مايو سنة تسع وسبعين وستمائة وألف (2 مايو 18/1679 ربيع الأول 1090) للكونط ديسطري (Le Comte d'Estrées) نسخة من المعاهدة الصلحية المعقودة مع الجزائر، بتاريخ سابع عشر مايو سنة ست وستين وستمائة وألف (17 مايو 12/1666 قعدة 1076) ومع تونس بتاريخ ثامن وعشْرِي يونيو سنة اثنتين وسبعين وستمائة وألف (28 يونيو 25/1672 ربيع الأول 1083)، وأمره أن يمليها على رجال القرصنة السلاوية الرباطية، ويحاول أن يعقد معهم صلحاً مطابقاً لما تضمّنته، ونبّهه على ألا يكون هذا الصلح معقوداً باسم الملك لويس الرابع عشر، وإنّما باسم أميراله فقط.

ثمَّ إنَّ لويس الرابع عشر، أصدر أمره بتاريخ ثالث وعشري مارس سنة ثمانين وستمائة وألف (23 مارس 1680/27 محرم 1091) لأميراله شاطو رونو بالخروج للبحر في عمارة من أسطوله لحراسة الشواطئ الفرنسية ومطاردة السفن السلاوية الرباطية، ومحاصرة مرسى سلا، والشروع في المخابرة مع حاكمها في عقد صلح يتعهّد فيه بمصادقة السلطان عليه.

ويتضمَّن إيقاف كل قرصنة ومهاجمة للأساطيل الفرنسية، وتسريح جميع الأسرى الفرنسيين المستعبدين بالمغرب دون استثناء واحد منهم، وإلاَّ فيهدِّده بأنَّه سيعمل كلَّ ما استطاع في تحطيم سائر الأساطيل القرصانية السلاوية الرباطية.

وحتّم عليه أن يعمل سائر جهوده في إتمام هذه المهمَّة التي يعلّق الملك عليها أهمية كبيرة، ففشل هذا الأميرال فشلاً تاماً في مأموريته، ولم يحصّل على طائل.

وفي سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (1681/1092) استُؤنفت مطاردة الأساطيل السلاوية الرباطية، وتمكّن جان بارط (Jean Bart) وبعض ضباط الأميرال المذكور من أخذ أربعة سفن سلاوية رباطية وأسر ثلاثمائة من بحّارتها، فأثَّرت هذه الكوارث على سير المخابرة في عقد الصلح.

وبعد ما أُمضي أوَّلاً باتِّفاق تمَّ مع أحد قباطنة البحر بالمعمورة بتاريخ ثالث عشر يوليوز سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (13 يوليوز 1681/20 جمادى الآخرة 1091)، وأحد القُوَّاد المغاربة المُسمَّى القائد عمر، أُوقف الأمر وبقي معلَّقاً، وبعد ذلك أُمضي على عقد صلح بين المغرب وفرنسا في سانجرمان آن لي (Saint-Germain-en-Laye) على يد السفير المغربي الحاج محمد تميم التطواني بتاريخ تاسع وعشري يناير سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (29 يناير 1682/13 محرم 1092).

وكانت إنجلترا مهتمَّة أيضاً بعقد صلح مع المغرب، فتمَّ إمضاؤه بتاريخ ثاني أبريل سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (2 أبريل 1682/23 ربيع الأول 1092)، على يد السفير أحمد ابن حدُّو.

ولكنَّ هذا الصُّلح لم يجعل حدّاً نهائيا لمهاجمة السفن الإنجليزية، فأسر قراصنة سلا والرباط ثلاثين قطعة إنجليزية بعد رجوع السفير المذكور إلى المغرب.

ودام تردد الأسطول الإنجليزي مدَّة عامَيْن كاملين بين سلا وآسفي، لعلَّه يؤثِّر على السلطان في التزام تطبيق المعاهدة الصلحية المتَّفق عليها، وغَضَّتْ الحكومة الإنجليزية أثناء هذه الفترة نظرها عن «الكونْطْرَبانْدو» الذي كان يشتغل به تُجَّار العدوتين وتُجَّار الإنجليز وهولاندا.

هذا ولم يكن تنفيذ معاهدة سانجرمان آن لي سهلاً، لأنَّ السلطان المولى إسماعيل طلب واشتدَّ في طلبه بتحرير جميع المساجين المأسورين المستعبدين عندهم، وماطل كل المماطلة، وأحدث من العراقيل كل ما يخطر بالبال في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين عنده، إلاَّ في مقابلة إطلاق سراح الأسرى المغاربة.

فوجَّه حينئذٍ لويس الرابع عشر سفيره سَانْت أمان (Saint-Amans) إلى السلطان مطالباً بتنفيذ المعاهدةً. وبعد مخابرة طويلة شاقَّة، لمْ يحصل على طائل، حتى إنَّه كتب إلى البلاط الملكي الفرنسي يقول : «إنَّه لمْ ير أمَّة أصعب مِراساً ومراوغة من «المُورْ»، يعني المغاربة.

وقد قدَّمنا خبر سفارة هذا السفير ومآلها عند الكلام على السُّفَراء الذين تردَّدوا بين المولى إسماعيل ولويس الرابع عشر في شأن احترام معاهدة الصلْح وفكاك الأسرى.

ثم إنَّه نصح حكومته أنْ تقوم بمظاهرة حربية جديدة في السَّواحل المغربية، منْ تطوان إلى مرسى العدوتين : سلا والرباط، لعلَّها تُؤثِّر بذلك على السلاويين الرباطيين، لأنَّهم وإنْ كانوا لم يتجاهروا بمهاجمة السفن الفرنسية، فإنَّهم كانوا يُعينون ويُحبِّذون الأعمال القرصانية التي تقوم بها الأساطيل الجزائرية، فتضاعفت الحوادث وتوالت الخسائر.

وبهذا وشِبْهه، كما يقول الفرنسيون، طالت قائمة مخالفة معاهدة صلح سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1092/1682)، وتدمَّر من ذلك ملك فرنسا، فأوْحى إلى قائد أساطيله الماريشال ديسري، وكان بقادس، أنْ يأخذ طرفاً من أسطوله، ويتجوَّل به بالسواحل المغربية، لعلَّه يحُدُّ من شِدَّة القرصنة السلاوية الرباطية...

وقال : لعلَّهم لا يذْعنون لاحترام المعاهدة المعقودة إلاَّ إذا أُخذت بعض سفنهم، ولا تُردُّ لهم إلاَّ بمعاوضة.

وفي الوقت نفسه أمر لويس الرابع عشر دوق مورطمار (Duc de Mortemart) وكان قائداً بحرياً، أنْ يطارد ويأخذ كل سفينة مغربية يقدر على أخذها، وخصوصاً سفينة الرئيس عبد الله بن عائشة الذي اشتهر بجُرأته وجسارته وتصدِّيه لاصطياد السفن الفرنسية.

وكان صدور هذه الأوامر الصارمة في تاسع مايو سنة سبع وثمانين وستمائة وألف (9 مايو 26/1687 جمادى الآخرة 1098)، ووقع التنصيص فيها على إصْلاء السلاويين والرباطيين بنار الحرب الحامية، وعدم الكفِّ عنهم، حتَّى تُجاب جميع المطالب المقدَّمة إليهم.

وفي ثاني وعشري يونيو سنة سبع وثمانين وستمائة وألف (22 يونيو 10/1687 شعبان 1098)، أصدر الدُّوق المذكور أعلاه أمره إلى أحد القُواد البحريين الذين إلى نظره بالجولان

في السَّواحل المغربية، من رأس سان سپارطيل إلى مرسى سلا، لعلَّه يتمكَّن من أخذ سفينة من السفن المغربية السلاوية الرباطية، أو يأخذ سفينة هولاندية بلغه أنَّها كانت مُبحرة من أمسطردام إلى طنجة حاملة شحنة من العدة والسلاح المتنوِّع، اشتراه يهودي للسلطان المولى إِسماعيل من هولاندا، فلمْ يكنْ لهذه الجولة البحرية فائدة، ولم يحصل صاحبها على طائل، كما لمْ تحصلْ نتيجة من المخابرة في إطلاق سراح الأسرى.

وفي رابع غشت سنة سبع وثمانين وستمائة وألف (4 غشت 26/1687 رمضان 1098) تولى القائد البحري تُورْڤِيلْ (Tourville) محاربة الأسطولَيْن القرصانييْن : الجزائري والسلاوي الرباطي حربا شعواء لا شَفَقَةَ فيها ولا رحمة، فبلغ الخبر إلى قراصنة سلا والرباط، فاحتاطوا لأنفسهم أشدَّ الاحتياط، ولم تلتق سفينة من سفنهم بالأسطول الفرنسي قطُّ في ذلك الوقت.

وتردَّد هذا القائد البحري على مرسى العدوتين مراراً، سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (1098/1688)، لعلَّه يؤثِّر على السلطان فتلين قناته، فلم تَلِنْ.

وأسر قراصنة العدوتين في هذا التاريخ مائتين وخمسة وستين أسيراً، زيادة على اثنتين وأربعين سفينة فرنسية كانت محجوزة عندهم بأمر من السلطان المذكور.

ومع هذا كله، فإن لويس الرابع عشر خوَّل قراصنة سلا والرباط هدنة مُوقَّتة بتاريخ عشرين مايو سنة تسع وثمانين وستمائة وألف (20 مايو 29/1689 رجب 1100) تهدئة لهم.

وكان السلطان في هذا الوقت مُهتمّاً ببناء ست فرگاطات بمعمل صنع السفن بالرباط، في كل واحدة منها ثمانية عشر مدفعا.

فاتَّفق مع قنصل هولاندا على شراء ما تحتاج إليه من الأدوات اللاّزمة لتجهيزها من أمستردام، وأنعم عليه في مقابلة ذلك باطلاق سراح الأسرى الهولانديين الذين كانوا عنده.

وتطوّع الأميرال عبد الله بن عائشة بالخروج في عمارته لمراقبة السواحل المغربية، والانتقام من الأساطيل الفرنسية المتردِّدة عليها.

وجاء في مذكرة بعض القناصل الفرنسيين الذين كانوا بالمغرب في ذلك العهد، أنَّ قراصنة سلا والرباط جهّزوا في خريف سنة اثنتين وتسعين وستمائة وألف (1104/1692) ثلاثة عشر فرگاطة من أحسن طراز وأجمله، تحمل كل واحدة منها ثمانية عشر أو عشرين مدفعاً، وفي كل واحدة مائة أو مائة وعشرون بحّاراً، كلّهم مدربون على ركوب البحر، عارفون بما تتطلَّبه منهم مِهْنتهم. ثم قال :

إلاَّ أنهَّم كلُّهم غِلاظ شِداد لا يعصون رؤساءهم ويفعلون ما يؤمرون.

وبعد هذه الحوادث، اشتغل لويس الرابع عشر بحروبه مع أنداده في أوربّا عن الاهتمام بقراصنة الرباط وسلا، واستمرُّوا في غاراتهم وأعمالهم، إلاَّ أنَّهم كانوا في هذه المدَّة يتسلّطون على الأساطيل التجارية الإنجليزية أكثر من غيرها.

ولمّا كانت سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693)، عادتْ الحكومة الفرنسية إلى إظهار الرَّغْبة في تنفيذ وتطبيق الصُّلح الذي بقي معلّقاً منذ سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1092/1682)، فعيّنت سفيرها فرانسوا دو سانت أولون (François de Saint-Olon)، ووجَّهته إلى المولى إسماعيل، وأمرته أن يترضّاه، ويباشر معه سائر المسائل المعلَّقة منذ الإمضاء على الصُّلح المتقدِّم.

وقد تقدَّمتْ أخبار سفارته مُفصَّلة عند الكلام على السفراء الذين تردَّدوا بين فرنسا والمولى إسماعيل.

وزيادة على ذلك، يطلب منه أن تكون السفن الصغيرة التجارية الماخرة في السواحل البرتقالية، أو الذاهبة إلى بعض الجزر في أمن تامٍّ من قراصنة الرباط وسلا.

ولكنَّ المولى إسماعيل طالب بإلحاح مرَّةً أخرى تحرير جميع الأسرى، وعلّق كل مذاكرة أو قبولها على تنفيذ ذلك والتَّعجيل به.

وبمقتضى ذلك لمْ ينجح السفير في سفارته، ورجع بخُفَّيْ حُنَيْن.

وفي شهر أبريل سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (أبريل 1694/شعبان 1105)، انقطعتْ المذاكرة في شأن إطلاق سراح الأسرى الفلامانكيين، بسبب عدم إخلاص القنصل الهولاندي وسوء أدبه.

وبعد هذا، تضامنت الدول الأوروبية فيما بينها، وصارت أساطيلها تتردّد على مرسى سلا.

فقام بمظاهرة أمام مرساها الأسطول الإنجليزي، وبعده الأسطول البرتقالي، وتردّد ذاهباً آتياً بينها وبين حلق المعمورة، مطالباً بإطلاق سراح حاكم جزر آشور (Les Açores)، وهي جزر بوسط المحيط الأطلسي، تابعة للبرتقال، كان أسره الرئيس روسايْ، واحتفظ به السلطان عِنْدَهُ.

وزعم الأسطول البرتقالي أنَّه حاصر مدخل المرسى السلاوي الرباطي، ولكنَّ سفن الرؤساء عبد الله بن عائشة وروسايْ وفنِّيش كانوا في عمارة بحرية، ورجعوا منها، ودخلوا

المرسى بمرأىً من الأسطول البرتقالي المحاصر لها، ولمْ يستطع منعها، وإنّما أخرج بعض المدافع من بُعْدٍ، فلمْ تُصبْها بسوء.

ولمّا رأى ذلك عامل العدوتين، صرّح قائلا : «إن هذا الأسطول يهودي»، كِناية عن شدّة خوفه وذُلّه، وصار الصبيان يصيحون في الأزقة : «أنظروا ما يفعله دجاج الماء»، وكان المغاربة يسمّون البرتقال :«دجاج الماء» وبعد ذلك انسحب الأسطول.

وزادت هذه القضية الرؤساء المذكورين شهرة وذكراً خارج المغرب وداخله، وخصوصاً الرئيس عبد الله بن عائشة.

ثمّ عادت الأساطيل البرتقالية إلى الجولان بالسواحل المغربية سنة ست وتسعين وستمائة وألف (1107/1696)، ولكنْ بدون أدنى فائدة، وازداد المغاربة ازْدِراءً بالبرتقال وأسطوله الذي يعدّونه «دجاج الماء»، كما كانوا يقولون.

وقد رمى هذا الأسطول سلا بقنابل مدافعه مرّتيْن في شهري : يونيو ويوليوز (ذو القعدة والحجة من السنة المذكورة)، ولم يحصّل على طائل، وما وَهَنَ السلاويون الرباطيون، وما ضَعُفوا وما استكانوا، وسَخِروا من ضربه، حتّى إنّ بعض الفرنسيين البحّارة الذين كانوا حاضرين قالوا : «إنّما كان البرتقال يَحْرِقُ ببارودِه العصافير، لا غير».

وفي هذه السنّة، حصل فتور في قرصنة العُدوتيْن، لكنّ الأميرال عبد الله بن عائشة أحياها، وخرج خمس مرات : في مايو سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (مايو 1698/ شوال 1109)، وحصّل على خمس غنائم، فسُمع الصِّياح بأوروبا من كلِّ دولة وناحية.

وفي هذه السنة أيضا، جهّز لويس الرابع عشر أسطولاً آخر، وأمره بمطاردة ومحاربة قراصنة سلا والرباط، ومطالبة السلطان المولى إسماعيل بتوجيه سفيره لعقد صلح مستمرٍّ بعدما خوّله هدنة موقّتة.

فخرج هذا الأسطول من مراسي فرنسا، مجهّزاً أتمّ تجهيز، وطاف بالسواحل الإصبانية والبرتقالية والمغربية، محاولاً مطاردة السفن السلاوية الرباطية، فلمْ يتمكّنْ منها.

وكان الأميرال عبد الله بن عائشة وأخوه الرئيس عبد الرحمان في جولة بحرية، ورَجَعَا منها لمرساهما بأبي رقراق بالرباط وسلا بسلام، ولم يقدرْ عليْهما الأسطول الفرنسي المترصّد لهما، ولم ينلْهما بسوء، وكذا سائر القراصنة الذين كانوا في غاراتٍ بحرية.

وبعد هذه الحوادث كلِّها، اقتضى نظر المولى إسماعيل أنْ يعيّن أميراله عبد الله بن عائشة للسِّفارة والمخابرة في عقد الصلح مع الدول المسيحية، وأعطاه تفويضاً كاملاً بذلك، آخر شهر غشت سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (آخر غشت 1698/ أواخر صفر 1110).

وقد تقدَّم الكلام عن هذه السفارة مفصَّلاً في الفصول الراجعة لمبادلة السفراء بين المولى إسماعيل وبعض دول أوروبّا.

ومجمل ذلك أنَّه سافر في سفينة فرنسية اسمها «فاڤوري» (Favori) من أسطول شاطو رونو، وأنزله بمدينة بريسط، وترك بسلا أو الرباط أحد أعيان الفرنسيين المُسمَّى دو لا جاي (De la Jaille) رهينة حتى يرجع السفير ابن عائشة من سفارته سالماً.

ولم تأت سفارة ابن عائشة هذه بنتيجة تُذكر، لعدم الاتِّفاق بين الطرفين على فداء الأسرى وكيفيته.

وبارح فرنسا راجعاً إلى المغرب في الرابع والعشرين من مايو سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (24 مايو 1699/24 قعدة 1110)، ووصل إلى سلا في ثامن يونيو (8 يونيو/9 حجة) من السنة المذكورة.

وبعد فشل هذه السفارة، قرّرت حكومة لويس الرابع عشر مقابلة العَدَاء بالعَدَاء، وأصدرت أوامرها إلى أحد رؤساء بحريتها بأنْ يرابط أمام مرسى العُدْوتين، ويحاول أخذ كلّ سفينة خارجة أو داخلة إليها غَصْباً.

وإذا أراد السلطان الإمضاء على الصلح فإنّ الأسطول الفرنسي يكفّ عن العداء والمحاصرة، ويغضّ الطرف عن «الكونطراباندو» الحربي.

ويقول الفرنسيون: إنّ السفير ابن عائشة، لمَّا رجع من سفارته، قصّ على السلطان المولى اسماعيل ما رآه في بلاط لويس الرابع عشر من الفخفخة والتَّرف، وأخبره بجمال ابنة له تُسمّى الأميرة «دو كونتي» (de Conti)، فكلّفه السلطان بخطبتها له، فخطبها بواسطة الأميرال بونشارطران (Pontchartrain)، فلمْ يُجبْ لويس الرابع عشر بشيء عن هذه الخُطبة، وبقي الأمر مسكوتاً عنه. وكتب الفرنسيون كثيراً في هذه الخطبة، وصوّروها كأنها رواية تمثيلية، وتكلّم فيها حتى شعراؤهم.

أمَّا مُؤَرِّخُو المغاربة فإنَّهمْ لمْ يتعرّضوا لها، ولم يذكروها في مؤلّفاتهم أصلاً.

وبعد هذه الخِطْبة المزعومة، جدّد ملك فرنسا أوامره بمتابعة حصار مرسى العدوتين والتَّضْييق عليها بكل ما يمكن من الوسائل.

قالوا : وقلّت مهاجمة القراصين السلاوية الرباطية للسفن الفرنسية عَقِبَ ذلك، لاسيما بعد نكبة الأميرال عبد الله بن عائشة.

ولم يتمّ صلح نهائي مُستقرّ مُستمرّ بين فرنسا والمغرب، إلاَّ بعد مرور ما يزيد على نصف قرن من هذا الزمن، واشتغلت فرنسا بما هو أهمُّ عندها من قراصنة سلا والرباط، وصرفت وجهها للحروب الواقعة في القارة الأوروبية، لأنَّها أهمُّ من فكاك الأسرى بالنِّسْبة إليها.

وذكر مُؤرِّخو الفرنسيِّين أيضاً أنَّ طرفاً من الأسطول الفرنسي ضايق العدوتين السلاوية والرباطية سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وألف (1150-1149/1737)، ولمْ يبارحها حتَّى تمّ فكاك سبعمائة وإحدى وخمسين أسيراً، في عهد السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل.

# المبحث الرابع

# الأسطول المغربي والقرصنة في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله

كان الأسطول السلاوي الرباطي والقرصنة السلاوية الرباطية، على ما وصفناه من القوة والجُرْأة والتردُّد على سواحل القارة الأوروبية والتجوُّل في خلجانها ومنعرجاتها وجزرها، واختطاف سكّان المدن والقرى الساحلية حتى ضجّت دول أوروبّا من ذلك، وكَثُرَ صياحها وعويلها، وامتلأت مرسى العدوتين السلاوية والرباطية، والعواصم الكبرى، كمكناس وفاس وغيرهما بالأسرى مدة دولة المولى الرشيد وأخيه المولى إسماعيل.

ودامت وطالت هذه الحالة دهراً طويلاً، وكثُر تردّد أساطيل الدول الأوروبية على شواطئ المغرب، وخصوصاً شواطئ نهر أبي رقراق، ومحاصرة سلا، مخوّفة مُرهبة ومطالبة بعقد الصُّلح والمعاهدات وفكاك الأسرى وفدائهم، فما لانت قناة المولى اسماعيل وما وهن، وما استجاب لتنفيذ مطلب من مطالبهم التي كان يعتبرها إهانة للدولة، وتضعيفاً لها، رحمه الله.

ولمّا توفي، واختلف أولاده، وتطاحنوا على الملك، واشتعلت نيران الحروب المدنية الداخلية بينهم بسائر قبائل المغرب ومدنه، وأُهملت المصالح العليا، وتعطّلت مراسم الدولة الكبرى، وعمّ الخراب، وتفرّق الجيش البريّ والبحريّ، وتعطّلت حركة الأسطول والقرصنة السلاوية الرباطية مُدَّة طويلة من الزمن تناهز اثنين وثلاثين عاماً، إلى أنْ اجتمعت الكلمة على السلطان أبي عبد الله سيدي محمد الثالث بن عبد الله، سنة إحدى وسبعين ومائة وألف (1757/1171)، فكان من جملة ما نظر فيه من تجديد الدولة العلوية وإحياء مراسيمها الأسطول المغربي عموماً، والسلاوي الرباطي خصوصاً.

قال كواندرو (Coindreau) في كتابه «قراصنة سلا» (Les Corsaires de Salé) [50] :

لمّا تولّى سيدي محمد بن عبد الله الملك في التاريخ المتقدم، كان جيل «الحورناشيروس» قد انقرض، وكانوا يعملون في بناء وتجهيز السفن، ولم يبق من يقوم مقامهم في الاهتمام ببناء أي سفينة وتجهيزها، كما كان الشأن عندهم في ذلك.

وكانت القرصنة حصل فيها تعطيل وإهمال، وربّما دخلت في طور النَّزْع والاحتضار، ولم يبق من الأسطول الكبير الذي أقضّ مضجع الملوك والأمراء، وأعيا جيل القراصنة والرؤساء إلاّ نحو العشرة من القطَع راسية جامدة في نهر أبي رقراق وحلق المعمورة والعرائش، منذ العهد الإسماعيلي، خرقت المياه ألواحها من أسفل، وأكلها سوس الخشب من أعلى، وعلا الصدأ مدافعها، فأصبحت لا يُنْتفع بها.

فاعتنى، رحمه الله، بهذا الأسطول اعتناءً خاصاً، وأحيا معالمه، وجدّد مراسمه، وبذل جهوداً عظيمة في تجديده تجديداً يساير حالة عصره، ويضاهي الأساطيل الموجودة عند الدول البحرية في ذلك العهد، وتدارك البقية الباقية منه، وأصلح ورمّم ما أمكن ترميمه وإصلاحه من معمل السفن الذي كان أسفل حسان بالرباط.

واقترن هذا الاهتمام الكبير بما كتب له به بعض علماء عصره في منشور وضعوا عليه علاماتهم بخطوطهم، يَحُضُّونَهُ فيه على إحياء فريضة الجهاد في سبيل الله، وإعداد مُعدّاته البحرية، إذْ لا يستقيم الملك إلاّ به، إقتداء بجده وأسلافه فيما كان لهم من الاعتناء بهذا العمل العظيم العائد بالنفع المحقّق على الإسلام والمسلمين بحراسة الوطن وعمارة بيت المال.

فأمر حينئذ، رحمه الله، ببناء سفن كبيرة وواسعة جداً، تستطيع أن تقاوم هيجان البحر واصطدام أمواجه. ولكنّ سُفناً كبيرة مُجهّزة كهذه تحتاج إلى مراسٍ صالحة لدخولها إليها وخروجها منها بكل سهولة.

ولذلك اقتضى نظره بناء مرسى الصويرة.

---

50) ص 201.

## بناء مدينة الصويرة

قال الكاتب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزّال في «رحلته» ما ملَخَّصُهُ :

إن السبب في بناء مدينة الصويرة هو أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر، واتّخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الأوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش، وكان سفرها في البحر مقصوراً على شهرين في السنة، زمن الشتاء، لأنَّ المراسي مُتَّصلة بالأودية، وفي غير إبّان الشتاء يقلّ الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي، فيمنع من اجتياز القراصين بها، ويتعذّر السفر.

ففكّر السلطان، رحمه الله، في حيلة يتأتّى بها سفر قراصينه في سائر أيام السنة، فبنى ثغر السويرة واعتنى به لسلامة مرساه من الآفة المذكورة.

وزاد الغزّال أنَّه، رحمه الله، تأنّق في هذا الثغر وأتقن وضعه، وشحن الجزيرتين الدائرتين بمرساه بالمدافع كذلك، فصار القاصد للمرسى لا يدخلها إلاَّ تحت رمْي المدافع من البرج والجزيرتين معاً.

ولمَّا تمّ أمرها، جلب إليها تجّار النصارى بقصد التجارة بها، وأسقط عنهم ضريبة الأعشار، فأهرعوا إليها من كل أوْب، وانحدروا إلى مرساها من كل صوْب، فعمرت في الحين، واستمرّ الترخيص فيها مُدَّة من السنين، ثم ردّها إلى ما عليه حال المراسي الأخرى من أداء ضريبة الأعشار وغيرها من اللوازم(51).

وصارت ملْجَأً لأساطيله، تأوي إليها وتخرج منها في سائر السَّنة.

ومع ذلك بقيت مرسى العدوتين قائمة بوظيفتها ومعمل صناعتها، كما كانت سابقاً.

ثمَّ إنَّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله، لمّا قام بهذه الجهود، وأحيا الأسطول، وأيقظه من طول السُّبات والرّكود، اختار له الرؤساء المَهَرَة المُدرّبين على ركوب البحر، المخلصين للدّولة، كالرئيس الحاج الهاشمي عوّاد وولده الحاج الطّاهر عوّاد السلاويين، والرئيس الحاج التّهامي المدوُّر الرباطي، والرئيس العربي المستيري الرباطي، وهذان الأخيران كانا سفيريْن له بانجلترا والسُّويدْ لشراء الأدوات القرصانية الحربية البحرية.

وكان لا يقبل من الشبّان للانخراط في سلك البحرية إلاَّ منْ كان من الأُسر المجيدة، والأخلاق الكريمة الحميدة، والإخلاص التّام لوطنه ووظيفته ودينه، وأغدق على الجميع عطاياه

---

51) «الاستقصا»، ص 99، طبع القاهرة، ج 4. وص 28 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وإنعامه وحُرْمته ورعايته وعنايته، فكانوا مرموقين من جميع الأمة المغربية بعين الاعتبار والوقار والاحتفاء.

وجعل الشَّرط الأساسي في مُوظَّفيه البحريين، الغنَى واليسار، ليكون كل رئيس مسؤولاً عن سفينته، وضامناً لها وما تحمله من عدَّة وسلاح وسِلَع، إذا وقع لها عطب، وثبت أنَّه فرّط وأخلّ بواجبه.

ولمّا خرج لتفقُّد ثغور المغرب وزيارتها بعد انعقاد بيعته، واجتماع الكلمة عليه، ووصل من مكناس إلى سلا، عبر الوادي، ونزل برباط الفتح، وأقام به أياماً، أمر بإنشاء سفينتيْن، إحداهما لأهل سلا، وأخرى لأهل الرباط، وكانت عندهم سفينة واحدة مشتركة بينهم، تمّ إنشاؤها أيام الفترة[52].

وفيها كانوا قد خرجوا إلى حصن أكادير، ومنه بعثوا وفدهم إليه، وهو يومئذ خليفة بمراكش، فأكرم الرُّسل، وبعث معهم مالاً كثيراً إلى المجاهدين بالعدوتيْن.

وقال أبُو عبد الله الضُعيّف في مجموعة مقيداته التاريخية[53] :

لمّا مرّ سيدي محمد بن عبد الله بالعدوتيْن، أمر بإنشاء السُّفن، فأُنشئت سفينة الرئيس الكوّار وسفينة الرئيس مُحمَّد عوّاد.

ثُمَّ قال : مرّ سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، على الرباط، فتلقّاه أهلها وأهل سلا بالأفراح والهدايا، وزار المنجرة التي تُنشأ بها السفن، وطلع إلى سفينة قبل إرسالها في البحر، وتطوّف بها، وصار يرمي للناس من أعلاها الدراهم والدنانير، وهم يتخطّفونها، ويلتقطونها عموماً وخصوصاً حتّى ملؤوا بها جيوبهم .

وقال أيضا[54] : مرّ سيدي محمد بن عبد الله في إحدى جولاته التفقُّدية – وهو إذ ذاك أمير – على العدوتيْن، فوجد أهلهما يصنعون سفينة مشتركة بينهم من خشب جامع حسّان، وأضافوا لها إقامة من أخشاب بيوتهم. وكانت تسمّى «المعونة»، وسفينة «الگراگجيا»، فأخذها منهم، وأضافها لأسطول الدولة، ورئيسها سالم الطَّرابلسي.

---

52) «الاستقصا»، ص 95 من ج 4، طبع القاهرة. وص 72 من 7، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

53) ص 13من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

54) ص 263 من ج 1، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

وحيث كانت في صنعتها خشونة، وجّهها لجبل طارق، وتولّى الإنجليز إصلاحها، وأعادوا صناعتها من جديد، وسُمّيت فرگاطة، وجاءت أحسن مثال لغيرها.

وكان بها ثلاثمائة وثلاثون بحّاراً، وأربعة وخمسون مدفعاً، وأُسندت رياستها للرئيس سالم الطرابلسي.

وذكر أبو عبد الله الضُعيّف أيضا[55] : أنّه في شهر مارس سنة إحدى وستين وألف سبعمائة (مارس 1761/رجب 1174)، وجّه ملوك النصارى هداياهم للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، لأنّه دوّخهم في البحر، وغنم منهم غنائم كثيرة، وأسر منهم ما لا يُحصى من الأسارى، وتكاثرت سفنه في البحر من سلا ورباط الفتح، وأقبلت عليه الأيام، ووقف له السعد في البر والبحر، وكان الرؤساء من أهل سلا والرباط، مثل الرئيس العربي المستيري والرئيس عوّاد السلاوي، والرئيس الكوّار الرباطي، والرئيس العربي حكَم الرباطي، والرئيس قنديل السلاوي، والرئيس أحمد الواد، والرئيس صالح، وغيرهم وكلُّهم لهم سُفُن...

ثُمَّ قال : وفي هذه السنة، يعني سنة أربع وسبعين ومائة وألف (1761/1174) [56]، أمَر، رحمه الله، بإنشاء سفينة كبيرة ذات طبقتيْن بمعمل السفن بالعدوتيْن، وأنفق عليها أموالاً طائلة، وأسند رياستها للرئيس سالم.

ولمَّا تمَّت، وأراد البحّارة إرسالها في الوادي، لَمْ يتمكّنوا من ذلك لكبرها، وعدم عُمْق المجرى، فاضطرُّوا إلى إفراغ ما فيها، ودفعوها حينئذ في البحر بحيلة.

وأخبر القنصل الدنماركي هوست (Höst) الذي كان بآسفي في عهد هذا السلطان، سنة سبع وسبعين وسبعمائة وألف (1190/1777)، في بعض مؤلفاته أنّه يَعرف من الأسطول المحمدي في التاريخ المذكور السفن التي كانت راسية بنهر أبي رقراق، ومنها :

1) سفينة الرئيس محمد العالي، إسمها سنبوك، وبها ستة وعشرون ومائة بحّار (126)، وستة عشر مدفعا.

2) سفينة الرئيس عمر العلج، كان نصرانياً وأسلم، واسمها سنبوك أيضاً، وبها أربعة وعشرون ومائة بحّار (124)، وستة عشر مدفعاً.

---

55) نفس المصدر، ص 21 من ج 2.

56) نفس المصدر والصفحة والجزء.

3) سفينة الرئيس يوسف الطرابلسي، وبها عشرون ومائة (120) بحّار، واثنا عشرة مدفعاً.

4) وسفينة الرئيس الشريف ابن قلوعة اسمها كليوطة، وبها عشرون ومائة بحّار (120) وثمانية مدافع.

5) سفينة الرئيس فَرَج، واسمها كليوطة أيضاً، وبها مائة بحار (100)، وثلاثون مدفعاً.

6) سفينة الرئيس قدّور شايب عينو الرباطي، وبها ثمانون بحّاراً (80)، واثنان وثلاثون مدفعاً، اثنا عشرة منها كبيرة، وأربعة وعشرون مهراساً.

7) سفينة الرئيس إدريس لوباريس الرباطي، وبها خمسون ومائة بحار (150)، وعشرون مدفعاً.

وهكذا كان، رحمه الله، حريصاً على إنشاء أساطيله، وتجديد ما يحتاج إلى التجديد منها.

وكانت دار الصِّناعة بسلا ومعمل النِّجارة والإصلاح أسفل جامع حسان بالعدوة الرباطية، وغيرها من المعامل الصِّناعية بحلق المعمورة والعرائش وأنفا، دائبة مستمرة، طوال عهد دولته على الإنشاء والإصلاح والتَّجديد، فَنَمَا عَدَدها، وتوالى مع الأيام مَدَدها.

قال أبو عبد الله أَكَنْسُوسْ في «الجيش العرمرم» (57) :

بلغت المراكب القرصانية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله عشرين مركباً من المُرَبَّع، وثلاثين من الفراكيط. وبلغ رؤساء مراكبه ستين رئيساً.

وقال أبو عبد الله مُحمَّد بن علي الدُّكالي السلاوي في بعض مقيداته في الأسطول المحمدي :

إنَّ عدد قطعه تجاوزت الستين قطعة، وفي كل قطعة ما يجاوز المائتين من الرجال الصناديد، ونحو العشرين مدفعاً من النحاس على ظهر كل قطعة أو داخل طبقاتها.

وقال في محل آخر : كانت مراكب الأسطول المحمّدي السّلاوي الرباطي تُعدّ بالمئين، ولعلّه بإضافة أساطيل المراسي الأخرى غير سلا والرباط، كالعرائش، وطنجة، وأنفا، وزاد

57) ص 76، طبع فاس.

أنّه كان يمتاز عن غيره بسرعة الحركة، لمشاركة المجاذيف للقلوع، فكان يُضرب به المثل في الخفّة، ويرجح سواه حيث مالت إلى حيّز الاستحسان الكفّة.

وكان من عادة السلاويين والرباطيين، إذا أتمّوا صُنع سفينة وأرسلوها في الوادي، لتخرُج إلى البحر، أقاموا عليها الأفراح، والنّزه بالطّبول والغيطات، وأنواع آلات الطّرب.

## كيفية تجهيز الأسطول المحمّدي

كانت للسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله، هيبة وجلال عند ملوك عصره من المسلمين والأوروبيين، وكانوا يعملون على مرضاته، ويتسابقون إلى قضاء جميع ما يكلّفهم به، ويتقرّبون إليه بالهدايا النفيسة، والطُّرف الغريبة، ويطلبون مسالمته في البحر، فوظّف عليهم وظائف التزموها، وكانوا يؤدّونها كلّ سنة، واستمرّ ذلك بعده، إلى أنْ انقطع في هذه السنين المتأخرّة (يعني قبل عصر الاحتلال الفرنسي).

وكان عظماء ملوك أوربّا، كملك إنجلترا، وملك فرنسا يأنفون من أداء ما هو موظّف على غيرهم علانية، فكان رحمه الله يستخرج ذلك منهم وأكثر بوجه لطيف.[58]

وممّا كان يكلّفهم به، ويطلب منهم قضاءه، ما يتوقّف عليه في تجهيز أساطيله.

ومن ذلك أنّه لمّا كان بمراكش سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف (1173/1760)، كلّف تجّار النّصارى بآسفي بشراء إقامة المراكب القرصانية من صوارٍ ونطاقات، وقُمَن، ومخاطيف، وحبال، وقلوع، وبتاتي، وغير ذلك، فتنافسوا في شرائه، وازدلفوا إليه بجلبه.[59]

وفي سنة سبع وسبعين ومائة وألف (1177/1764)، بعث الرئيس الحاج التهامي مدّون الرباطي سفيراً إلى بلاد السويد ليأتيه بإقامة المراكب والبارود. وبعث الرئيس أبا عبد الله، محمد العربي المستيري الرباطي، سفيراً إلى بلاد الإنجليز، ليُصلح بها قرصانه، ويجعل له إقامة جديدة، فقَدمَها وجدّد قرصانه، واستصحب معه إقامة مركبيْن ومدافع نُحاسية، وغير ذلك، وعاد لتمام السَنة.[60]

---

58) «الاستقصا»، ص 122 من ج 4، طبع القاهرة، وص 94-95 من ج 7، لطبع وزارة الثقافة، سنة 2001.
59) نفس المصدر، ص 95 من نفس الجزء، وص 19 من ج 7، لطبع وزارة الثقافة، سنة 2001.
60) «الاستقصا»، ص 101 من ج 4، طبع القاهرة، وص 26 من ج 7، لطبع وزارة الثقافة، سنة 2001.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1766/1179)، وجّه الرئيس أبا الحسن عليّاً مارسيل الرباطي، إلى فرنسا، لتقرير الصلح مع حكومتها، وقبْض مال أُسارى العرائش، وشراء إقامة المراكب القرصانية، فبذلوا المال والإقامة معاً طائعين.

وفيها وجّه الفقيهيْن السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسيد الطاهر بنّاني سفيريْن إلى السّلطان مصطفى العثماني. وأصحبهما هدية نفيسة، من خيل عتاق بسروج مُثْقلة بالذهب، مُرصّعة بالجوهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسْيَاف مُحلاّة بالذهب، مرصّعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حُلي من عمل المغرب، فقبل السلطان العثماني ذلك، وابتهج به، ثمّ كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود، وإقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كل ما تحتاج إليه.(61)

وفي سنة ثمانين ومائة وألف (1767/1180)، أعاد السِّفارة إلى السلطان مصطفى العثماني، مع خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطواني، وأصحبه هدية نفيسة أخرى مكافأة له على هديته التي كان أرسلها إليه في السنة قبلها مع السيد الطاهر السلاوي، والسيد الطاهر بنّاني الرباطي، حسبما مرّ.

وكان رجوعه من هذه السفارة سنة إحدى وثمانين ومائة وألف (1768/1181)، ومعه هدية عظيمة من السلطان العثماني، أعظم من الأولى، وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النُّحاسية وإقامتها، وإقامة المراكب القرصانية، من صواري ومخاطيف وقلوع وقمن وحبال وبراميل، وغير ذلك من آلات البحر.

وفيها ثلاثون من مَهَرة المُعلِّمين الذين لهم المعرفة بإفراغ المدافع والمهاريس والكور والبُنْب وبضاعة المراكب القرصانية، وفيهم مُعلِّم مجيد في الرَّمْي بالمهراس إلى الغاية ، فنزلوا بمرسى العرائش.

قال صاحب «البستان»، وهو أبو القاسم الصَّياني :

وكنت يومئذ والياً بها، فورد أمر السلطان بتوجيه المُعلِّمين إلى فاس يُقيمون بها حتَّى يَقْدَم السلطان من مراكش إلى مكناسة، فيجتمعون به هناك.

ولمّا وصل السلطان إلى مكناسة، حضروا عنده، وفاوضهم في أمر الخدمة، وأراد أن يحيي دار الصَّنْعة التي كانت بسلا تُصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبني مرين، فقالوا له : نحتاج أن تبني لَنَا داراً على هيأة كذا، ومن نعتها كذا وكذا، ورسموا له

61) «الاستقصا»، ص 101 من ج 4، طبع القاهرة. وص 35 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

شكلها في قرطاس، فرأى أنَّ أمرها لا يَتِمُّ في عشرين سنة وأكثر، ولا يكفي في بنائها مال، فأعرض عن ذلك، وبعث مُعلِّمي البُنْب إلى تطوان، فكان أحدهم يفرغ البُنْبة في قنطارين. وبعث مُعَلِّمي المراكب إلى سلا، فأنشؤوا فيها ثلاث شكظريات، وبعث مُعلِّم الرَّمْي إلى رباط الفتح، فكان يُعلِّم بها الطُّبْجِية من أهل سلا والرباط، وتخرّج على يده نجباء. ومن تَمَّ توارث أهل العُدوتيْن هذه الصناعة مُدَّة، إلى أنْ لمْ يبق منها اليوم إلاَّ الإسم، وردّ أصحاب المدافع والمهاريس إلى فاس، فأقاموا بها إلى أن تُوفّوا، رحمهم الله،[62]

وقد تقدَّم بعض هذا في أخبار دار الصَّنعة بسلا، أثناء الكلام على إهمالها، ومحاولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله إحياءها.

وفي هذه السنة أيضاً، يعني سنة إحدى وثمانين ومائة وألف (1768/1181)، انعقد الصلح بينه وبين دولة الدانمارك، وكان من جملة ما تضمّنه أن يدفع هذا الأخير للسلطان كل سنة خمسة وعشرين مدفعاً من مدافع المعدن، وَزْن كرتها من ثمانية عشر رطلاً إلى أربعة وعشرين، ويدفع معها ثلاثين قمنة، ومن اللوْح الرَوبْلي ألفيْ لوحة مختلطة، ومن الريال ستة آلاف ريال وخمسمائة، والكلُّ واصل إلى المحلِّ الذي يريده السلطان، وإنْ أراد أن يدفع بدلاً من جميع ذلك خمسة وعشرين ألف ريال، فله ذلك.

ومثل هذا تمَّ الاتِّفاق عليه مع جنس السويد أيضاً، إلاَّ أنَّ قدر المدفوع من جانبه عشرون ألف ريال فقط في كل سنة. ومع أجناس أُخر وظائف أُخر.

واستمرت هذه السنَّة جارية إلى أنْ انقطعت سنة إحدى وستين ومائتين وألف (1845/1261) في دولة السلطان المولى عبد الرحمان رحمه الله، بعد احتلال الجزائر وما ترتب عليها، ومعركة إيسلي، والله غالب على أمره.

قلت : وقد أدركنا عدداً كبيراً من هذه المدافع المعدنية، ونحن صغار السِّن، مبعثرة في أبراج سلا، مكتوب عليها عند إفراغها بخط عربي جميل، أنَّها مُقدّمة هدية من ملك الدَّنْمارك أو السُّويد للسلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وقد تصرَّف الفرنسيون في هذه ا لمدافع في عهد الاحتلال بالأخذ والنقل للمعامل بقصد إعادة سبكها أيام الحربيْن العالميتيْن. ومنها ما كانوا يضعونه أمام أبواب إداراتهم ومكاتبهم وثكناتهم العسكرية مقلوبة على رؤوسها، وأفواهها من أسفل، مركوزة في الأرض.

---

62) «الاستقصا»، ص 104 من ج 4، طبع القاهرة. وص 44 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

فكُنَّا نستشعر من ذلك الإهانة والازدراء بمآثرنا الحربية، وسلاح من أسلحتنا الجهادية، التي كانت تقدمها لنا الدول الأوربية تترضّانا بها، وتعترف بقوتنا عليها، ولِلّه الأمر من قبل ومن بعد.

## تجنيد السلطان سيدي محمد بن عبد الله آيت عطة وعبيد تافيلالت في الجيش.

قال في «الاستقصا» :(63)

لمَّا دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف (1787/1202)، أرسل السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، إلى آيت عَطَّة يأمرهم أن يبعثوا بستمائة رجل منهم، وبأربعمائة من عبيد تافيلالت، فالمجموع ألف، ليَكْسُوَهُم ويُسلِّحهم ويستعملهم في خدمة البحر وجنديته، فبعثوا بهم إليه.

قال صاحب «البستان»، وهو أبو القاسم الصياني :

ولمَّا قَدِمُوا عليه بمكناسة، استدعاني من تازة، فقدمت عليه، فأمرني أن أتوجَّه بهم إلى تطاوين كي يقبضوا السِّلاح والكِسْوة بها، ثمَّ أسير بهم إلى طنجة يكونون بها.

وأمرني أنْ أتَعَهَّدهمْ بركوب الغلائط العشرين التي بمرساها، والخروج إلى البوغاز وسواحل إصبانيا والتَّرَدُّد بينهما ليتدرَّبوا على البحر، ويتمرَّنوا به.

قال : فذهبت بهم إلى تطاوين على ما رسمه السلطان رحمه الله، فأخذوا السِّلاح والكِسْوة، ونفذت إلى طنجة، فأقمنا بها شهرين، وكل يوم يركبون السُّفن، ويتطاردون بها فيما بينهم، فتارةً يخرجون إلى البوغاز، وتارةً يطرقون سواحل إصبانيا، وتارةً يرجعون، إلى أنْ زالت عنهم دَهْشة البحر، وفارقهم ميْده وألفوه.

ولمَّا أقبل فصل الشتاء، كتب إلى السلطان بالقدوم بهم.

قال : فلمَّا حَلَلْنا مكناسة، أمر، رحمه الله، بعمارة المَشور لدخولنا عليه، فلمَّا مثلنا بين يديه دنا منَّا إلى أنْ كان في وسطنا، وكلّم البربر بلسانهم، وسألهم عن حالهم في سفرهم، فذكروا خيراً، فسرّه ذلك منهم ونشط.

63) ص 117 من ج 4، طبع القاهرة. وص 80 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وقال في «الاستقصا» أيضاً :[64] بلغ عسكر البحرية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ألفاً من المشارقة، وثلاثة آلاف من المغاربة، ومن الطبْجية ألفين.

64) ص 121 من ج 4، طبع القاهرة. وص 92-93 من ج 7، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

## المبحث الخامس

## معلومات عن الأسطول الرباطي السلاوي
## أثناء قيامه بجهاده البحري

### ما كان يفعله رؤساء الأساطيل
### من الصّدقة والدّعاء عند الضّرورة

كان رؤساء الأساطيل إذا أرادوا الخروج في جولة بحرية في سفينة تامّة التجهيز تصدّقوا بالصّدقات، وتوسّلوا إلى الله بالدّعوات، ونَذَروا النُّذور، وقدّموا الذبائح لينجيهم الله من عواصف البحر وزوابعه، ويردّهم سالمين غانمين، لأنّ رُكّاب البحر، كما ورد : «دود على عود، وداخله مفقود، والخارج منه مولود».

ولذلك كان شأنهم إذا كانوا مُلجّجين، وجرى فُلكهم بريح طيِّبة فرحوا به. فإذا جاءهم الموج من كل مكان، وظَنُّوا أنَّهم أُحيط بهم، دعوْا الله مخلصين له الدِّين لئنْ أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين، وقرأوا القرآن، وذكروا اسم الله اللطيف، ودعوْه سبحانه بالدعوات الواردة والمطلوبة في هذا الوقت الحرج، كـ«حزب البحر» للشادلي، و«المنفرجة» لابن النحوي، وغير ذلك.

وتقرَّبوا إلى الله سبحانه بِالنُّذُور، فإذا رجعوا سالمين وفَّوْا نَذْرَهُم، وشكروا الله الذي أنجاهم من ظُلمات البرِّ والبحر.

وهذه حالة المومن، وكل من يدين الله بدين، فإنَّه يخلص لِلّه ساعة الحَرَج، ليُعَجِّلَ الله له بالفرج.

وحتّى المسيحيون سائقو البواخر الكُبْرى إلى يومنا هذا، إذا عصفت بهم عاصفة، وتلاطمت عليهم أمواج خاطفة، صلّوا صلواتهم، ودعوْا ربهم، وتوسّلوا إلى معبودهم لينقذهم من الهلاك المحيط بهم، وإذا كان في الباخرة رُهْبان اجتمعوا وجأروا إلى الربِّ سبحانه بصلواتهم ليتفضّل عليهم بالنجاة، فينعموا بالحياة من جديد.

وقد شاهدنا هذا منهم بأنفسنا في أوقات صعبة، أثناء رجوعنا من بوردو إلى المغرب في إحدى رحلاتنا إلى فرنسا، ورأينا عجباً، حسبما أثبتناه وسجّلناه في رحلتنا المسماة : «الرحلة الباريسية للشبيبة المغربية»[65].

هذا وقد كان رؤساء الأسطول المغربي يعرفون المنازل والبروج ومطالع النجوم، ويعرفون الجِهات والسُّموت، ودورة الرياح ومهابّها وأنواعها، ويستعملون البِرْكار (Le Compas) والخرائط، والبوصلة، والمقايس الزمانية، واستخراج الزّوايا، على حسب ما كان موجوداً عندهم في وقتهم.

وبين يدي الآن عِدّة خرائط بحرية جغرافية للبحر الأبيض المتوسط وجزره وخلجانه، والشواطئ الإفريقية والأوروبية التي على ساحله وساحل المحيط الأطلسي والبوصلة والأسطرلاب وأشياء أخرى كانت مستعملة عند الأميرال الحاج الهاشمي بن الرئيس أحمد عوّاد وولده القبطان الحاج الطاهر عوّاد، ودفتر مقيّداته الخاصّة، حُفظ الجميع عند أحفاده.

وهذا الأميرال هو الذي أسند إليه السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بظهير يحمل تاريخ ثاني ربيع الثاني، عام تسعة وسبعين ومائة وألف (1782/1179)، الرياسة البحرية، وسائر ما يرجع إليها من الشؤون والأشغال، ونظام الجيش البحري كله، وجميع ما يرجع للأسطول السلاوي الرباطي في ذلك العهد، مع التفويض التام، حتى كأنه وزير البحرية المطلق، مع ما كان له من النفوذ والظهور والشهرة، عند المغاربة والأوروبيين ؛ وهو جد جدتي للأم.

ونص الظهير المذكور، الذي أورده مؤرخ الدولة العلوية، المولى عبد الرحمن بن زيدان في كتابه : «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»، مصحوباً بصورته :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الكريم، وعلى آله وأصحابه ذوي التبجيل والتعظيم، القائمين بشريعته الناصرين لدينه القديم.

نص طابعه :

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا».

محمد بن عبد الله.

نص خطابه :

---

65) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

«كتابنا هذا لا زالت أوامره مطاعة، ومآثرة في صفحات الدهر مُخلدة مُشاعة، يُعلم منه أنَّ حامله، المجاهد الأرضى، القبطان النَّبيه المرتضى، الحاج الهاشمي ابن المنعَّم الرئيس أحمد عوَّاد، لمَّا كام ممن مارس أمور البحر وراضها، واقتحم لُجَجَها وخاضها، وظهرت في الرياسة نجدته، وحُمدت فيها بدْؤه وعودته، وزادت على الغير نجابته ومعرفته، رأينا أن نعمر به منصباً يبقى مرتبطاً بولايته، مقصوراً على مكانته ومنزلته، فجعلناه قبطاناً على جميع البحرية. أهل العدوتين سلا والرباط، وعلى سفنهما القرصانية الجهادية، ظفره الله بالعدو الكافر، وقضى لها من المغانم بالحظ الوافر، وأبّد سلامته في الموارد والمصادر، وعلى سائر القوارب وجميع أمور البحر كيف ما كانت، وعلى أيٍّ حالة ظهرت وبانت. فقد أسندنا جميع ذلك كله إليه، وجعلناه إلى نظره وقدَّمناه عليه، وقصرنا عليه الكلام وحده، وأنفذنا في كل ما يرجع إلى البحر أقواله، وأمضينا في سائر أمورنا أفعاله، من غير تعقب ولا انتقاض، فنأمر جميع البحرية أن يقدروا قدره، ويمتثلوا أمره،...(*) معاوضة ولا...(*)... ومن خالفه منهم في شطر كلمة، فقد أذنا له أن يؤذِّبه بما ظهر له من العقوبة والحد، وليكن من عقوبتنا على وَعْد. ونعهد إلى القبطان المذكور أن يكون حازماً ضابطاً متعهداً لأحوال البحريِّين، غير غافل عن شيء من الأمور، وأن يؤسِّس على الجدِّ مسائله، ويشدّ في هذا الوظيف الجهادي عُراه ووسائله، وربنا تعالى يقضي لنا وله بالسعادة، ويبلغنا وإياه من هذه القربة العظيمة مرادنا ومراده، ويبقي جيوش الإسلام متوافرة، وعلى عدو الله ورسوله متعاضدة، متضافرة، بمنِّه آمين.

صدر منا الأمر بكتبه بحاضرة فاس، مرسها الله وحاطها، في ثاني ربيع الثاني عام تسعة وسبعين ومائة وألف.»

وبالجملة فمعارفهم الملاحية، حسبما وصل إلينا، كانت مجارية لِمَا كان رائجاً في عصرهم، حسب تقدُّمهم في العلم والمعرفة. وأقول إنَّ معارفهم التطبيقية المكتسبة من الخبرة والمزاولة والمداولة، كانت أكثر من معارفهم النظرية.

ولعمري إنَّ رؤساء وبحرية كانوا يمخرون في البحار، ويتخلَّلون شواطئ أوربَّا وطرفاً من إفريقية، ويصلون إلى الدول الإسكندناڤية بالشمال والجزر الخالدات وجزر آصور بالمحيط، لعلى علم ومعرفة بالملاحة وما تتطلبه في ذلك العصر، ولا عبرة لِمَنْ جحد هذا، وبخسهم حقَّهم، أو تعمَّد تغيير الواقع، وعدم الإخبار بالحقيقة، تقليلاً للأهمية، وتنقيصاً من أولائك القوم، لحاجة في نفس يعقوب.

---

*) بياض بالأصل

وكما كان في الأسطول المغربي رؤساء أسلموا، فقد كان فيه رؤساء مغاربة أَقْحاح، من سلا والرباط، وغيرهما من المدن، أو منسوبون لبعض القبائل، أو مهاجري الأندلس، كآل عَوَّاد، وآل فنيش، وآل قنديل، وآل بني عائشة، وآل حكم، وآل لوباريس من الرباط، وغيرهم ممَّن يطول ذكرهم وتَعْدادهم.

## كيفية معيشة بحارة الأسطول السلاوي الرباطي أثناء جولاته البحرية.

كانت مؤونة سائر رُكَّاب الأساطيل القرصانية السلاوية الرباطية، من الرئيس إلى آخر بحَّار متساوية، ولا تخرج عن المُدَّخرات، كالبِسْكُوتْ والزيت والخلِّ والعسل وبعض الفواكه اليابسة، كالتمر واللَّوز والجوْز والتِّين والزَّيتون وما أشبه ذلك.

وتُوَزَّع على الجميع كل يوم في أوقات معلومة مأكولات أخرى. ففي الصباح يأخذ كل واحد خبزة مع شيئ من الزيتون، وفي الزوال يُوَزَّع على الجميع الخليع، وفي الليل الكُسْكُسُون، أو الحِمْص، أو ما أشبه ذلك، كالأرز، والفداوش مثلا.

وكانوا يصطادون الأسماك ويَقْلونها في الزيت ويأكلونها، كما كانوا يحملون معهم أنواع الأبازير والأفاويه والملح ونحوه.

ويُوَزَّع على الجميع في أوقات الأكل ونحوها الماء العذب للشرب الذي كانوا يحملونه معهم، ويتزوَّدون منه في البراميل من البرِّ.

هكذا كان تموين الأساطيل القرصانية في عهد الدولة العلوية.

وأما في عهد القرصنة الأولى التي كانت مستقلة عن الدولة، كما تقدم، فقد كان البحَّارة يتزوَّدون لأنفسهم، ويأخذون مؤونتهم من الغنيمة.

ولا ننسى أنهم كانوا إذا أسروا سفينة استولوْا على ما فيها من المُؤن والأقوات والمياه، واقتسموها بينهم، ولاسيما عند الضَّرورة.

## كيفية حياة البحارة
## في سفن القرصنة السلاوية الرباطية.

كانت حياة البحَّارة في السفن القرصانية السلاوية الرباطية صعبة جداً لِمَا احتفَت به من مشاقٍّ الخدمة وأهوال البحر وزوابعه وفجائعه، وترقُّب لقاء العدو في كل وقت وحين من ليل أو نهار، مع الانقطاع التامِّ عن الوسط الإنساني، والعوائد المجبول عليها.

وكانوا يتناوبون على الخدمة وملازمة المراقبة كل ثلاث ساعات.

وكان من حقِّ الرئيس أن تُطاع أوامره، وتُنفّذ في كل وقت وحين بدون مراجعة ولا تعقُّب لأنَّه هو المسؤول. وله أن يعاقب المخالف والمتهاون والمتكاسل بكلِّ ما يراه من العقوبات، ما عدا عقوبة الموت، لأنَّها من خصائص السلطان.

ولمْ يكنْ في أول عهد القرصنة السلاوية الرباطية أجور خاصَّة للرؤساء والبحّارة، وإنَّما كانوا يأخذون سهامهم وما يكفيهم لمعيشتهم وضرورياتهم من الغنائم التي يغنمونها وهو شئ كثير.

وفي ذلك تشجيع لهم وتحريض على المغامرة بأنفسهم في البحار طلباً للأجر والغنيمة.

# المبحث السادس

## عظم الغنائم وكيفية قسمتها

كانت الغنائم التي ياتي بها القراصنة السلاويون الرباطيون كثيرة غزيرة مستمرَّة، متجدِّدة بتجدُّد الخروج إلى البحر والجولان في السواحل الأوروبية وجزر البحر الأبيض المتوسط.

وقد استغنى أهل العدوتين منها، وجمعوا ثورة طائلة من المال العيْن والثياب والأثاث والرياش والطُّرف النفيسة والحلي والأقوات والمواد الحربية والرقيق الذي كانوا يستعبدونه إلى أنْ تضع الحرب أوزارها، فإمّا منّاً بعد أو فداءً.

حدَّث بعض من كتب في القرصنة السلاوية الرباطية من الأوروبيين في مذكرة من مذكراته سنة إحدى وثلاثين وستمائة وألف (1041/1631) أنَّهم أخذوا في ظرف عشر سنين ما يزيد على ألف سفينة تجارية من دول مختلفة.

وقدّر رازلّي (Razilly) أنَّ غنائم القرصنة السلاوية الرباطية بلغت سنة ست وتسعين وستمائة وألف (1108/1696) خمسة عشر مليوناً ليرة (15.000.000)، وستة آلاف (6.000) أسير، ثُلُثاهُمْ فرنسيون، وذلك في ظرف عشرين سنة.

وكان الرئيس الواحد يخرج مرة أو مرتين في السنة غازياً في البحر، فيسوق أمامه السفينتيْن أو الثلاث أو الأربع في دفعة واحدة، وكلّها تزخر بالسلع والأموال والرجال والمواد الحربية.

وجرت العادة في ذلك العهد أن يُحتفل بكل سفينة رجعت سالمة غانمة من غزوها وجهادها يوم دخولها للمرسى، فيخرج الناس للقاء بحّارتها ورؤسائها، وتُعرض أسراها في

معرض خاص، حسبما تقدَّم بيانه مفصَّلاً في «فصل استقبال السلاويين والرباطيين للأساطيل إذا رجعت بالمغانم»، ثمَّ تُخمّس وتُقسَم.

وكانت لا توجد دار من دور العدوتين في ذلك العهد، إلاَّ وفيها رقيق أوروبي، فيستخدمون النساء داخل البيوت حظايا وسرايا، فيصرن أمهات أولاد، يُنجبن الأولاد والبنات.

ويستعملون الرجال غالباً في القيام بالأعمال الخارجية، كالبناء وما يترتَّب عليه من الأعمال والخدمة في الأجنة والبساتين وغير ذلك.

وقد عمّ الرقيق في ذلك العصر الحواضر والبوادي، فكان يُباع ويُشترى في أسواق المدن الكبرى، وحتَّى في المداشر والقرى.

وكانت الغنائم يُؤتى بها إلى العدوتين السلاوية والرباطية، أو إلى مرسى من المراسي القريبة منها، ويقع القسم فيها، وتُباع للمغاربة، وربمّا بيعت سلعها حتَّى للنصارى المقيمين تجّاراً بالعدوتين.

وأمَّا الأسرى، فكانوا يُباعون في أسواق خاصَّة بهم، يُقال لها البرْكة، بسكون الراء، بواسطة السماسرة المختَصِّين بهذه الحرفة، حسبما بيَّنا محلَّ بيعهم بالرباط وسلا، فيما تقدَّم.

وأمَّا كيفية القسم في عهد القرصنة السلاوية الرباطية الأولى فهي : عشرة في المائة للحكومة أو للدِّيوان، وخمسون في المائة لمجهِّز السفينة والرئيس ليعوِّض ما أنفقه، ويُعيد التجهيز مرة أخرى. وخمسة وأربعون في المائة من المجموع للبحّارة.

وأمَّا الضبَّاط، وقائد السفينة، ومدير دفّتها، وكبير المدفعية، والجرّاح، فكانوا يأخذون ثلاثة سهام فقط، وغيرهم من المُسَيِّرين والقَلافْطية والمدفعيين كانوا يأخذون سهمْين لا غير.

ولمَّا صار الأسطول ملِكاً للدولة العلوية يغزو باسمها وتقوم بشؤونه وتجهيزه، صارت قسمة الغنيمة كما ياتي :

الخُمُس للسلطان، عملاً بالقاعدة الشرعية، لقوله تعالى : ﴿واعلموا أنَّما غنمتم من شيء فإنَّ لله خُمُسه وللرسول...﴾ من الأموال والرقاب بعد الاختيار والاصطفاء، ذكوراً وإناثاً، فيستخدموا الذكور في البناء وتعمير القصور، والإناث حظايا وخَادِمات في القصور السلطانية وسرايا.

ثم يأخذ أيضاً، زيادة على الخُمُس، النصف بصفته مالكاً للسفينة ومُجَهِّزاً لَهَا.

ويقتسم البحارة الباقي بينهم على السواء.

ثمَّ يُرْضخ لعبيد الدولة بعطاء آخر قدره خمسون ريالاً لكل واحد. لأنَّ المولى إسماعيل كان أصدر منشوراً سنة ثمان وثمانين وألف (1673/1088) بإحصاء العبيد وتمليكهم للدَّولة كما في «الاستقصا»[66] و«المحيط في أخبار صحراء المغرب وشنگيط»[67]، لمّا استولى على مراكش.

وشمل ذلك الإحصاء كل من كانت فيه شائبة رقّ فأحرى رقّ الأسر الذي هو الأصل في الاسترقاق.

ويختصّ الرؤساء بأسلاب رؤساء السفن المأخوذة، ولهم الحق في انتهاب ما فيها من الماعون والمؤن، ما عدا السلَع.

هكذا كانت القسمة في عهد الدولة العلوية، ثم صار الجميع يُحاز للسلطان، ويأخذ أصحاب السفينة من الرؤساء فَمَنْ دونهم أجرة مقدّرة مقرّرة معلومة.

ويختصّ الرؤساء وخلفاؤهم بكسوة خاصّة هي : جبضول قصير، وسروال من الملْف، ويُنفَّذ لهم الملف والكيرْيَة ويفضل الكِبار على الصِّغار لأخذ الملف الجيِّد والزيادة في كمّيته.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كان للرؤساء والبحَّارة اعتبار كبير وامتياز، وكان ينفذ لهم حظُّهم من العطايا والصِّلات والهِبات والصَّدقات التي يُنفِّذها لغيرهم من الرَّعايا من حين لآخر.

قال في «الاستقصا»[68] :

أمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتحسين رواتب الطبجية والبحرية، ورواتبهم يومئذ مائة وثلاثون أوقية لكلٍّ واحد في كلٍّ ثلاثة أشهر، وكانوا في ابتداء الأمر يقبضون راتب كل شهر عند انتهائه. وفي سنة مائتين وألف (1786/1200)، أنعم على عساكر الثغور بالتعجيل راتب خمس عشرة سنة بحساب مثقال للرأس في كل شهر، وهذا مال له بال، فإنَّه يقارب ثلاثة ملايين، فَعَلَ ذلك إعانة لهم، وتَوْسِعَةً عليهم.

66) ص 23 من ج 4، طبع القاهرة. وص 80 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

67) لكاتبه جعفر الناصري ص 493 من ج 1، مخطوط الخزانة النصارية السلاوية.

68) ص 117 من ج 4، طبع القاهرة. وص 80 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ثمَّ أمر أنْ يُجعل في كل مرسى من مراسي المغرب بيت مال، وعند كل ثلاثة أشهر يُفتح بيت المال، ويُعطى لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس، حضروا بيت المال أو غابوا، إعانة لهم على عيالهم.

وأمَّا عطاء الغزو وعطاء عاشوراء والصِّلات والصَّدقات فكان يبعث بذلك كلِّه من عنده، لا من بيوت الأموال. واستمرَّ الحال على ذلك إلى أنْ تُوفي، رحمه الله.

ومن ذلك ما جاء في دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الحاج الهاشمي عوّاد السلاوي، الذي تولّى الرياسة في عهده وفي عهد السلطان المولى سليمان، وسنثبت في فصل آخر برنامجه وما احتوى عليه من مقيدات الجيش البحري، لأنَّه يُعدّ وثيقة مُهمَّة في موضوعنا هذا.

وهو أنَّ السلطان المذكور، أمر، رحمه الله، السيد عبد الهادي العسْري بأنْ يدفع صدقة لستمائة من البحرية بسلا والرباط، ممّا اجتمع لديه من ثمن حَبَّة القشْنية، عشر أواقٍ لكلِّ واحد منهم، فاجتمع في ذلك ستمائة مثقال[69]، وأنعم على أربعمائة من بحرية الرباط ورؤسائهم بثمانمائة ريال، فنال كلُّ واحد منهم ريالين اثنين، وعلى طَلَبَتِهِمْ وفقرائهم بأربعة وسبعين ريالاً.

وكذلك على غيرهم من بَحْرية السواحل المغربية وعلى الطُّبجية المُكلَّفين بالمدافع كذلك.

ولمْ يكنّ هذا العطاء محصوراً في هذا، بل كان عَامّاً في جميع كُلَفهم وأفراحهم وعوائدهم كُلَّما تعيَّن ذلك.

وكان يُنفِّذ لهم في كل مناسبة الكِسْوة والعطاء. وقد أدركنا في زمن الصِّبا بعض من ينتسب لهذه الحرفة من البَحْرِيَة والطبجية يلبسون هذه الكِسْوة محافظة عليها كشعار لِمَا كان لأجدادهم من التَّمْييز عن الغير. وهي عبارة عن جبضول قصير وبَدْعية وسروال من الملف، مقلّد فيها لباس تُرْك الجزائر.

كما كان يَحْبوهم بالسلاح الرفيع من اليَطَقَانات والسُّيوف والخناجر المُنبَّتة بالأحجار الكريمة.

وقد بَقِيَ بعض هذه الأسلحة محفوظاً عند بعض حفدة أولائك الرؤساء، فباعوه وانتفعوا بثمنه لمّا مَسَّهم الضرّ، واشتدت بهم الحاجة، كما في علمي واطِّلاعي على ذلك.

---

69) ص 4 إلى 6 من الأصل، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

وكانت العادة المُقرَّرة في ذلك العهد هي أنّه إذا مات الرئيس أو البحّار، أو حصل له موجب تسبّب عنه إسقاطه من وظيفته أو رتبته قُرْبَ حِيازته للكِسْوة أو السِّلاح، فإنّه يردّه للأميرال أو رئيس الأسطول الذي هو إلى نظره.

وقد وقفت على وثيقة عدلية مُسَجَّلة في دفتر الرئيس الحاج الطاهر عوّاد الذي سياتي الكلام عليه، ونصها :[70]

الحمد لله وحده.

حضر لدى شهيديْه، عزّوز بن مبارك العَمْري، وأشهدهما على نفسه أنّه قبض من المجاهد الرئيس الأبرّ الحاج الطاهر بن المرحوم بمنة الله تعالى، المجاهد الرئيس، القبطان الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد، جميع الدماليج من الفضّة، وأبرأه منهما، وهما اللتان كانتا موضوعتين عنده رهناً إلى أنْ ياتي بالكِسْوة التي قبض من جملة بَحْرية أهل سلا.

وحيث أمره خديم مولانا سليمان، وهو الفقيه السيد محمد السَّلاوي، بالخروج من ثغر سلا، طالبه الرئيس المذكور أنْ يمكّنه من الكِسْوة المذكورة، إذْ كان قريب عهد بقبضها، فامتنع من ذلك، ووضع الفردتيْن المذكورتيْن تحت يد الرئيس المذكور إلى أنْ يأتي بالكِسْوة المذكورة.

ولمّا أمِن على نفسه، واستوطن الثغر المذكور، ردّ له الرئيس المذكور الفردتيْن المذكورتيْن، وصدّقه في ذلك، وقَبِلَ منه الإبراء المذكور.

عرفا قدره، وشهد به عليهما، بعد إشهادهما به، وهما بأتمّه، وعرفهما.

وفي تاسع عشر رجب الفرد الحرام عام تسعة وعشرين ومائتين وألف.

(19 رجب الفرد 1229/7 يونيو 1814)

عبد ربه........بن اللطّام، كان الله له ولطف به في الداريْن، آمين.

(بشكله)، ومُحمَّد بن مُحمَّد ... وليه اللَّه ومولاه، (بشكله).

---

70) ص 96 من الدفتر المذكور، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

# الفصل السادس

## عن دفتر الرئيس القبطان
## الحاج الطاهر بن الأميرال
## الحاج الهاشمي عوّاد

## مبحث فريد

# دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الحاج الهاشمي عوّاد وما احتوى عليه من أسماء البحرية والموظفين بالأسطول المغربي السلاوي الرباط.

تضمّن دفتر الأسطول والبحرية السلاويين والرباطيين للرئيس الحاج الطاهر عوًّاد السلاوي دخل بيت المال الذي كان بالقصبة الرباطية وخرجه، في عهد السلطان أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله.

وأهمُّ هذا الخَرْج هو أعطية الرؤساء وبحَّارة الأسطول وأسماؤهم وما كان يقبضه كلّ واحد منهم، على سبيل الأجرة والإعانة والعطاء والصدقة والكسوة والسلاح.

– ويؤخذ من هذه الأسماء أسماء بعض الأسر السلاوية، وبعض الأسر الرباطية التي انقرضت أو التي لا زالت موجودة.

– وقائمة البحرية المجاهدين، من سلا ورباط الفتح، الذين كانوا يأخذون الكسوة. وتشتمل على الملف والكيرية وراشة (كذا ؟) وريالين اثنين، ويُفَضَّل الكبار على الصغار بأخذ الملف الجيد وزيادة عِدَّة دروع.

– واللجنة التي كانت تتولّى تفريقه هي وَالرؤساء، تتركَّب من الرؤساء :

* عبد الله العسري

* الأمين الحاج عبد العزيز عوًّاد

* الأمين قاسم بن القاضي

* الحاج مُحمَّد المريني

* الحاج مُحمَّد زنيبر

وذلك في ثالث صفر عام ثمانية وتسعين ومائة وألف (3 صفر 28/1198 دجنبر 1783).

– وعدد هؤلاء الرؤساء والبحّارة الذين أخذوا الكسوة نحو العشرين وثلاثمائة (320)، منهم ثلاثون من أهل الشرق، كالصَّابونجي، والطَّرابلسي...

– ويشتمل أيضاً على قائمة الرؤساء والبحَّارة الذين عندهم العُدَّة والسلاح المخزني، كالمكاحل والسكاكين والخناجر.

وكان إحصاؤهم وتقييدهم عام تسعين ومائة وألف (1777-1776/1190).

– وقائمة البحَّارة الذين كانوا يسافرون في السُّفن، وأسماؤهم وأسماؤها وما حازوه من العدّة، واسم رئيس كلّ سفينة.

– وقائمة البحّارة الذين سافروا في سفينة الرئيس الحاج الطاهر عوّاد في غارة أو جولة بحرية، في ثامن وعشري صفر عام ثمانية عشرة ومائتين وألف (28 صفر 19/1218 يونيو 1803).

– وقائمة أخرى بأسماء البحرية الذين كانوا إلى نظره وفي سفينته، وعددهم يتجاوز أربعمائة (400).

– وقائمة البحْرية السلاويين والرباطيين الذين قبضوا الصلّة المولوية في سابع عشر محرم عام تسعة عشر ومائتين وألف (17 محرم 28/1219 أبريل 1804)، وعددهم ثلاثة عشر وثلاثمائة بحّار(313).

– وقائمة تفريق العوائد على البحْرية والطُّبْجية الذين سافروا مع الرئيس الحاج الطاهر عوّاد في تاسع وعشري صفر عام تسعة عشر ومائتين وألف (29 صفر 9/1219 يونيو 1804)، وقدر ما قبضه كل واحد منهم، عشرة ريالات، وعددهم تسعة وسبعون (79).

– وقائمة أخرى بأسماء البحْرية والطُّبْجية الذين قبضوا العوائد المخزنية أيضاً، عند سفرهم مع الرئيس المذكور، على حساب عشرة ريالات لكلٍّ واحد منهم، وزيد لعُرَفائهم مائتا مِثْقَالٍ، وللرئيس مائة مثقال. كما زيد لمن تقدَّم منهم لإصلاح ما يحتاجه مركبه بالعرائش

خمسة مثاقيل للواحد. وذلك في خامس محرم عام واحد وعشرين ومائتين وألف (5 محرم 25/1221 يبراير 1806) وعددهم خمسة وسبعون بحّارا (75).

– وأضيف إليهم قائمة خمسة وعشرين (25) من البحّارة أُلحقوا بهم، وقبضوا عشرة ريالات لكل واحد منهم.

– وقائمة أخرى بأسماء البحْرية الذين كانوا إلى نظر القبطان الحاج الطاهر عوّاد المذكور، وعددهم ثلاثة وعشرون ومائتان (223)، وتمّ إحصاؤهم في خامس عشر رمضان عام واحد وعشرين ومائتين وألف (15 رمضان 26/1221 نونبر 1806).

– وقائمة البحْرية والطُّبْجية الذين سافروا مع الرئيس القبطان المذكور في مركبه في الثاني والعشرين من صفر عام اثنين وعشرين ومائتين وألف (22 صفر 1/1222 ماي 1807).

– وفي صحيفة ست وتسعين نصُّ الشهادة العدْلية في شأن استرجاع الكسوة المخزنية من أحد البحّارة عزوز بن مبارك العمري، وقد تقدّمت.

– وقائمة بإحصاء البحْرية السلاويين في ثامن وعشري محرم عام سبعة وعشرين ومائتين وألف (28 محرم 12/1227 إبراير 1812)، وقُسموا إلى قسمين : قسم المتزوِّجين، وعددهم واحد وثلاثون ومائتان (231)، وقسم غير المتزوِّجين، وعددهم تسعة وخمسون ومائة (159)، الجميع تسعون وثلاثمائة (390).

– وقائمة البحّارة الذين كانوا تحت نظر الرئيس عبد الله السَّدْراتي في العشرين من رمضان عام تسعة ومائتين وألف (20 رمضان 10/1209 إبريل 1795)، وعددهم خمسة وثمانون (85).

– وقائمة البحّارة الذين كانوا إلى نظر الرئيس عبد الله حَمْدُوش، في العشرين من رمضان عام تسعة ومائتين وألف (20 رمضان 10/1209 أبريل 1795)، وعددهم ثمانية وستون (68).

– ثم بعض الفوائد في أسماء المنازل والبروج وتعيين أيامها وأوقات دخولها وخروجها.

– وبعض الفوائد والأدوية الطِّبية التي كانت مُستعملَة عندهم.

– وقائمة الحراطين القاطنين بسلا في ذلك العهد.

– ثُمَّ قائمة بأسماء السَّماسرة.

– وقائمة القلافْطية.

– وبعدها فوائد أخرى بأسماء البحَّارين وعددهم سبعمائة بحّار (700)، والطُّبْجية وعددهم ستة وخمسون طوبجياً (56).

– ثم ورقة كُتب فيها :

المجاهد الرئيس عبد الله بن الرئيس المجاهد العياشي العَسْري، القبطان على سَلاَ ورباط الفتح.

– ثم تقاييد خاصَّة.

– ثم قائمة بأسماء بحّارة الرئيس عبد الله العسْري، وعددهم مائة وخمسون بحّاراً (150).

– ثم قائمة البحّارة الذين إلى نظر الرئيس عبد الحق، وعددهم ستة وسبعون بحّاراً (76).

– ثم تقييدٌ عام افْتُتح هكذا :

هذا كُنَّاش مبارك سعيد، تضمَّن عدَّة أسماء خُدَّام سيدنا نصره الله، المجاهدين من أهل سلا أمّنها الله تعالى وحَرَسَهَا من كل شدَّة وبلا.

– وسنتبثه هنا بنصِّه لِفَائدته واشتماله على أسماء البحْرية وبمن الْتَحق بهم من الموظفِّين بالأسطول المغربي القرصاني السلاوي الرباطي في ذلك العهد، ومنه تعرف بعض الأُسَرِ الباقية والمنقرضة بالعدوتين إلى يومنا هذا، قال :

*** الرؤساء منهم :**

الرئيس عبد الله بن الرئيس العياشي العسْري

الرئيس عبد الله بن عبد السلام السدْراتي

الرئيس عبد الله بن العربي حَمْدوش

الرئيس السيد مُحمَّد بن قلُوعة

الرئيس عبد الحق بن السيد الطاهر كَحْكَحْنِي

الرئيس الطاهر بن الهاشمي عوَّاد

الرئيس السيد مُحمَّد بن السيد مُحمَّد العَلْو

الرئيس السيد عبد الله بن مُحمَّد أَطُوبِي

*** باش رايس**

السيد بوغابة بن علي الغزواني

السيد مُحمَّد بن الطاهر عوَّاد

السيد بن حسُّون بن علي عمر

عبد الرحمان بن مُحمَّد الصرّْصري

*** رياس عسَّة**

السيد المفضّل بن علي المكودي

السيد ابراهيم بن مُحمَّد حَرَكات

السيد مُحمَّد بن أحمد خرّاط

مولاي مَحمَّد بن عبد السلام ابن الفقيه

عبد السلام بن عيسى مَعْقُول

*** يكانجية**

السيد مُحمَّد بن محمَّد الزّعيم

السيد أحمد بن حجٍّ لَعْلو

الحسين بن بوجمعة

القرشي أغريب

السيد مُحمَّد بن عبد المالك

السيد مُحمَّد بن عبد الله حَرَكات

السيد أحمد بن عبد اللَّه التّطْواني

*** الدمَانجية**

السيد أحمد الفزاري

السيد بوسلْهام الصَّراخ

السيد محمد بن الطاهر لَعْلُو

السيد أحمد بن علي مَعْنِينُ

السيد محمد بن الجيلاني بن عويش.

السيد أحمد التلمساني

السيد محمد السباونجي

السيد محمد بن الطيب والَعْلُو

السيد محمد السدْراتي

السيد المكِّي بن الهاشمي عوَّاد

عبد الرحمان بن عبد السلام

السيد مُحمَّد بن محمَّد بُوعْلِيلْ

عبد الرحمان الغزاوي

المكِّي بن قاسم

السيد محمد بن يعيش

السيد محمد بن الطاهر جلْزيم

السيد أحمد خالص

السيد الصحراوي مَعْنِينُ

*** وارديانات**

الحسن بن الحسن

عبد الله الرياحي

السيد محمد بن بوزيد

السيد بُومَدْيَن بن رحّال

السيد الحسن دياس

السيد الحاج العربي أعْيال

السيد عبد القادر كَحْكَحْنِي

زين الدين المريني

المعطي الحوش

الحسن بن أحمد ولد سيدي مالك

السيد محمد بن العربي العايدي

عبد الله ولد الحاج عمر

ابن حسون المطماطي

قاسم بن عبد الخالق

علي بن علي الشلح

السيد أحمد بن أحمد السفياني

الجيلاني البعيري

الحاج محمد بن حَجٍّ النجّار

المفضل بن بوعزة

السيد الطاهر كَحْكَحْنِي

السيد مُحمَّد عميِّر

السيد محمد بن الشليح الفخّار

سعيد بن سعيد فولُوس

السيد أحمد بن منصور

عبد القادر بن حميدة

حجّي بن سعيد بن ابراهيم

السيد محمد الزّعتْري

ولد بن مالك

الحسن بن مالك

السيد مُحمَّد الغرابْلي

عبد السلام الشيظْمي

الحاج محمد بن الحاج المكّي مَعْنِينُ

السيد محمد بن علي عتّو

الشاب مَحمَّد بن السيد مُحمَّد ملاّح

السيد مُحمَّد بن أحمد شَقْرون

العبَّاس بن عبد السلام قنديل

الحاج محمد بن أحمد بن عيّاد

الحاج مُحمَّد العنَايَة

بنّاصر بن عيّاد

قاسم بن محمد الصَّحْراوي

السيد محمد ولد الرئيس يوسف

العربي بْريطَل

الحاج الهاشمي بوشعرة

رحَّال رزْق اللّه

عبد السلام العلْو

حمُّ بن إبراهيم بن كرّوم

السيد محمد الهاشمي الكَسيمي

الطيب بن زيان

السيد أحمد حَسِيسُو

قاسم بن الحسن جلْزيم

السيد مَحمًّد بن بوشعيب الشًاوي

السيد محمد ولد مبارك الشلّح

السيد محمد بن الهاشمي بن موسى

السيد أحمد التلمْساني

الطاهر ابن نَغْمُوش

حمّان الجرّومي

السيد محمد ولد بنعاشر بن بوزيد

الطاهر الشاوي

عبد القادر بن علي الصبيحي

علي بن علي زنيبر

الطاهر بن قاسم البلاّج

عبد الكريم شقرون

الطاهر الحبشي بن قاسم

الحسن ولد نفّاش

الحاج محمد بن يوسف

العربي بن محمد حدّاد

السيد محمد بن عبد الوهاب

الهاشمي بن عبد السلام الزناتي

عبد القادر بوشعرة

السيد أحمد بن عبد القادر عاشور

عبد السلام الزكاري

السيد أحمد بن محمد العبْدي

السيد محمد ولد الفزاري

عبد السلام بن محمد با يحيى

عبد الرحيم جلْزيم

السيد محمد بن الكبير

السيد محمد ولد بنعاشر المالقي

السيد أحمد بن محمد الكرنبي

السيد العربي حصَّار

الشاب عبد القادر بن الشَّاوَش

عبد الله بن الشليح

العربي القلعي

العربي بن المقدَّم بورحيم

عبد القادر بن محمد فنِّيش

عبد الله بن محمد عاشور

سعيد بن الطَّاهر

الطيب الرَّهوني

السيد بنَّاصر بن الطاهر المير

السيد محمد ولد مولاي الهاشمي

عبد الله بن قْلُوعة

السيد محمد ولد الحاج علي لَعْلُو

السيد محمد خضّور

السيد مَحمَّد بن مُحمَّد بن قدُّور العسري

الركراكي النصّار

ولد صالح الصبيحي

السيد مُحمَّد التازي

حمّ ولد المعلم مسعود

السيد مُحمَّد بن عبد الله الجبْلي

السيد أحمد البواج

ولد الحاج محمد بن الكبير

عبد الرحمان ولد حرّارة

السيد مُحمَّد بن عبد الرحمان المدْيوني

قاسم ولد عبد الرحمان الجرّاب

عبد الله بن السيد مُحمَّد قنديل

السيد أحمد بن رمضان

حمّ بن موسى الكيال

الحاج محمد مَزْقَطٌّ

سعيد بن الحاج بناصر السمّار

ولد بوعزة خالد

عبد الرحمان الدِّيب

الهاشمي عمير

ولد التهامي الكيال

الحاج الشرْقي بن بوزيان

حَمٌّ بن مسعود الحجَّام

السيد محمد بن العايدي

الحاج عبد الحميد الَعْلُو

السيد محمد بن الطاهر خلّو

الحاج أحمد مَحْبُوبَة

المعطي بن السيد محمد الطالب

المفضل بن حَمُّ الشرّاط

السيد أحمد بن عطية

الطيب بن الحاج واعدود القدْميري

المرابط السيد مُحمَّد عُمَر

السيد محمد ولد الحاج العبّاس شقرون

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد الأحرش

ولد الحاج محمد بُوشَنْتُوف

ولد الطاهر التّازي

عبد القادر بن الحاج محمد جغالف

السيد محمد ولد الطاهر القصْري

عبد الرحمان بن مُحمَّد السفياني

السيد محمد بن عيّاد

الشاب حجِّي بُوعَلُّو

عبد الله السَّهْلي

السيد محمد بن بوزيد

أحمد ولد الحاج الحسن زكْري

الطاهر بن محمد الحارثي

المعطي بن المفضّل العايْدي

السيد أحمد بن عبد الرحمان أمْغَار

السيد محمد بن علي زيان

الطاهر بن العبَّاس شَقْرون

السيد أحمد ولد علي السُّوسي

الطيب بن الحاج ابراهيم الغزاوي

الشاب العربي ولد حوَّات

عبد الله بن الحاج الهاشمي وَالَعْلُو

المكِّي ولد السيد محمد زنيبر ولد فطيم

عبد السَّلام النجَّار

السيد ولد العربي فْليسات

السيد أحمد الحطَّاب

السيد محمد غماري

السيد محمد رْبيحْ

السيد ابراهيم امْعدَّال

السيد محمد بن عبد السلام عوَّاد

مسعود بن عبد القادر

بوعزة بن مولاي المغْراوي

ولد السيد مُحمَّد البارودي

الخضر بن الحاج

السيد مُحمَّد بن الحاج مفضَّل لَمْكِينْسِي

المكِّي بن ميلود

السيد موسى بن العبَّاس

*** البحرية**

أحمد بن الرَّضي

السيد سالم البَرِيبْري

مولاي أحمد بن الطَّاهر

السيد محمد بن سليمان

الحاج مُحمَّد كَحْكَحْنِي

الحاج أحمد بَنْسَعيد

السيد مُحمَّد بن مولاي عبد السَّلام

السيد محمد بن عبد النَّبِي

السيد محمد بن بوغابة الغَزْواني

بنعيسى بن حسّون عْمَار

السيد علي الكُرُنْبِي

عبد الواحد التِّطْواني

السيد محمد بن بوعْلام

السيد مَحمَّد بن عبد السلام

السيد الهاشمي عوَّاد

السيد أحمد الزَّعيم

العَنَايَا بن عبد الله حَمْدُوش

السيد مُحمَّد بن قدُّور العَسْري

السيد مُحمَّد بن الحاج حَمْدين

عبد الرحمان أطوبي

الطيِّب اصْنيدل

السيد مُحمَّد أخزّان

السيد محمد القلعي

مولاي العربي بن الهاشمي

مُحمَّد بن أحمد بوشعْرة

الطاهر بن الحدَّاد

بوعزَّة حسيسو

السيد المعطي بن مُحمَّد القدْميري

بوسلهام بن الكوش

عبد العزيز بن مُحمَّد حصّار

الطيِّب القلْعي

السيد محمد اجْلَزِيم

الهاشمي العلاّف

ابن حسّون كَحْكَحْنِي

مولاي أحمد بن قْلِيعة

الحاج قاسم شَقْرون

الحاج محمد الزَّمْراني

الحاج محمَّد الياسمون

السيد محمد الكُرَنْبي

السيد محمَّد بن العربي فْليسات

السيد الهاشمي أَمْغَار

السيد مَحمَّد بن عبد السلام ابن موسى

ولد عبد الله بن إبراهيم

السيد أحمد بن بَنَّاصر كَحْكَحْنِي

ولد عبد الله السّلاوي

السيد محمَّد بن بَسَلاَّم

السيد عبد الرحمان حْسِيسُو

قاسم بن علي التبَّاع

السيد حَمُّ الفرْجي

السيد أحمد بن الجيلاني بن عْويش

المكرّم العربي بن الحاج يْدَرْ

الحاج الطاهر أعْيال

عبد الرحمان بن حمّاد

الطاهر شَقْرون

السيد علي حمّاد

السيد محمَّد بن علي بن داوود

السيد محمَّد بن عبد الرحمان الحواشي

المكرَّم ابن عاشر السمّار

مولاي إدريس المغراوي

عبد السلام بن مالك

عبد الرحمان بن عبد المجيد

قاسم الجبْلي

عبد اللّه شَقْرون

قدّور بن المعْروف

الحاج بوزيان بن سلْمون

السيد محمد ماغوص

عبد الرحمان بن عبد الله الشرّاط

القرشي الرياحي

السيد محمَّد بن محمَّد حْسيِسُو

السيد عمرو القلْفاط

السيد أحمد الكُرُنْبي

السيد محمد المغْراوي

السيد الهاشمي بن موسى

السيد محمَّد بن كرّوم

الحاج العربي الأحْرَش

الحاج أحمد بن عيسى

السيد بلقاسم الغربي

السيد أحمد بن الطاهر التّازي

السيد محمَّد بن الحاج محمَّد شقرون

السيد الحسين الخطيب

السيد الهاشمي الصبّاغ

السيد الهاشمي بن محمَّد بن يحيى

الطاهر بن مُحمَّد بوشعرة

السيد حسن أغْريب

السيد مُحمَّد بن الحاج أحمد حرَكات

مولاي أحمد ولد الرئيس الصَّابُونْجي

مولاي الطاهر البوّاب

عبد اللَّه ساسي

المصطفى بن الشليح

الرَّضِي بن محمَّد الشاوي

السيد مُحمَّد ولد بابا وليدي النجَّار

عبد الكريم بن عياد

السيد مُحمَّد بن عبد الله العَسْري

السيد بنعاشر الشُّوني

السيد مُحمَّد بن بوشعيب الأمين

السيد مُحمَّد الجروّمي

السيد المعطي بن الحسن

السيد أحمد بن عبْد النبي

الجيلاني الطُّونْسي

الهاشمي بّا سيدي

السيد محمد مايُّو

الهاشمي بن محمد المَكِينْسِي

بَلْقاسم الكُرُنْبِي

..................... ؟ البسكري ؟

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد أخَلْفي

بوعزة بن عبد الصَّادق

السيد الطيِّب البارودي

الطيِّب الأبيض

السيد مُحمَّد ولد القُجيري العسْري

السيد محمد بن عبد الله فْلِيلَشْ

السيد أحمد مَعْنِينُ

الحاج المكِّي بن الحسن السُّوسي

السيد مُحمَّد بن محمَّد التلمْساني

مبارك مُعْتَق الرئيس صالح

السيد مُحمَّد بن زائرة

الهاشمي ولد حوّاتة

السيد محمد العبادي

السيد مُحمَّد بن زائرة كشْطر

السيد محمَّد بن عبد الكبير

الطَّاهر بن عبد السَّلام الرّهوني

السيد مَحمَّد بن يحيى

السيد محمد بن سعيد قِيبُّو

الحاج الجيلاني الشّيهَب

الحاج الطَّاهر المريني

السيد مُحمَّد ولد مولاي عزّود

الحاج العربي بن عبد الله سَاسِي

السيد مُحمَّد ولد مولاي علي

السيد بنَّاصر بن الحسن

السيد محمد بن علي العبّادي

عبد الرحمان بوحْميدة

السيد محمد بوعَسْرِية

السيد مُحمَّد ولد مولاي عبد العلي

ابن حسُّون عكْراط

السيد محمد بن يحيى البسْكري

إبراهيم ولد غزَّازة

السيد مُحمَّد الميلودي الصبيحي

السيد مُحمَّد المَنْصوري

بلال بن ابراهيم بُوشْحَم

حجِّي بن الحاج محمد الشِّيهَبْ

السيد مُحمَّد بن الحاج حجي اللّطّام

حسين بن زيد

حجِّي بن زيان

السيد مُحمَّد بن سونة

الجيلاني المشرافي

محمد بنَّاصر النجَّار

إبراهيم بن عيّاد

الشاب إسماعيل بن المفضّل لَعْلُو

جلّول بن الحاج الحسن

جلُّول بن البغدادي

السّماحي بن عبد الله

الصَّغير ولد عيسى القاضي

السيد مُحمَّد بن عبد الرحمان التَّازي

عبد السلام بن بنعاشر بن عامر

السيد مُحمَّد زنيبر حفيد الحارْثي

عبد اللّه ولد الحاج بن عبد الصَّادق

المعلَّم قاسم بن سعيد

مولاي إدريس الخيَّاط

ولد الحاج محمد الحجّام

مَحمَّد بن مسعود السبيطي

السيد مُحمَّد بن عبد الله الأبيض

السيد محمَّد بن الحاج محمَّد الفرْجي

إبراهيم بن الحاج مُحمَّد بن عبد السلام

السَيد مُحمَّد بن قاسم اللَّواجْري

عبد السَّلام ولد الطَّاهر السفْياني

قاسم بن يوسف بن مَوْلود

السيد أحمد بن حَمْدُوش

السيد عُمَر بن علي ولد أُخْت بَرِّيان

*** وصفان سيدنا أهل المهدية**

أولهم مَحمَّد بن عبد السلام

عبد اللّه بنعيسى

مَحمَّد بن منصور

أحمد بن علي

بوعزَّة بن الجيلاني

مُحمَّد بن مبارك

مُحمَّد بن عبد الرحمان

الخطيب بن أحمد

سعيد بن الغازي

الجيلاني بن عبد السَّلام

عيسى بن عيسى بن بوروان

باطنْ باشرا

*** عدد المقعدين من البحرية**

أولهم الطَّيب قَبْطِينْ

السيد مُحمَّد بن عبد الله الكْحَيَّلْ

عبد الله عوَّاد

عبد الرحمان المَدْيوني

عبد السلام عوَّاد

الطاهر بن أحمد بن سليمان

السيد مُحمَّد بن المكِّي

الهاشمي العَمْري

الحسين مَلاَّح

الحاج العربي السبيطي

ولد مبارك أعْراب

الطاهر بن مُحمَّد حَرَكَات

الهاشمي المدْيوني

الطاهر البرّي

الرِّضي بن الحاج مفضّل الرِّضي

السيد مُحمَّد بن الحسين

المفضّل لَعْلُو

السيد محمَّد ماماني

الحاج علي عُمر

عزُّوز بن الحسن

السيد مُحمَّد حْسيِسُو

الهاشمي بن موسى

عبد السَّلام بن زائرة

الحاج مُحمَّد العَسْري

وبعده

أَلْزَمِي الْوَحْــــدَةَ تَنْجُــــو مَــــا بَقِي فِي النَّاسِ خُلَّـهْ

إِنَّ وُدَّ الـنَّـاس أَضْـــــحَــى لِـنِـفَــــــــاقٍ أَوْ لِـعِـلَّـهْ

وَبِـرِزْقِ اللَّـهِ فَــــــاقْـنَـعْ إِنَّ فِي الْحِــــرْصِ مَــــذَلَّهْ

فَـــاتْرُكِ الأَصْـــحَــابَ إِلاَّ صَــاحِـبــاً يَهْـديكَ لِلَّهْ

آخِـــرَ الدُّنْيَـــا فَنَـاءٌ ثُـمَّ يَبْــــــقَى الْمُلْكُ لِلَّـهْ

وبعده

(الملك، الملْك)

## عدة أسماء خُدَّام سيدنا، نصره الله، المجاهدين الطُّبْجِية من أهل سلا، أمَّنها الله من كل شِدَّة وبلا

المجاهد السيد بنَّاصر السَّدْراتي

المجاهد الحاج الطيِّب حَرَكات

المجاهد الحاج الطَّاهر بن ابْراهيم

المجاهد السيد أحمد التِّيال

المجاهد عبد العزيز بن الحُسَين فَنِّيش

المجاهد السيد أحمد بن الحسن

الشريف مولاي الطاهر بن عبد القادر

قاسم بن عبد العزيز حَمْدُوش

الحاج العربي بن بوعزة الرَّسْموكي

السيد محمد بن العَيَّاشي بُوحْمُوشْ

الطالب السيد مُحمَّد ابن الحاج

السيد الطاهر بن السيد الحاج علي مَحْمود

الحاج مُحمَّد بن الحاج أحمد بن قاسم زنيبر

الحاج مُحمَّد بن بوعزة بو جْميعة

الطالب السيد الحاج مُحمَّد بن عَمْرو

السيد الحاج مُحمَّد بن اليمني

السيد بوعزَّة بن العربي غْمِيرَسْ

السيد الحاج بنَّاصر النجّار

الحاج محمَّد بن السيد الحاج بنسعيد حَرَكَات

الحاج محمد المَكْينْسِي

الحاج مُحمَّد بن السيد العربي حرَكات

السيد مُحمَّد القَصْري

السيد سعيد بن الحاج

السيد مُحمَّد بن عبد الله مَعْنينُ

الحاج حسن بن عبد الله غْزِيّلْ

السيد مُحمَّد بن عبد الكريم بُوحْمَاد

السيد محمَّد غليظ

السيد الهاشمي الحُصَيْنِي

الحاج عبد القادر زنيبر

الحاج مَحمَّد بن الحاج بناصر النّسب

الحاج مُحمَّد بن مُحمَّد الحافي

الحاج مُحَمَّد بن مُحَمَّد حْسِيسُو

السيد مُحمَّد بن دحْمان

السيد مُحمَّد بن يحيي با يَحْيَى

السيد أحمد بن مُحمَّد الصبيحي

حجِّي بن قاسم زنيبر

عبد السلام بن علي أَخَلْفِي

حجِّي بن الحاج الطاهر أمْغار

السيد أحمد بن مُحمَّد الرچراچي

السيد مُحمَّد بن الحاج مَحمَّد بن عَزُّوز

مولاي الهاشمي بن مولاي العربي

عبد السلام بن ابراهيم بُوعَلّو

السيد مُحمَّد بن أحمد بن عيّاد

محمد بن السيد مُحمَّد عمر

عبد القادر بن السيد مُحمَّد مَعْنِينُ

الحاج مَحمَّد باسْلام

السيد محمَّد بن عبد السَّلام الحافي

عبد الهادي العسْري

السيد مُحمَّد بن الخَضر المدْيوني

انتهى تقييد البُونْبْجِيَة، وعددهم خمسون (50).

* **تقييد الطبْجية المدافْعية**

السيد عبد الله الرضي

عبد القادر النجّار

السيد محمد بن عبد النَّبي الشُّوني

السيد الحاج الهاشمي زنيبر

السيد يوسف الخَلْطِي

ابن عاشر بن السيد مُحمَّد أوْزان

السيد مُحمَّد رمضان

السيد أحمد بن حسُّون بن عزُّوز

السيد الطيب بن رحّو

عبد الرحمان بن الحاج عبد المالك بن عُمَر

السيد أحمد بن المعلم فاتح

السيد محمَّد بن الحاج عبد الله يعقوب

أحمد بن الحاج إِيدَرْ

السيد العربي الصبَّاغ

الحاج أحمد بن دَاوُود

العربي بن الحسن

السيد مُحمَّد بن الجيلاني

السيد محمَّد بن عبد القادر

السيد محمَّد بوحميدة

السيد أحمد بن التُّومية

السيد الطيِّب بن بوعزَّة

السيد مُحمَّد الحصيني

الحاج بوعزَّة بن العربي

السيد أحمد بن غانم

الحاج حجِّي زنيبر

ابن عاشر الرَّضي

السيد أحمد بن عبد القادر النجَّار

السيد أحمد بن الحاج عبد الله يَعْقُوب

عيسى بن مُحمَّد ابن القاضي

السيد بنَّاصر بن عَبُّو

العربي بن أحمد السفياني

بنَّاصر بن أحمد النجَّار

بوعبيد بن مُحمَّد الدكَّالي

السيد محمَّد جَلْزِيم

عبد الرحمان أَمْغار

السيد محمَّد الشليح

السيد محمَّد بن موسى

السيد الهاشمي بن مُحمَّد مَعْنِينُ

السيد مُحمَّد بن عبد الملك بن عُمَر

السيد الطاهر بن الحسن خرّاط

جلُّول جْفَالَفْ

السيد أحمد بن مُحمَّد بن يحيى

الحاج أحمد بن الحاج محمَّد حَصَّار

عبد العزيز عوّاد

عبد الله بن علي

الطاهر بن محمَّد لَعْلُو

السيد محمد بن الطَّاهر ابن زايرة

السيد مُحمَّد بن التهامي البَرِيبْرِي

السيد مُحمَّد بن علي الشاوي

السيد مُحمَّد بن عبد القادر ابن ريّان

السيد مُحمَّد بن علي المالكي

السيد محمَّد بن أحمد بوشَعْرَة

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد أَخَلْفِي

السيد عبد السلام بن سعيد

العربي بن عبد السَّلام

السيد حجِّي بوحْمِيدَة

السيد مُحمَّد بن عبد القادر الزيَّات

عُمر بن المفضَّل الجرّومي

التِّهامي البارودي

بوغابة بن مسعود

القجيري التِّطَّاوْنِي

الطاهر بن عبد الله بن عبد السلام

يوسف بن ابراهيم الحجَّام

السيد مُحمَّد بن بوشعيب الشَّاوي

العربي بن محمَّد الدكَّالي

مولاي علي بن قْطْبان

السيد مُحمَّد بن الحاج مُحمَّد بن موسى

السيد أحمد بن الحسيْن لَعْلُو

السيد مُحمَّد بن عزُّوز الحطّاب

عبد القادر مْهارش

السيد مُحمَّد بن محمَّد بن الطاهر بوشَعْرَة

بوغابة بن محمَّد السفياني

المعطي الحَنْصالي

الطاهر بن الهاشمي ملاّح

الحاج أحمد بن العربي

عبد الحق بن مُحمَّد بْرِيطَلْ

العربي بن سعيد الحوش

عبد الله الجزولي

العربي الحارثي

أحمد بن الحاج مُحمَّد الحريري

السيد مُحمَّد ابن جعْنة

السيد محمَّد بن الدكالي النجَّار

السيد مُحمَّد بن العربي الصبيحي

عبد الله بن رمضان

بوبكر بن عبد الله شمْاعُو

السيد مُحمَّد بن العربي السفياني

السيد مُحمَّد بن حجِّي مَعْنِينُ

الحسين بن بوشعيب الشاوي

بوبكر بن الحاج مُحمَّد المالقي

عبد الله بن علي

السيد مُحمَّد بن ابراهيم النجَّار

السيد مُحمَّد بن عبد الله حَرَكات

السيد مَحمَّد بن عبد العزيز الزّواوي

السيد أحمد بوحْميدة

الحاج ابراهيم بن مُحمَّد مَعْنِينُ

عبد الله زُنَيْبِر

السيد صالح بن الطَّاهر

سعيد المَكِينْسِي

عبد الله بن ابراهيم

السيد مُحمَّد بن أحمد التَّريكي

الحاج مُحمَّد بوشعرة

الطيِّب بن محمَّد بن عُمر

الهاشمي بن عُمر ملاَّح

السيد مُحمَّد بن أحمد ملاَّح

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد الزَّرْهوني

بنَّاصر بن مُحمَّد بن ابراهيم

السيد مُحمَّد بن الجيلاني بوعزَّة

السيد علي بن قاسم

السيد أحمد بن الحاج مَحمَّد عوَّاد

المصطفى بن الحارثي

سعيد الحافي

عبد القادر فاتح

أحمد بن عبد القادر بُوعَلُّو

السيد مَحمَّد چِلْزِيمْ

السيد حجّي بن الحاج الطاهر الزّواوي

الهاشمي بن بوعزّة والحاج

السيد مُحمَّد بن الطاهر التّازي

الحاج أحمد الغَرْبي

الحاج مُحمَّد بن عيسى الجيّار

*** تقييد الطبجية من أولاد فنيش**

الهاشمي بن عبد العزيز فَنِّيشْ

السيد أحمد الطالب بن عبد العزيز

السيد محمد بن السيد العَرْبِي النَّسب

عبد الرحمان بن عبد العزيز فنيش

عبد الوهاب بن عبد الحقّ

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد بن الحسين النَّسب

أخوه السيد مُحمَّد النَّسب

الحاج أحمد بن محمَّد بن عبد الرحمان

أخوه عبد الرحمان النَّسب

والده السيد محمد النَّسب

أخوه السيد الحاج حمّو

السيد بنّاصر بن الحاج أحمد النَّسب

أخوه الشاب الهاشمي

السيد مُحمَّد بن عبد القادر النَّسب

الطَّاهر بن محمَّد بن الطَّاهر

السيد مُحمَّد بن عبد الله النَّسب

أخوه الشاب عبد اللطيف

أخوه الشاب ابْراهيم

السيد مُحمَّد بن عبد الرحمان النَّسب

ولده الشاب السيد مُحمَّد

السيد مُحمَّد بن مُحمَّد النَّسب

أخوه الشاب السيد مُحمَّد

السيد بن الحسيْن النَّسب

أحمد بن الحسن فَنّيشْ

الحسيْن بن أحمد بن الحسيْن فَنّيشْ

جميع البونبجية والمدافعية، هذا : مائتين (200). اهـ.

هذا : وبآخر «الدَّفْتَر» بعض الَّدعوات والأشعار والأذكار، كـ«المنفرجة»، وقصائد ملحونة تُقرأ لطلب الفرج عند هيجان البحْر، واشتداد الكرْب، بمضايقة العدو واشتعال نار الحرب.

وبالجملة، فهذا «الدفتر» مفيد في بابه، وسجّل أموراً من أعمال الأسطول المغربي السلاوي الرباطي وقرصنته في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وبعض دولة ولده السلطان المولى سليمان، رحمهما الله. ولولاه لضاعت أخبارها، وطُمست أعلامها ومعالمها.

ولولاه أيضا لضاعت أسماء عدد كبير من الرؤساء والأُسر الذين كان بيدهم الأمر في تسيير هذا الأسطول والقيام بشؤونه، منهم من انقرض وذهب في الذاهبين الأولين، ومنهم من بقي عقبه إلى الآن. والدوام والبقاء لله سبحانه.

# الفصل السابع

## عن الأسطول المغربي
## في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله،
## وما بلغه من القوة والسطوة،
## وما قام به من أعمال لحماية الشواطئ المغربية،
## وما تخلّل ذلك من مظاهرات عدائية فرنسية
## ضد بعض المدن المغربية.

# المبحث الأول

## موقف الأسطول الأوروبي
## من الأسطول المحمّدي
## وموقف الأسطول المحمّدي منه

لمّا أتمّ السلطان سيدي محمد بن عبد الله تجهيز أسطوله وتجديده، وأحيا مراسمه، وأقام معالمه، وضاعف عدده، ووصل مدده، صارت وحداته على اختلاف أنواعها، ما بين كبير، ومتوسط وصغير، من المربّع، والفراكيط والغلائط تُعدُّ بالمئين.

وبلغ رؤساء هذا الأسطول العتيد، عدداً يتجاوز الستّين رئيساً، كلهم بمراكبهم المتعدّدة، وبحريتهم المتنوّعة.

وتجاوز عسكر هذه البحرية من المشارقة عدّة آلاف، وما يزيد على بضعة عشر ألفاً من المغاربة، ومن الطبْجيين ما يزيد على الألفيْن، مُوَزَّعين على ثغور المغرب ومراسيه لحراستها، ومواجهة العدو خشية أن يحتلّها أو ينال منها.

قال في «الاستقصا»(71) :

كان بثغر الصويرة أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، ما بين جيش، وطبجية، وبحرية، ألفان وخمسمائة، وبآسفي مائتان من الطبجية، ومائتان من البحرية، وبتيط خمسمائة من العبيد، وبأزمور خمسمائة منهم كذلك، وبأنْفا ألفان من العبيد، وبالعدوتيْن، ألفان من الطبجية والبحرية، وبالمهدية ألفان وخمسمائة من العبيد، وبالعرائش، ألف وخمسمائة، ما بين جيش، وطبجية، وبحرية، وبأصيلا والساحل مائتان ما بين طبجية

71) ص 117 من ج 4، طبع القاهرة. وص 80 من ج 7، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وبحرية، وبطنجة، ثلاثة آلاف وستمائة من أهل الرِّيف، وبتطاوين، ثمانمائة، ما بين جيش، وطبجية وبحرية، فكانت جملة عساكر الثغور، ستة عشر ألفاً وخمسمائة.

وكانت الحالة مضطربة في أوروبّا، بسبب محاربة فرنسا وإصبانيا لإنجلترا، واتِّفاقهما على حماية أساطيلهما التجارية الماخرة في البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلنطيقي وحراستها بأساطيلهم البحرية.

قال كواندرو (Coindreau) في كتابه (Les Corsaires de Salé) [72]، لم يحصل الأسطول المحمدي السلاوي الرباطي في هذه الحالة والظروف المتجلِّية على نتيجة كُبرى، بسبب تلك الحراسة والحماية الشديدة.

ولمَّا عُقد الصلح بين هذه الدول، سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف (1176/1763)، وانحلَّت بمقتضاه اتِّفاقية حماية وحراسة السفن التجارية، حصلَّت القرصنة السلاوية الرباطية على نتائج ظاهرة، وفي ميدان الفوز بالغنائم كعادتها باهرة، وصارت كلَّما خرجت ترجع سالمة غانمة ظافرة.

فحرَّك هذا الفوز المتوالي، ردَّ فعل قويٍّ من بعض الدول الأوربية، ومنها فرنسا، فَكَبُر عليها ما رأته من جرأة قراصنة الدولة المحمدية البارزين من الحضرتيْن الرقراقيتيْن، السلاوية والرباطية.

فأخرجت أحد كبار بحّارتها الفارس دوفابري (De Fabry)، وأمرته أن يتجوَّل بالسواحل المغربية، طمعاً في أخذ بعض السفن القرصانية، فتجوَّل فيها، منذ أول سنة ثلاث وستين وسبعمائة وألف (1176/1763)، إلى أوَّل سنة أربع وستين وسبعمائة وألف (1177/1764)، بدون طائل.

واتَّفق أنَّه في هذه السنة، يعني سنة أربع وستين وسبعمائة وألف (1177/1764)، استولى قراصنة العدوتين، أمام مرسى قادس، على السفينة الفرنسية المسمَّاة سرين (Sirène) وبادروا إلى تسليحها واستعمالها في قرصنتهم.

---

72) ص 202، طبع باريس سنة 1948.

## هجوم الفرنسيس على سلا والعرائش ورجوعهم عنها بالخيبة.

كان من نتيجة استيلاء قراصنة العدوتين على السفينة المذكورة أنْ أمر لويس الخامس عشر سنة خمس وستين وسبعمائة وألف (1178/1765)، الأميرال دوشافولط (De Chaffault) بالخروج إلى البحر في أسطوله ليقضي على القرصنة الشريفة قضاءً مبرماً، فخرج في اثني عشر قطعة من أسطوله، وألقى مراسيه أمام مدينة سلا في متم مايه من السنة المذكورة، ووافق ذلك يوم عيد الأضحى سنة ثمان وسبعين ومائة وألف 1178 (31 مايو سنة 1765).

وفي ثاني شهر يونيه الموافق لثاني عشر ذي الحجة (2 يونيو/18 حجة)، شرع في رمْي سلا بالقنابل المدمِّرة المُحْرقة، ثمَّ انقطع الرَّمْي بسبب الزوابع والرياح التي أرسلها الله عليهم، واستُؤنف يوم ثامن يونيه الموافق لثامن عشر ذي الحجة من السنة، (8 يونيو /18 حجة) بلا طائل ولا فائدة تذكر، أو تُعتبر وتُسطَّر.

ثم أقلعتْ القطع الحربية كلها ما عدا اثنتين منها، وتوجَّهت إلى العرائش، ودخلت وادي لُكُوسْ في السابع والعشرين من يونيه الموافق لثامن محرم فاتح عام تسعة وسبعين ومائة وألف (27 يونيو 8/1765 محرم 1179) فلقيته خسارة عظيمة وانهزمت انهزاماً شنيعاً، وغادرت المرسى، وتربَّص الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي بالخروج إلى البحر من مراسيه بأبي رقراق، والمهدية، والعرائش لمتابعتها لحرج الموقف، فصادفتْ في طريقها سفينة سلاوية رباطية في عرض البحر فدمَّرتها، ولقيتْ سُفناً أخرى، هولاندية دانماركية ماخرة بالسواحل المغربية حاملة أسلحة وأعتدة حربية لسلطان المغرب، سيدي محمد بن عبد الله، فأسرتْها وأرغمتْها على التوجُّه إلى مرسى طولون (Toulon) فحُجزت بها، حسبما نصَّ على ذلك كواندورو (Coindreau) في كتابه «قراصنة سلا» (Les Corsaires de Salé) [73].

وقد ساق أبو العباس الناصري خبر هذا الهجوم في «الاستقصا»[74] بقوله :

قد قدَّمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، رحمه الله، من الوُلوع بأمر البحر والجهاد فيه، فلم تزل قراصينه تتردَّد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفرة، فتقتل وتأسر، وتغنم وتسبي، إلى أن ضاق بهم رحب الفضاء، وكاد يستأصل جمهورهم حكم

---

73) ص 203.

74) ص 99 من ج 4، طبع القاهرة. وص 30 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

القضاء، فمنهم من فَزِعَ إلى طلب المهادنة وحسن الجوار، ومنهم من كذبته نفسه، فتطاول إلى أخذ الثار.

ومن هذا القسم الثاني جنس الفرنسيس، فإنَّ قراصين السلطان رحمه الله، كانت قد غنمت منه مركباً ساقته إلى مرسى العرائش، وغنمت منه غير ذلك في مرَّات متعدِّدة، فدعا ذلك إلى أن هجم على ثغر سلا، أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1765/1178).

قال الغزّال في رحلته : رمى الفرنسيس بمرسى سلا من الأنفاض والبنب ما ظَنَّ أنَّه يحصل به على طائل، فأُجيب منها بضعف ذلك، فلم يلبثْ إلاَّ وأجفانه هاربة تقفوا أواخرُها الأوائل، وفرَّ هارباً مهزوماً، ساقط الألوية مذموماً.

ورأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكِّي السَّدْراتي السلاوي، رحمه الله، ما صورته :

هجم الفرنسيس على مدينة سلا، يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (11 حجة 1/1178 يونيو سنة 1765)، فأقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر، ولم يفعلوا شيئا وفي يوم الأحد، تقدَّمت سفنهم، فرموا من البُنْب مائة وسبعين، وهُدِّمت الدُّور، وفرَّ النساء والصبيان خارج البلد، ولم يبق بها إلاَّ القليل، وكان يوماً مشهوداً.

وفي صبيحة يوم الاثنين، أرسل الله عليهم الريح ففرَّقت مراكبهم، ونفَّس الله على المسلمين، وفي يوم السبت الآتي بعده رجعوا، فرموا مائة وعشرين، وفي يوم الثلاثاء رموا مائة ونيفاً وثلاثين، ولم يُسْتشهد من المسلمين في تلك المُدَّة سوى رجل واحد.

ثم قال الغزّال : ثم إنَّ الفرنسيس عالج ما انصدع من أجفانه في حرب سلا، ثمَّ هجم على ثغر العرائش.

قال السَّدْراتي : فرمى عليها فيما ذكروا أربعة آلاف نَفْض ونيف وثلاثين نفضاً، وخرَّبوها وهدَّموا دورها ومسجدها.

قال : وذلك مفتتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف (1765/1179).

وفي يوم الخميس الثاني من المحرم (2 محرم 12/1179 مايو 1765)، وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء (19 مايو)، اقتحموا المرسى في خمسة عشر قاربا مشحونة من العسكر بنحو الألف، وفيها من الشلظاظ والفَسْيان عدد كبير، وتصاعدوا مع مجرى الوادي إلى مراكب السلطان التي كانت هنالك، فحرقوا سفينة منها، وهي التي غنمها المسلمون منهم، وعمدوا

إلي أخرى، فكسروها بالمعاول والفؤوس، ثم تكاثر عليهم المسلمون، وقاتلهم بنو كَرْفَطْ، وأهل السَّاحل حتَّى ردُّوهم على أعقابهم.

ولمَّا انقلبوا راجعين إلى مراكبهم، وجدوا عرب الغرب مع قائدهم الحبيب المالكي قد أخذ بمخنقهم على فم المرسى، وانبثُّوا لهم على الحجر الذي هنالك، وبعث الله ريحاً من جهة البحر، عَظُمت بها أمواجه، ومنعتهم من الخروج، فكانوا إذا توسَّطوا الوادي ليخرجوا، ردَّتهم الريح، وإذا انحازوا إلى أحد الشطَّيْن، رماهم المسلمون بالرَّصاص، حتى استاصلوا جمهورهم، ثم سبحوا إليهم حتَّى خالطوهم في قواربهم، فاستاقوا أحد عشر قارباً، ونجا أربعة، وتقسَّمهم المسلمون بين قتيل وأسير، وتفرَّقوا في الأعراب والبادية أيدي سبَا.

ثم أمر السلطان بجمعهم، وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالاً وكسوة، فاجتمع منهم نحو الخمسين، فبقوا في الأسر إلى أن توسَّط في فدائهم طاغية الإصبنيول، فَفُدُوا بمال له بال.

وأمَّا رؤوس القتلى، فقد أمر السلطان، رحمه الله، بتوجيه نحو الثمانين منها إلى سلا، فعلِّقت بالصَّقالة القريبة من ضريح الشيخ أبي العباس ابن عاشر.

وبعد هذا، وقع الصلح مع جنس الفرنسيس، وانعقدت الشروط معه حسبما تقدَّم عند الكلام على فداء الأسرى في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

ثم إنَّه، رحمه الله، قَدِمَ العرائش عقب هذه الوقعة، وأقام بها شهراً، واعتنى بشأنها، فبنى بها الصقائل والأبراج حتى صارت من أعمر الثغور. اهـ. ما جاء في «الاستقصا».

وساق خبر هذا الهجوم أيضاً أبو عبد الله الضُّعيف في مجموعة مقيداته التاريخية[75]، فقال:

«وفي شهر ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومائة وألف (1765/1178) حصر الفرنسيس على رباط الفتح، ومدينة سلا بالسفن من البحر، فرجعت سفينة الرئيس سالم من تحت القصبة، وهي «الماعونة» التي لم يُنشئ أمير المومنين أكبر منها، وكانت تريد الخروج للسفر في البحر، فرجعت أمام صومعة حسَّان.

وأخذ الفرنسيون يرمون الأنفاض من الكور والبُنْب على مدينة سلا، ففزع أهلها، وخرج البعض منهم إلى خارج المدينة ونصبوا الأخبية والقياطين.

75) ص 26 من ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكان ظهورهم بالعدوتيْن، يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي الحجة (21 حجة/11 مايه)، ولم يُحصِّلوا على طائل، فأقلعوا وانصرفوا بسفنهم لأخذ العرائش، فحاصروها أياماً، بعد أنْ هدَّموها، ونزلوا في الفلائك والقوارب، ودخلوا المرسى، فأطبق عليهم المسلمون بوادي العرائش من سفيان وبني مالك، وأهل الساحل».

وحضر في هذه الغزوة القائد الحبيب بن مالك، وأبدأ وأعاد، حتى قال : «كلّ من رأيتموه مضروباً بين عينيه من النصارى فأنا الذي ضربته»، وكانوا يدخلون تحت الفلائك ويقلبونها على النصارى، فهربوا في الغابة، فكانوا يلتقطونهم بعد الغزوة.

ثم أمر السلطان بتعليق رؤوسهم بالمراسي، فعلّق من رؤوسهم نحو الثلاثمائة بسلا في البساتين والأبراج. وفي رباط الفتح على ساحل البحر، وفي العرائش، وطنجة، وتطوان.

وساقها أيضاً الشريف أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان في «إعلام الناس»[76]، بقوله :

وفي عام ثمانية وسبعين ومائة وألف (1765/1178)، كان أسطول المترجم (يعني سيدي محمد بن عبد الله) يتردّد بين أكناف البحار، ويجوس خلال الثغور الأجنبية، فيقتنص مراكب الأجناس الأجانب، إذْ كانت المهادنة غير مقرّرة تماماً، وكان من جملة ما غنم الأسطول المغربي، أسطولاً فرنسياً.

ثم ورد مركب فرنسي على مرسى سلا والرباط، وأطلق عليها قنابله، وذلك يوم الجمعة حادي عشر ذي الحجة (11 حجة /1 يونيه)، فخرج أهل الثغريْن لظاهر البلد والأجنة بأولادهم، وضربوا الأخبية، وحصّن الرئيس سالم المراكب السلطانية التي كانت تريد السفر للخارج أمام مناز حسّان، واستمرّ الأمر على ذلك ثلاثة أيام.

ولمّا لمْ يُحصِّل الأسطول الفرنسي على طائل، أقلع ورجع من حيث أتى.

ثم قال : وفي عام تسعة وسبعين ومائة وألف (1179/1765-1766)، هجم الأسطول الفرنسي على العرائش، فخرّبها، وهدّم مسجدها ودورها بما ألقى عليها من المقذوفات المُدمِّرة.

وفي اليوم الثاني من هجومه، نزل من عساكر أسطوله ألف، واقتحموا الوادي في خمسة عشر قارباً، وكانت المراكب المغربية راسية هناك، فحرقوا السفينة التي غُنمت منهم،

76) ص 164 من ج 3.

وكسروا أخرى كانت بجانبها، ثم رجعوا، فوجدوا القائد الحبيب الحمّادي المالكي الغرباوي، قطع خطّ الرجعة عليهم، وأخذ بمخنقهم على فم الوادي، فأسر منهم أحد عشر قارباً بما فيها، ونجا أربعة، وأرسل من أسر منهم إلى السلطان لعاصمة الجنوب بمراكش الحمراء، ولم يزالوا عنده، إلى أنْ فدتهم دولتهم، ووقع الصلح في السنة بعدها، وهي معاهدة عام ثمانين ومائة وألف (1767/1180)، وكانت في التاسع والعشرين من المحرم، الموافق للثامن والعشرين مايه سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (29 محرم 28/1180 ماي 1767)، على يد السفير الكونت دوبرينيون (Le Comte de Breugnon) بعدما بذلت فرنسا وإصبانيا هدايا نفيسة راغبة في الصلح، حسبما تقدّم مفصّلاً عن الأمير أبي محمد عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله في كتابه «درة السلوك»، في فصل سفارة السفير مارسيل إلى فرنسا لتصفية مسائل الأسرى معها.

وقد أشار أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في رجزه «إتحاف أشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا» لاستشراف السلطان سيدي محمد بن عبد الله، للغزو، وتجديده للأسطول وما نشأ عن ذلك بقوله :[77]

وَاسْتَشْرَفَتْ هِمَّتُهُ لِلْغَزْوِ ... وَحَلَّقَتْ أَطْمَاعُهُ لِلْجَوِّ
فَجَدَّدَ الأُسْطُولَ وَالْمَرَاكِبَا ... وَاسْتَجْلَبَ الأَنْفَاضَ وَالْعَجَائِبَا
وَأَرْكَبَ الْغُزَاةَ مَتْنَ الْبَحْرِ ... مُلَجِّجِينَ كَالْبُزَاةِ الصُّقْرِ
وَطَعَنَ الْبَحْرَ بِهَذَا الْجُنْدِ ... شَرْقاً وَغَرْباً جَائِلاً لِّلْبَيْدِ
فَكَمْ جِفَاناً مِنْ بِحَارٍ سَاقُوا ... وَكَمْ غَنَائِمَ لَهَا تُسَاقُ
وَكَمْ ثُغُورٍ لِلْفُتُوحِ تُحْصَرُ ... وَكَمْ سَفِينٍ بِالنِّضَالِ تُقْهَرُ
وَقَدْ أَقَامَ الرُّعْبَ فِي الإِفْرَنْجِ ... لَمَّا انْتَحَى أُسْطُولَهُمْ بِالنَّهْجِ
وَسَاءَهُمْ بِجَمْعِهِ الأَعْدَادَ ... مِنَ الْقَرَاصِينِ غَدَتْ أَمْدَادَا
قَدْ بَلَغَتْ نَحْوَ الثَّلاَثِمَائَةْ ... مِنَ الْمَرَاكِبِ بِمَتْنِ اللُّجَّةْ
وَجُلُّهَا بِالْمَدْفَعِ الْمُعَدِّ ... وَمِنْ طِبَاقٍ كَثُرَتْ لِلْمَدَدِ
وَوَصَلَ التُّرْكَ بِمَالٍ وَسَفِينْ ... وَعَدَدٍ وَعُدَّةٍ طُولَ السِّنِينْ

77) ورقة 122من النسخة المصورة بالمكتبة الناصرية بسلا.

يشير إلى ما كان بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وبين السلطان مصطفى العثماني من المواصلة والمراسلة ومبادلة السفراء والهدايا النقدية، والتُّحف النفيسة الجوهرية، وخصوصاً ما يتعلَّق بالأساطيل وتجهيزها بالعُدَّة والمعونة والسِّلاح على اختلاف أنواعها، ووُفود جماعة الأتراك الفنِّيين الاختصاصيِّين في إفراغ المدافع، وصناعة البُنْب، وبناء السفن ودور صناعتها، والطُّبْجية وغيرهم، ثم قال :

فَهَالَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَايَنُو ... وَجَمَّ مَالِهِ وَصُلْحاً أَعْلَنُوا
فَوَفَدُوا لِبَابِهِ مُسَالِمِينْ ... وَلِرِضَاهُ وَمُنَاهُ طَالِبِينْ
وَأَبْصَرُوا الأَمْرَ يَؤُلُ لِلشَّطَطْ ... وَلِلنِّضَالِ إِنْ تَجَاوَزَ الْغَلَطْ
فَعَقَدَ السِّلْمَ مَعَ الإِصْبَانِ ... وَبَعْدَهُ الْفَرَنْسِ بِالإِعْلاَنِ
ثُمَّتَ وَافَى غَيْرُهُمْ لِلْهُدْنَةْ ... فَعُقِدَتْ عَلَى شُرُوطٍ عِدَّةْ

قال أبو عبد الله الضعيف في «مجموعته التاريخية»(78) : لمَّا مرَّ السلطان سيدي محمد ابن عبد الله علي الرباط وسلا، سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف (1759/1172) وجد الرؤساء :

– مُحمَّد عوَّاد مَانْطَة السلاوي

– ومُحمَّد عوَّاد (آخر) يُعرف بقنديل السلاوي (كذا بالأصل) ؟

– والعربي المَسْتيري الرباطي،

رجعوا من غزوهم في البحر، وغنموا سفينة من جنْس السويد، ففرح بها، وأعطى لكلِّ واحد من أولئك الرؤساء، سلاحاً من الذهب مثل السيف، والخنجر، ومكحلة، وكسوة، وأعطى للبحرية كذلك.

ثم قال : وسافر القائد العربي المستيري في الحين، فغنم سفينتيْن اثنتيْن إحداهما بُرتغالية، والأخرى سُويدية.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الدكالي في بعض مقيداته : الغالب على الظَّن أنَّ هذه السفينة البرتغالية، هي المختطفة من مرسى أشبونة، وكان بها ستون من البرتغال، سُجنوا بهرْي بمرسى الدار البيضاء عام اثنتين وسبعين ومائة وألف (1759/1172).

78) صفحة 13 من ج 2، من النسخة المخطوطة بالخزانة الناصرية السلاوية.

ثم قال الضعيف في مجموعته التاريخية أيضا[79].

في أوائل سنة أربع وسبعين ومائة وألف 1174 (أوائل سنة 1761) تَقَرَّب ملوك النصارى بالهدايا (للسلطان سيدي محمد بن عبد الله) طالبين رضاه، لأنَّه حيَّرهم بأسطوله في البحر، وأسر منهم ما لا يُحْصى كثرة، وتكاثرت سفنه ومراكبه البحرية، وساعده الحظ.

وكان الرؤساء من أهل سلا والرباط يفدون عليه بمراكش بما غنموه من الأسرى، وهم :

- الرئيس العربي المستيري
- الرئيس عوَّاد السلاوي
- الرئيس الكَوَّار الرباطي
- الرئيس العربي حكَم الرباطي
- الرئيس قَنْديل السلاوي
- الرئيس أحمد الواد
- الرئيس صالح. وغيرهم

وكان كل هؤلاء الرؤساء بسُفُنهم وكانوا يغنمون سُفُن النصارى ويقدِّمونها للسلطان.

وبعد عقد الصلح، وتطبيق شروطه، فترتْ أعمال القرصنة مع الدول المصالح معها.

وكانت السفن من الجانبيْن : المغربي والأوروبي، تسافر في البحر في أَمْن واطْمئنان على ركَّابها وسِلَعها الموسوقة فيها، مدَّة نحو سبع سنوات، إلى أنْ كان رجب من عام سبعة وثمانين ومائة وألف 1187 (شتنبر سنة 1773)، فخرج الرئيس الهاشمي المستيري الرباطي في خمس قطع من الأسطول المحمدي، الرابض عادة بنهر أبي رقراق، متجوِّلاً في البحر، فلَقِيَ فركاطة حربية لولاية طوسكان (Toscane)، من إيطاليا الوسطى، عند محاذاتها لرأس سبارتيل (أشَقَّار) قرْب طنجة، عند مدخل البوغاز فلمْ تحترم قطع الأسطول المحمدي، وهاجمها ربانها الفارس أكطون (Acton) ورماها بمدافعه بغتة، وعلى غير أُهْبة ولا استعداد، فتفرَّقت القطَع، وفرَّت أربعة منها ملتجئةً إلى مرسى البرِّ، وحصل فيهما عطب كبير، وبقيت القطْعة التي كان فيها الرئيس المستيري.

79) ص 21 من نفس المصدر والنسخة.

وبعد معركة حامية اضطرَّ إلى الاستسلام، فأُخذ أسيراً هو وسفينته إلى مرسى ليفورن (Livourne) على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من ولاية طوسكان (Toscane) المذكورة.

قال أبو عبد الله الضعيف : وبقي في الأسر مدة خمسة أعوام، ثم سُرِّحَ بعد ذلك.

ثم قال الضعيف[80] : وفي سنة ست وثمانين ومائة وألف (1773-1772/1186)، كتب السلطان سيدي محمد بن عبد الله لأهل الرباط أن يُعيِّنوا ثمانين من أولادهم، ليتعلَّموا الرماية بالأنفاض والمهراس.

ثم كتب لهم، أن يُعيِّنوا عدداً آخر من البحرية ليسافروا في البحر، فامتثلوا أمره وعيَّنوهم.

## بيع القمح للنصارى
## وتعويضه بالسلاح لتجهيز الأسطول

قال أبو عبد الله الضعيف أيضاً : [81] لمَّا استقرَّ الصلح مع الدول الأجنبية، أذِنَ السلطان سيدي محمد بن عبد الله لتجَّارهم في وسق الحبوب من المغرب، فتواردت سُفُنهم على المراسي المغربية، من كل ناحية، كالرباط وسلا، وفضالة والدار البيضاء، والجديدة فكانوا يتهافتون على الأسواق العامَّة لشرائها ووسْقها لبلادهم، ولا تنقطع سفنهم من المراسي المذكورة.

وقال قبل هذا :[82] ما معناه :

كان العُدول والأُمناء المسلمون من أهل سلا والرباط، يحضرون بالمراسي مع الأمناء من اليهود مبادلة كلِّ شهريْن، وكانت الإبل تأتي إليها كالسَّحاب ليلاً ونهاراً، وفي كل يوم يزنون نحو عشرة آلاف فانكة، والفانكة أربعة أمداد، ولازم الفانكة ثمانية أواق، وكان الأمر عظيما من كثرة اليهود والنصارى المجتهدين المتبارين في شراء الزرع، حتَّى كان كلٌّ من رأى ذلك يفزَع منهم...

80) صفة 36 من ج 3، مخطوط الخزانة النصارية السلاوية.

81) ص 102 من نفس النسخة والجزء.

82) ص 35 من ج 1.

ثم قال : وكان أهل تامسنا يأتون بالدَّجاج والسَّمْن والغنم هدية للنصارى وترغيباً لهم من اكتيال الزرع منهم، وإذا كان رقيقاً فلا يَكْتلونه منهم، وإذا كان أحمر كذلك، وكان الرجل الشاوي، ينادي النصراني بقوله : يا سيدي اشْتَري منِّي، فلا يلتفت إليه ويطلع بسبَّاطه فوق نادر الزرع ولا يبالي.

وذكر بعض قناصل فرنسا الذين كانوا بالمغرب في ذلك العهد، ومنهم لوي شينيي (Louis Chénier)، حسبما نصَّ عليه المؤرخ بيير كريون (Pièrre Grillon) في كتابه الموضوع في ترجمته ومراسلاته، من سنة سبع وستين وسبعمائة وألف (1180/1767) إلى سنة خمس وثمانين وسبعمائة وألف (1199/1785) (83) : أنَّ من جملة ما كان يهتمُّ به السلطان سيدي محمد بن عبد الله، تنمية مداخيله المالية، فيما يرجع للأعشار والضرائب المقرَّرة على السلَع المجلوبة من الخارج، والصادرة من مراسيه إليه.

ومن جملتها وسق الحبوب، كالقمح ونحوه، لرغبة الأوروبِّيين في شرائه ووسقه لبلادهم.

وبمقتضى ذلك قرَّر أنْ يكون الفلاَّحون والمزارعون من أهل البادية في مملكته، يدفعون ما يجب عليهم من الزكاة المفروضة شرعاً عليها من عينها إليه.

واتَّخذ لجمعها وادِّخارها، مخازن ومطامير تُخْزن فيها في كل ناحية أو قبيلة من مملكته، وخصوصاً حول مراسيه.

وحيث كان إعطاؤها لغير المسلمين المعيَّنين لمصارفها من الفقراء والمساكين حراماً كالنَّصارى واليهود مثلاً، فقد استفتى العلماء فيها فأفتوْه بجواز بيعها لهم، وصَرْف ما يتحصَّل فيها من الأموال في شراء العُدَّة والسِّلاح، الذي يتقوَّى به الجيش، وتُجهَّز به سفن الأساطيل المُعدَّة للجهاد في البحر في سبيل الله، دفاعاً عن الدِّين ورفعاً لراية الإسلام بين الدول، وإعلاءً لكلمة الله تعالى، وذلك كالبارود، والقَرْطوش، والُبنْب، والمدافع والمهاريس، ونحو ذلك ممَّا يتوقَّف عليه الأسطول.

وبمقتضى ما أفتاه به العلماء، سرَّح بيع قَمْحِ الزكاة للأجانب، فتهافتوا على شرائه، وخصوصاً الأصبان والبرتغال في جميع الأسواق العامَّة والخاصَّة بالمُدُن والمراسي، والبوادي.

---

83) ص 35 من ج 1.

واستمرَّ العمل على ذلك بضعة أعوام من سنة سبعين وسبعمائة وألف (1184/1770)، إلى سنة خمس وسبعين وسبعمائة وألف (1188/1775).

واشترى مِمَّا تحصَّل من ثمنه سلاحاً كثيراً مُتنوِّعاً جُهِّز به أسطوله القوي العتيد.

وبعد ذلك قلَّ روجانه وضَعُف بيعه في الأسواق، لتوالي سنوات انْحِباس الأمطار، وانْتِشار القَحْط والغلاء والمجاعة في جلِّ الحواضر والبوادي.

وتسبَّب عن ذلك حدوث فِتَن وثورات، وخصوصاً من العبيد ببعض المدن التي كانوا مجتمعين بها كفاس، ومكناس، مطالبين بالإعانة في الأقْوات، وخصوصاً القمح الذي لا يستغني عنه أحد، وذلك في حدود سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف (1191/1778).

فاضطرَّ السلطان حينئذ لإبطال وسْقه إلى الخارج، ومنَع الأجانب من شرائه، وبذَل مجهوداً كبيراً في إصلاح الحالة، ومحاربة الغلاء، وتخفيف المجاعة بما أبداه وأظهره من الجود والكرم، كما هو منصوص عليه، ومُسجَّل في أخباره عند المؤرخين المعتنين بتخليد مآثره وأعماله التي ذكروها، وشكروه عليها شكراً جزيلاً، جزاه الله خيراً، ولقَّاه مثوبة وأجراً آمين.

ومن اهتمامه بالأسطول أيضاً، ما ذكره في «الاستقصا»[84]، أنَّه لمَّا قدم، رحمه الله، إلى طنجة، سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف (1760/1173)، أمَرَ باشاها ابن عبد الصّادق، أنْ يبعث أخاه عبد الهادي للوقوف على إنشاء الغلائط بتطوان.

وفي هذه السنة[85] لمَّا دخل إلى مراكش، بعد رجوعه من الطواف على ثغور المغرب، كتب إلى تُجَّار النصارى بأسفي يأمرهم أن يشتروا له إقامة المراكب القرصانية، من صواري ونطاقات وقُمَنٍ، ومخاطيف، وحِبال، وقلوع، وبَتاتي، وغير ذلك، فتنافسوا في شرائه، وازْدلفوا إليه بجلبه وانتخابه.

84) ص 95 من ج 4، طبع القاهرة. وص 17 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

85) نفس المصدر والجزء والصفحة. نفس المصدر والجزء والصفحة من الطبعة الجديدة.

# المبحث الثاني

## بقية أعمال الأسطول المحمدي
## زيادة على الحرب البحرية

كان الأسطول السلاوي الرباطي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، زيادة على ما هو قائم به من الغارات البحرية الجهادية بالبحرين الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلانطيقي، يحرس سواحل المغرب كلها ويتردَّد على مراسيها، وينقل السِّلع والرُّكاب من مرسى إلى أخرى، وينقل الجيوش والعُدَّة والسِّلاح من ناحية إلى ناحية من أطراف المملكة، كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك، ويحمل الأوامر المخزنية، والموظفين المخزنيين من الشمال إلى الجنوب، والعكس.

ومن ذلك أنَّه شارك في حصار الجديدة، وأعان على فتحها سنة اثنتيْن وثمانين ومائة وألف (1182/شتنبر سنة 1769).

وكان مِمَّن شهد الفتح المُعلِّم الحاج سليمان التُّرْكي المُجِيد في صناعة الرَّمْي بالمهراس، فأبدأ وأعاد.

وحضرها أيضاً جماعة من فَنَانشَة سلا، فأبْلوْا بلاءً حسناً، وعمرها السلطان بأهل دُكَّالة، إذْ هي في وسط أرضهم، وأضاف إليهم جماعة من عسكر اليَكْشارِية، وأعقابُهُم بها إلى هذا العهد، والله أعلم.[86]

وشارك في حصار مليلية، سنة خمس وثمانين ومائة وألف (1771/1185).

---

86) «الاستقصا» ص 107 من ج 4، طبع القاهرة. وص 49 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

قال أبو عبد اللهِ الضعيف[87] : لمَّا نزل السلطان على مليلية وحاصرها، كتب لأهل سلا والرباط، أنْ يبعثوا له البحرية الطبجية، والبنبجية، والرؤساء، فقَدِموا عليه، واستمرَّ حصارها نحو ثلاثة أشهر، ورماها بالبنب، والأنفاض...

وذكر أيضا[88] : أنَّه سافر في سفينة رباطية من الرباط إلى آزمور سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف (1779/1193)، ونزل بمرسى الجديدة وهي يومئذ لا زالت خراباً بعد الفتح.

وزاد أنَّ السلطان نظراً لاضطراب الأمر بتامَسْنا، أَمَرَ ألاَّ يسافر أحد إلى مراكش أو سوس، أوْ آزمور، أو الصويرة، إلاَّ على طريق البحر في الأسطول السلاوي الرباطي، ويحمل معه سلعته وتجارته، وله أنْ ينزل إمَّا بالجديدة أو تيط.

كما أَمَرَ أهل الرباط أن يسافروا في السفن البحرية للجديدة أيضاً للاشتغال بوسْق الحبوب منها.

ونصَّ الضعيف أيضاً[89] على أنَّ السلطان وجَّه الحاج المكِّي بركاش الرباطي إلى تطوان، ليحمل معه في البحر مائتي قنطار من الحبوب، ويُفرِّقها صدقة في الشام، وبيت المقدس، ثم يذهب إلى مكَّة والمدينة ويُفرِّق فيهما أيضاً.

وذكر أيضاً[90] أنَّه كان وجَّهه سفيراً للخليفة العثماني بتركيا، وأصحبه هدية له أربعة مراكب.

وأخبر أنَّه في شعبان عام ثلاثة ومائتين وألف (شعبان 1203/إبريل سنة 1789)[91] أمر البحرية والرؤساء بالسَّيْر إلى العرائش لتشحيم السفن وكسوتها وتهييئها ليوجِّهها هدية إلى السلطان العثماني، وكلَّف الحاج المكِّي بركاش بالوقوف عليها وإنجازها.

وفي شعبان، وجَّه سفارة القائد مُحمَّد الزَّوين إلى الخليفة العثماني، وفي الثالث منه، عام ثلاثة ومائتين وألف (3 شعبان 29/1203 أبريل سنة 1789)، أمر الرؤساء بالسفن الأربعة وهم :

---

87) ص 40 من الجزء 2، مخطوط المكتبة الناصرية السلاوية.

88) ص 52 والتي بعدها من ج 2، مخطوط المكتبة الناصرية السلاوية.

89) ص 68 من ج 2، مخطوط الخزانة النصارية السلاوية.

90) نفس المصدر والجزء، ص 139، الخزانة الناصرية السلاوية.

91) نفس المصدر والجزء، ص 92-93، الخزانة الناصرية السلاوية.

- الرئيس مُحمَّد السبيع الرباطي، وسفينته.

- والرئيس مُحمَّد العُنقي الرباطي، وسفينته.

- والرئيس يوسف الطَّرابلسي، وسفينته.

- والرئيس التُّركي، وسفينته.

بالخروج من العرائش، والرجوع إلى مرسى سلا.

ولمَّا وصلوا إليها، وجدوا بها سفينتيْن : إحداهما للرئيس علي لُباريس الرباطي، والثانية، للرئيس عاشور، فسخرهما لقضاء اغراض له ببلاد الروم.

وأمَّا السفن الأربع الأخرى فقد وجَّهها هدية للسلطان العثماني من مرسى سلا، صحبة الحاج المكِّي بركاش كما تقدَّم.

وكان رجوعهم في سفن بعض النصارى، ونزلوا بسلا في سادس ذي القعدة سنة أربع ومائتين وألف (6 قعدة 4/1204 يوليوز 1789) وزاد أنه في عاشر شوال عام ثلاثة ومائتين وألف (10 شوال 18/1203 يوليوز سنة 1790) خرجت سفينتان من مرسى سلا، إحداهما، للرئيس مُحمَّد العسري، والثانية للرئيس علي التركي، وتوجَّهتا لمرسى العرائش بقصد حمل كراريط المدافع للصويرة، ومنها يتوجَّهان للجُزُر الخالدات لقضاء شؤون مخزنية.

وبالجملة، فقد كانت وحدات الأسطول المحمدي، تذهب وتجيء بين المراسي المغربية وغيرها في المصالح التجارية والمخزنية كلِّها.

واستمرَّ الأمر على ذلك إلى أنْ تُوفي في الرابع والعشرين من رجب عام أربعة ومائتين وألف (24 رجب 19/1204 أبريل سنة 1790).

وكان عالي الهمَّة، رافعاً من قدر مملكته، ومجدِّداً لمآثر دولة أسلافه، رحمه الله تعالى، رحمة واسعة بمنِّه آمين.

# الفصل الثامن

## عن بداية ضعف الأسطول المغربي وتعطيل قرصنته في عهد السلطان المولى سليمان، ومحاولة إعادة بنائه وإحياء قرصنته ؛ ونهايته في عهد السلطانين المولى عبد الرحمان والمولى الحسن ؛ وما واكب ذلك من الوقائع والأحداث

# المبحث الأول

## بعض ما يتعلق بالأسطول المغربي
## في عهد السلطان المولى اليزيد بن محمد بن عبد الله

جاء في «الاستقصا»[92] نقلا عن منويل القشتيلي، أنَّ السلطان المولى اليزيد بن مُحمَّد ابن عبد الله، لمَّا تولَّى الملك بعد والده، أظهر معاداة للإصبنيول، وصمَّم على حربهم، فتفادى طاغيتهم من حربه بكلِّ وجه، وبعث باشادوره إليه بطنجة يهنئه بالمُلك ويتملَّق له، فأعرض عن ذلك، ولمْ يحفل به ولا بهديته، بل عَمَد إلى من كان بمراسيه من نصارى الإصبنيول، تُجَّاراً وفرايْلِيَة، وغيرهم وقبض عليهم، وسلكهم في السَّلاسل، وساقهم إلى طنجة فحبسهم بها.

وكانت قراصين المسلمين الحربية، ستة عشر قُرْصاناً وفيها من المدافع، ثلاثمائة مدفع، وستة مدافع.

وتعقَّبه والدنا مؤلف «الاستقصا» بقوله :

«قد تقدَّم لنا أنَّ القراصين أكثر من ذلك بكثير».

واستمرَّ النصارى محبوسين بطنجة، إلى أنْ اتَّفق أنْ كان قُرصان الإصبنيول يطوف بساحل العرائش، فظفر بمركب هنالك وأسر بعضهم.

وكان المولى اليزيد يومئذ بالعرائش، فنظر إليهم بمرآة الهند، وهو على سطح داره إذْ أسرهم، وبعث الصَّريخ في أثرهم ففاتوه، ثمَّ وقع التفادي بينه وبين الإصبنيول في أولئك الأسرى بطنجة.

---

92) ص 126 من ج 4، طبع القاهرة، وص 108 من ج 7، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

# المبحث الثاني

# الأسطول المغربي
# في عهد السلطان المولى سليمان بن مُحمَّد

لمَّا تُوفي السلطان المولى اليزيد سنة ست ومائتين وألف (1772/1206)، بويع بعده أخوه السلطان المولى سليمان بن مُحمَّد، واستمر الأسطول والقرصنة في عملهما حيناً من الدهر.

قال أبو عبد الله مُحمَّد بن علي الدكالي، رحمه الله، في كتابه «الإتحاف الوجيز، بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز»(93) : كانت للعدوتَيْن سُفن بحرية، تظلُّ سابحة على لجَّة الماء تقطع الطريق على سفن الأجناس في مدة مولانا سليمان، نوَّر الله ضريحه، فيأتون بسفنهم غنائم، ويكون يوم دخولهم للمرسى شبيهاً بيوم العيد.

وكان على عهده، رحمه الله، من الطبجية والبحرية (يعني بالعُدوتَيْن) إحدى وعشرون ومائة وألف (1121) ما بين أهل سلا والرباط.

ثم قال : كما رأيت ذلك بزمام الرئيس عليهم حينئذ الشريف مولاي عبد السَّلام بن الفقيه العلمي السلاوي، وعليه طابع السلطان مولانا سليمان.

وقد قدَّمنا ما كان بين الفرنسيس وأهل سلا من الوقعة المشهورة سنة ثمان وستين ومائتين وألف (1852/1268) ورجوعه عنها مهزوماً بالخيبة، وهذه أمور كلُّها شاهدة بما كان لأهل سلا من الخِبْرَة والقوة والبأس وشرف النفس.

93) ورقة من النسخة المصورة بالخزانة الناصرية السلاوية.

ثم وقعت في أيامه حوادث، منها ما ذكره أبو عبد الله الضعيف[94] أنَّه في المحرم سنة تسع ومائتين وألف (محرم 1209/ غشت 1793)، غنم أهل سلا ثلاث سفن موسوقة بالزرع، اثنتان منها خرجتا من الدار البيضاء... والثانية خرجت من آسفي.

ومن جملة ما وجد فيها، سبعة من عتاق الخيل، وسَبُعٌ ونَمِرٌ هدية من عبد الرحمان بن بنَّاصر العبدي لملك إصبانيا.

فحجز السلاويون الجميع، ووجَّهوه للسلطان المولى سليمان.

ثم قال الضعيف :[95] وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من ربيع الأول عام تسعة ومائتين وألف (25 ربيع الأول 20/1209 أكتوبر 1794)، ورد كتاب من السلطان المولى سليمان، فقرأه السيد الطيب الغربي بمحضر الخليفة مولاي عبد الملك بن إدريس، بالمسجد الكبير مُضمَّنه ولاية محمد بن عبد الكامل أمرَ البحرية، والطبجية، والبنبجية وأنْ يتفقَّدهم ويُسيِّرهم كل سبت، وامتنع الحاج عبد الله بركاش من قبول ذلك، وكذلك بَحْرِيَةُ أهل الرباط، وقالوا : لا يتصرَّف فينا.

ثم قال الضعيف :[96] وفي ثاني رجب عام عشرة ومائتين وألف 1210 (2 رجب 12/1210 يناير 1795)، اقتبل السلطان المولى سليمان رؤساء البحرية الرباطية وبحَّارتهم القادمين من العرائش، بعد جولتهم البحرية، وقدَّموا له ثلاث غنائم، ففرح بهم ووصلهم بمال وافر، وأعطاهم البندقي بنحو مائة مثقال للواحد، فَصَرَفُوهُ بثمن كبير ربحوا فيه.

ثم قال :[97] وفي ذي الحجة عام عشرة ومائتين وألف (ذو الحجة 1210/ يونيه 1796)، وفد على السلطان بفاس، رؤساء البحر من الرباط وسلا، وهم :

- الرئيس مُحمَّد بن مبارك الرباطي.
- والرئيس مُحمَّد العُنْقي الرباطي.
- والرئيس العسْري السلاوي.

---

94) ص 126 من ج 2 من مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

95) ص 228 من نفس الجزء والنسخة.

96) ص 259 من نفس الجزء والنسخة.

97) ص 281 من نفس الجزء والنسخة.

– والرئيس الحافي السلاوي، وهو أخ القائد الحافي، فأنزلهم بعرصة الحاج عبد الكريم بن يحيى.

وكان الرئيس العُنْقي، يريد أنْ يطلب من السلطان أنْ يعطيه إحدى السفينتيْن اللتيْن غنمهما الرئيس إبراهيم لوباريس من مرسى آسفي في أيام العيد، وهما مجلدتان بالنحاس.

ثم قال الضعيف :[98] وفي عام أحد عشر ومائتين وألف (1797/1211)، كثرت سفن النصارى بالرباط، وكثُر تُجَّارهم به، وكانوا يمشون جماعات في الأسواق، ويركبون الخيول، ويدخلون إلى شالة والأبراج، ويمشون فوق الأسوار، ويدخلون إلى الديار مع نسائهم اللاّتي يأتون بهنّ معهم في سفنهم...

وبلغت السفن الأجنبية الواقفة أمام سيدي مَخْلوف، بأبي رقراق ستين سفينة، لأجل وَسْق الحبوب.

ثم قال : [99] وفي سنة إحدى عشرة ومائتين وألف (1797/1211) صار أهل الرباط يشترون السفن من النصارى، فكان بعضهم يشتري السفينة وحده، وبعضهم يشتري بعضها، والآخر ثلثها أو ربعها يعني للرِّبح فيها، وفيما تحمله من الحبوب وأنواع التجارة.

وزاد أنَّه كَثُر عليهم المال والريال، وصاروا يصنعون أبواب الدِّيار بالأقواس الرومية، ويَرْكَنُونَ لِصُحْبَةِ النصارى، ويركبون معهم ويُدْخِلونهم لدورهم ويكرمونهم ويحبونهم.

ثم قال أيضا :[100] وفي يوم الجمعة ثالث عيد المولد عام تسعة عشر ومائتين وألف (15 ربيع الأول 23/1219 يونيه 1804)، خرج الرئيس السُّبَيْع بسفينته من مرسى الرباط، إلى مرسى الصويرة، ثمَّ رجع منها وقد ظفر بغنيمة من جنس بْرَاشَكْ (؟) وذلك بعد ظهر الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من العام المذكور (22 جمادى الآخرة/28 شتنبر). وذكر أيضا[101] أنَّ القائد محمد السلاوي عزل هذا الرئيس من الرياسة البحرية، سنة سبع وعشرين ومائتين وألف (1813/1227) وألزمه ملازمة داره، وعزل ولده من المرسى أيضاً، وجعل عليها الحاج العبَّاس غنَّام، والرئيس إبراهيم لوباريس.

---

98) ص 285 من ج 2 لتاريخ «تاريخ الضعيف»، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

99) نفس المصدر والجزء، ص 291.

100) تاريخ ممقيداته، ص 291، ج 2، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

101) نفس المصدر، ص 219 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

ثم ذكر[102] أنَّ علماء تطوان، وطنجة، كتبوا للسلطان المولى سليمان، عام ثلاثة عشر ومائتين وألف (1799/1213)، بأنَّ البحر امتلأ بسفن النصارى، وأنَّ المسلمين ضعفوا أمامهم، ولا قوة لهم، ولا بارود، ولا كور، ولا أنفاض.

وقالوا : إنَّ السبب في ذلك، هو أنَّ السلطان كان أصدر أمره بألاَّ يَحمل السلاحَ إلاَّ منْ كان من جانب المخزن، وحجز البارود وخصَّ المخزن بشرائه، وكذلك العُدَّة كلها، وأبطل صنعها وثقَّفها على المسلمين.

وترتَّب على هذا بعد ذلك ورود الأمر السلطاني، بإطلاق بيع البارود والرصاص والسلاح كله، وأنَّ من أراد شراءه من مطلق الرعية فله ذلك.

قلت : ويُعَدُّ هذا، ابتداء ضعف الأسطول المغربي وأعمال قرصنته في البحر إلى أنْ أمر المولى سليمان بإلغائها لأسباب أخرى كما سياتي :

وذكر كايِّي (Caillé) في كتابه «قنصلية طنجة» (Le Consulat de Tanger) [103] أنَّه في سنة ست عشرة وثمانمائة وألف (1223/1816)، استولى قراصنة المغرب على سفينتين هولانديتيْن وغنموهما. وذكر أيضا[104] أنَّ المولى سليمان، كتب إلى قنصل فرنسا سوردو (Sourdeau) أنَّه يمنع التجارة مع الخارج، ويُفضِّل ألاَّ يدخل عليه دانق واحد من مراسيه منها.

وفي «الاستقصا»[105] أنَّه منع المسلمين من التجارة بأرض العدو لِئَلاَّ يؤدِّي ذلك إلى تعشيره بأيديهم، أو المشاجرة مع الأجناس، هكذا بلغنا والله أعلم.

وذكر كايي (Caillé) في المصدر السابق[106] أنَّ سفينة فرنسية جنحت بسواحل الريف، فهجم عليها الريفيون واستولوْا على ما فيها من السِّلع والأدوات، وفرَّ بحَّارتها، فنجوْا من الأسر.

وفي سنة سبع عشرة وثمانمائة وألف (1232/1817)، حُجزت سفينة أخرى بمرسى الرباط، بأمر سلطاني لموجبه.

---

102) نفس المصدر، ص 219 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

103) ص 85، طبع باريس 1967.

104) ص 98، طبع باريس سنة 1967.

105) ص 169 من ج 4، طبع القاهرة، و205 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

106) ص 101، طبع باريس سنة 1967.

ثم قال أبو عبد الله الضعيف[107] : وفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب، عام واحد وثلاثين ومائتين وألف (25 رجب 21/1231 يونيو سنة 1816)، قُرِئَ كتاب سلطاني بجامع القصبة بالرباط، بمحضر الباشا العربي بن بلال، تضمَّن توبيخ البحرية والرؤساء.

وجاء فيه أنَّ الرؤساء يبيعون الكومانية (يعني المؤونة) للنصارى والبحرية، ويشتغلون بالفسْق، وشرب الخمر وغير ذلك.

وأمر كل رئيس ألاَّ يدخل لأيِّ بَلَدٍ من بلاد النَّصَارَى، ومن دخلها يُقطع رأسه...

وفي «الاستقصا»[108] أنَّ السلطان المولى سليمان، بلغه في أوائل سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف (1813/1228)، أنَّ أهل الريف ما زالوا مستمِّرين على بيع الزرع للنصارى، وأنَّهم أضافوا إليه بيع الماشية، مع أنَّه كان أمر بمنع بيع ذلك للنصارى بالمراسي، فافتات هؤلاء القوم عليه، وأعطوْهم من ذلك ما أرادوا طمعاً في الرِّبْح، وكان قد تقدَّم إلى القائد مَحمَّد السلاوي في كفِّهم عن ذلك، لمَّا ولاَّه عليهم، وأضافهم إلى منْ كان إلى نظره من أهل الجبل والثغور، كان لا يلتفت إليهم، وربَّما قبض أهل المُرُوءَةُ منهم على سفلتهم ممَّن يتعاطى ذلك، ويبعثون بهم إليه، فيُسرِّحهم على طمع، فاتَّسع الخرق، وصار كلهم يفعل ذلك.

ولمَّا تحقَّق السلطان بفعلهم، أمر رؤساء قراصينه أنْ يذهبوا إلى جهة الريف ومراسيها، وكل من عثروا عليه بها من مراكب النصارى فليأخذوه، فصاروا وقبضوا على النصارى فأسروهم، ولم يُقنعه ذلك حتَّى أمر بغزو الرِّيف، وعزم على النهوض إليهم بنفسه، وأذن للناس في ذلك، وجهَّز العساكر مع القائد مَحمَّد السلاوي، ووجَّه معه ولده المولى إبراهيم بعساكر الثغور، وعرب سفيان وبني مالك، فصاروا على طريق الجبل، وخرج السلطان من فاس في السنة المذكورة، ومعه السَّواد الأعظم، فسلك الجادة إلى تازا وْكارت، حتى نَفِذَ إلى بلاد الريف فلم يَرُعْهم إلاَّ العساكر محيطة بهم، واستخرجوا أمراسهم ودفائنهم.

وولَّى السلطان عليهم، أحمد بن عبد الصَّادق الريفي، وتركه في بلادهم في حِصَّة من العسكر يستخلص منهم الأموال، وعاد السلطان إلى دار ملكه مُؤيداً منصوراً.

وربَّما كانت هذه القضية أيضاً من البواعث التي ألْجأت المولى سليمان إلى ترك القرصنة والجهاد في البحر.

107) ص 297 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

108) ص 149 من ج 4، طبع القاهرة. وص 165 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وذكر كايّي (Caillé) أيضاً في كتابه المتقدِّم الذكر[109] أنَّه في سنة ست عشرة وثمانمائة وألف (1231/1816)، طلب المولى سليمان من قنصل فرنسا بطنجة، استقدام بعض الفنِّيين في بناء السفن، فجلب له تسعة منهم، استعملهم في إصلاح بعض سفنه.

وأخبر الضعيف أيضاً في «تاريخه»[110] بِأَنَّ الرئيس عبّاس غنّام الرباطي كان غنم سفينة من بعض النصارى الذين يَسقُون الزرع من الريف، فأمره السلطان المولى سليمان ببيعها بِزرعها للإصبان، فخرج بها من الرباط لطنجة، فأكرهه الإنجليز على ردِّها، وكان إذْ ذاك محاصراً لإصبانيا وللبوغاز وقالِص.

ثم ذكر[111] أنَّه في يوم الاثنين الثاني والعشرين من ربيع الثاني عام اثنين وعشرين ومائتين وألف (22 ربيع الثاني 29/1222 يونيه 1807)، بينما كان زورق الرئيس الحاج الطاهر عوّاد، متوجهًا من المرسى إلى سفينته الراسية خارج المرسى حاملاً لبعض الموسوقات، غَرِقَ أمام سيدي عبد الله اليابوري، وكان فيه جماعة من البحّارة السلاويين.

وذكر أيضا[112] أنَّ أهل سلا والرباط، أتمُّوا صنع سفينة لهم، وأنزلوها للبحر في رابع عشر جمادى الأولى عام تسعة وعشرين ومائتين وألف (14 جمادى الأولى 4/1229 مايه 1914)، وأقاموا أفراحاً، وأطعم القائد عبد الرحمان عشعاش، وكان عاملاً على الرباط، البحّارة وأكرمهم، وكان من عادتهم إذا تمَّتْ سفينة أو أُصلحت، أو جُدِّدت، وأرادوا إخراجها للوادي أو البحر يجتمعون ويُقيمون أفراحاً ونُزَهاً يتبارى فيها الرؤساء والبحّارة، ويبعث لهم الولي الطعام، ويشاركهم في أفراحهم.

## غنيمة الرئيس المزيمزي وفلوريش

ذكر أبو عبد الله الضعيف في «تاريخه»[113] أنَّه في يوم الجمعة عشرين من شوال عام واحد وثلاثين ومائتين وألف (20 شوال 13/1231 شتنبر سنة 1816)، رجع الرئيس الجيلاني المزيمزي من جولته البحرية بغنيمة من جنس بروسكا (كذا ولعلها بْرُوسْيَا) وفيها قبة من الزجاج، وقوائمها من الرخام المُطوَّق بالذهب غريبة الشكل تساوي مالاً طائلاً.

109) ص 103، طبع باريس نسة 1967.

110) ص 158 من ج 3، مخطوط الخزانة النصارية السلاوية.

111) نفس المصدر والنسخة، ص 164 من ج 3.

112) نفس المصدر والنسخة، ص 261 من ج 3.

113) ص 300 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وفي يوم الأحد سابع ذي القعدة (7 قعدة /29 شتنبر) من السنة المذكورة، دخل إلى مرسى العدوتين الرئيس المعطي فْلُورِيشْ، وأعلن أنَّه حصَّل على غنيمتيْن، وأنزل إحداهما بمرسى العرائش، والأخرى بمرسى الرباط.

قال : وعلَّق سَنْجَقَيْن على الغنيمتيْن، وأطلق أربعة عشر مدفعاً.

ووقف الأمناء على الغنيمة، واستوعبوا ما فيها، ثمَّ توجَّه الرئيس إلى العرائش، لأنَّ إحدى السفينتيْن المغنومتيْن لحقت بها كما تقدَّم.

وفي اليوم المذكور، خرج زورق من مرسى الرباط، كان صنعه أهل آزمور بها، إلى البحر متوجِّهاً إلى آزمور، وفيها رئيسه المسمى الدُّزيري، فهاج عليه البحر وانقلب، وغرق الرئيس، ونجا البحّارة الأزمُّوريون عوماً إلى البرِّ.

وفي جمادى الأولى من سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف (1232/1817)، توجَّه الرئيس فْلُورِيشْ إلى الجزائر، وكان رجوعه منها مصحوباً بالرئيس إبراهيم لوباريس في جمادى الأولى أيضاً من السنة بعدها، كما سياتي في فصل الكلام على غنيمة الرئيس فلوريش.

وفي سنة تسع عشرة ومائتين وألف (1219/1804) اكترى عبد اللطيف الحافي، وحَرَكات السَّلاويان، سفينة من بعض النصارى، لحمل الحُجَّاج إلى الحجاز، بثلاثة آلاف ريال (3000)، وركب فيها ثلاثمائة حاج، بثمانية عشر ريالاً لكل واحد[114].

## توجُّه السفن السلاوية الرباطية للإسكندرية للإتْيان بولد السلطان منها بعد حجِّه.

ذكر أبو عبد الله الضعيف في تاريخه[115] أنَّ سفن الرؤساء : العُنْقي، وفْلُوريش، والجيلاني المزيمْزي، وعبَّاس عنَّام، ولَعْلُو السلاوي، صدر لها الأمر السلطاني السليماني في أواخر ربيع الأول عام ستة وعشرين ومائتين وألف (أواخر 1226/ ابريل 1811)، بالتوجُّه لمرسى العرائش لتهييئها وإصلاحها بقصد حمل الزَّاد لولد السلطان مولاي إبراهيم الذي كان بالأسكندرية راجعاً من الحج، والإتيان به للمغرب.

114) «تاريخ الضعيف»، ص 150 من ج 3.

115) نفس المصدر والنسخة، ص 194 من ج 3.

ثم ذكر[116] أنَّ الرئيس والَعْلُو السلاوي، تبرّأ من سفينته، ولم يوافق على إبحارها، وقال : إنَّها بالية متلاشية ويدخل إليها الماء، فقبض عليه القائد مَحمَّد السَّلاوي، وسجنه من أجل ذلك.

فانتدب أحد بحرية سلا، المُسمَّى مُحمَّد برَّاد وقال : أنا أركب في هذه السفينة وأوصلها إلى الاسكندرية وأردُّها، فسلِّمت له، وخرج فيها مع جماعة من بحَّارة سلا، فنشبتْ في البرِّ برأس أشقَّار وهرب بحَّارتها، وتفرَّقوا شَذَرَ مَذَر، وأمر قائد سلا بالقبض عليهم، فقُبِضَ بعضهم بالعرائش، وفرَّ آخرون للغرب، فقبضهم أهل الغرب وأوْثقوهم بالحبال، وجاؤوا بهم إلى قائد سلا، ومنهم من غرق في المرجة، وآخرون جاؤوا للمهدية، فسجنهم قائدها، لأنَّ السلطان طالب السَّلاويين بغرامة سفينته، ووبَّخهم على ما فعلوه.

وكان هذا سنة سبع وعشرين ومائتين وألف (1812/1227).

ومن جملة ما ذكره الضعيف[117]، أنَّ أهل سلا، وجَّهوا وفداً منهم إلى السلطان المولى سليمان، ملتمسين من كرمه، المسامحة في العشرة آلاف ريال التي فرضها عليهم وغرامة سفينته الضائعة.

وكان الوفد يتركب من العلماء :

- أبي العباس أحمد السَّدْراتي.
- وعبد السلام حَرَكات.
- والفقيه المَصْلوحي.
- وبعض أولاد الشيخ سيدي أحمد حجِّي
- وبعض الأشراف.

فقابلهم السلطان، وقبل عُذْرهم، وسامحهم في المال الذي كان فرضه عليهم، بلْ واساهم بمال من عنده فرَّقه عليهم : ورجعوا لبلدهم مسْرورين، حامدين شاكرين.

وأمَّا السفن السلطانية التي ذهبت للاسكندرية، فقد وصلت بسلامة تامَّة.

116) ص 206 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

117) نفس المصدر والجزء، ص 235.

ولمّـا أرادتْ الرجـوع، امـتنع ولد السلطان من الركـوب فـيـهـا، وألحَّ على رئيس سـفـينة إنجليزية أنْ يحمله، فامتنع أوّلاً خوفاً من المسؤولية، لأنَّ إنجلترا، كانت في حرب مع إصبانيا.

ثمَّ ساعده بعد أنْ سلَّم له كتاباً بأنَّه هو الراغب في ذلك.

ولمَّا ركب ونشر قلوعه، ساعده الريح، ووصل إلى طنجة في مدة قريبة، بعدما مرَّ على مالطة.

وذلك في عاشر رمضان سنة سبع وعشرين ومائتين وألف (10 رمضان 17/1227 شتنبر سنة 1815).

وتفرَّقت السفن المخزنية في البحر، فرجع الرئيس الإنجليزي يتعقَّبها، فوجد الرئيس المعطي فلوريش، عرّج على طرابلس، ومعه أخ السلطان مولاي سلامة، وأقام بها عشرين يوماً، ثم دخل تونس وأقام بها تسعة عشر يوماً.

وكان وصوله إلى العرائش مع من كان معه من الحُجّاج المغاربة ثاني ذي القعدة، (دجنبر) من السنة المذكورة.

والرئيس المزيمْزي كذلك، ومن تونس جاء إلى جبل طارق ومنه رجع إلى المغرب.

## إنشاء سفينتين بأمر سلطاني

ذكر أبو عبد الله الضعيف في «مجموعته التاريخية»[118] أنَّ أبا القاسم الزياني، ورد على الرباط مبعوثًا من قبل السلطان المولى سليمان في رمضان عام أربعة عشر ومائتين وألف (رمضان 1214/ ابراير 1800)، لأجل إنشاء سفينتين، واحدة بالرباط، للرئيس السّبيع، والأخرى بسلا، للرئيس عوّاد.

ثمَّ ذكر أيضا[119] أنَّه في يوم السبت الحادي والعشرين من ذي الحجة عام ستة عشر ومائتين وألف (21 حجة 24/1216 ابريل سنة 1802)، تَمَّ صنع سفينة الرئيس السبيع، برباط الفتح، وأُنزلت إلى البحر، وتمَّ صنع سفينة الحاج الطاهر عوّاد السلاوي، ولمَّا أراد البحّارة إنزالها إلى البحر، زَهَقَتْ عن موضعها، لأنَّ الفَرْش هوى بها.

118) ص 101 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

119) نفس المصدر والجزء ص 119، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

وخرج أهل سلا ليلاً، حاملين المشاعل والمنارات، وشارك في ذلك حتى الطلبة والأشراف، وباتوا اللّيل كله يعالجونها، حتّى رفعوها فوق الفرْش، ودفعوها، فنزلت إلى البحر وعامت من الغد، قال الضعيف : وكنت حاضراً.

وقال أيضا :[120] إنَّ سفينة الرئيس مزُّور الفاسي التي كان محمولها نحو المائة قنطار، أُحرقت في جملة الأسطول الجزائري، لمَّا هجم، الإنجليز على الجزائر، أواخر رمضان عام واحد وثلاثين ومائتين وألف (أواخر رمضان 1231/ غشت سنة 1816)، وأَحْرَقَ أسطولها وأغرقه، واسترجع أسْرَاهُ منهم، وعددهم خمسمائة أسير، وأخذ منهم، زيادة على ذلك، مائة قنطار كانوا أخذوها منه في فداء بعض الجزائريين.

## رجوع الرئيسيْن فلُّوريش والمَزيمْزي من جولة بحرية

قال الضعيف :[121] في يوم الاثنين خامس محرم عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف (5 محرم 25/1232 شتنبر 1816)، رجع الرئيسان المعطي فلوريش، والجيلاني المزيمزي إلى رباط الفتح من سفرهما في وجهة بحرية.

## غنيمة الرئيس فلوريش
## وتفقد سفينته التي كانت بالرباط.

أخبر الضعيف في تاريخه[122] أنَّه في يوم الأربعاء سابع عشر محرم عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف (17 محرم 7/1232 دجنبر 1816)، توجَّه الرئيس المعطي فلوريش، لتفقد سفينته وغنيمتها التي كانت راسية بمرسى الرباط.

ولمَّا سمع أمناء المرسى وعُدُولها، وهم :

- السيد محمد فَرَج الرباطي، ناظر الأحباس.
- والحاج محمَّد جْغَالَف السلاوي.

---

120) نفس المصدر والجزء، ص 298، مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

121) ص 306 من ج 3 مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

122) نفس المصدر والجزء والصفحة، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

– ومولاي أحمد القسطالي الرباطي.

– وابن عَطِيَّة السلاوي.

– وأضافوا لهم القاضي ابن جلُّون.

أنَّه طلع للسفينة وحده دونهم، خرجوا من القنانيط لسيدي مخلوف والتحقوا به، فوجدوه رجع منها، فقالوا له : لماذا طلعت للسفينة المغنومة وحدك ولم تُحْضِرنا، فأجابهم بأنَّها غنيمة، وهو الذي غنمها، وهم لا يعرفون شيئاً عنها.

وزاد قائلاً : إنَّه ترك ثلاثمائة ريال للنصراني رئيس السفينة المغنومة بالقامرة، وأعطى بها خط يده، وهي في ذِمَّته ولم يجدها الآن.

ثمَّ قال لهم : ما هذا، أنتم أُمناء وأنتم سرّاق، ولِمَاذا تركتم باب القامرة مفتوحاً ولم تُسمِّروه، ولِمَاذا لمْ تَعْمَلُوا فُلاناً وفُلاناً حُرّاساً عليها، ثَمَّ ركب زورقه ورجع.

وبعده طلع الأُمناء إلى السفينة، واطلَّعوا على الغنيمة التي فيها.

ثم قال الضيف :[123] وفي يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى عام ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف (4 جمادى الأولى 12/1233 مارس 1818) رجع الرئيس إبراهيم لوباريس من الجزائر، وكان توجَّه إليها من العرائش، صحبة سفينة المعطي فلوريش.

---

123) ص 308 من ج 3، مخطوط المكتبة الناصرية السلاوية.

## المبحث الثالث

# إبتداء ضعف الأسطول المغربي، وتقهقر قرصنته في عهد السلطان المولى سليمان.

كان الأسطول المغربي وقرصنته في أول عهد الدولة السليمانية على ما كان عليه في عهد دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وولده المولى يزيد، وإنْ كانت لم تطل مدته.

ثمَّ صار اهتمام المولى سليمان به يضعف شيئاً فشيئاً بالنسبة لِمَا تقدّم سواء في الخروج إلى البحر، أو الغنائم أو أخذ الأسرى، أو كثرة مبادلة التجارة بين المغرب وأوربًا.

وكانت النتيجة استفحال القرصنة الأروبية، وتضاعف أخذ الأسرى المغاربة، وكثرة عددهم بدون مقابل، وتفوّق الأسطول الأوروبي على الأسطول المغربي إنشاءً ونظاماً وكثرةَ عدد، وضعفت التجارة مع الخارج، واختلَّ نظام الاقتصاد بالمغرب، وشرهت دول ما وراء البحار إلى احتكار التجارة فيه، وطمعت في مدِّ نفوذها على مراسيه، وتهييء الأسباب لاستعماره، وتظاهرت فرنسا بقوة جديدة يخشى بأسها، ولاسيما لمَّا اتَّسعت رقعة إمبراطوية نابُوليون الأول في القارة الأوروبية، وأطلَّ على المغرب من السواحل الإصبنيولية.

فكان ذلك من الأسباب التي دعت المولى سليمان، إلى عدم الاهتمام بأسطوله القرصاني، وفداء الأسرى، كما كان يفعل وَالِدُهُ وجدُّه المولى إسماعيل.

وكانت تحدث من حين لآخر حوادث سياسية، داخلية وخارجية، اقتصادية وحربية، تؤثِّر على السلطان، وتوحي إليه إهمال هذه الحركة الجهادية البحرية، والاقتصار على شؤون دولته، داخل مملكته، منها ما تقدَّمت الإشارة إليه، ومنها ما سنذكره، وما آل إليه الأمر بعد ذلك.

وقد ذكر كايي (Caillé) في كتابه الذي ألَّفه في سفارة القبطان بوريل (Burel) بالمغرب[124] في العهد السليماني، سنة ثمان وثمانمائة وألف (1223/1808) أن القرصنة المغربية كانت موجهة في حدود سنة تسع وثمانمائة وألف (1224/1809)، وما بعدها في العهد السليماني، ضدَّ الروس، وبعض المُدُن الأنسياتيكية (Hanséatiques) بناحية الرُّون بفرنسا.

ومن ذلك أنَّ السلطان مصطفى العثماني بن عبد الحميد الأول، أثناء حربه مع المُسْكُوبْ، طلب منه أنْ يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة، لِئَلاَّ تدخل مراكب الموسكوب منه، وتَعِيثَ في الجزر التي على ملكه، كما فعلت في دولة السلطان مصطفى بن أحمد.

فأمر السلطان المولى سليمان، رحمه الله، قراصينه بالتَّهيُّئ والمُقام هنالك فَفَعَلُوا، ولم يظهر أثر لمراكب المسكوب المُتخوَّف منها.

وقد حكى هذا الخبر صاحب «البستان»، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف (1808/1222).

وكذلك أمر رؤساء قراصينه بالذهاب إلى مراسي الرِّيف ويأخذوا كل سفينة أوروبية يعثرون عليها هنالك، لَمَّا بلغه أنَّهم يأتون لوسق الزرع والماشية، وكان قد نهى عن ذلك كما تقدَّم.

## مظاهرات حربية على السواحل المغربية وخصوصا العدوتين السلاوية والرباطية في عهد الدولة السليمانية.

ومن الأسباب التي دفعت المولى سليمان، إلى عدم الاهتمام بأسطوله وقرصنته، عموم المظاهرات الحربية، بِجُلِّ السواحل المغربية، لمَّا اكتسح نابليون بونابارت البلاد الإصبانية، وأطلَّ على السواحل الشمالية المغربية، وكاد يتناولها ويُسيطر عليها، ولكنَّ الله سلَّم.

وترتَّب على ذلك مجيء مبعوثه الخاص بوريل (Burel) إلى المغرب كما تقدَّم، بقصد درس حالته العسكرية والسِّياسية والاقتصادية، وقدَّم له تقريراً عن حالته في ذلك العهد، ونشره جاك كايي (Jacques Caillé) في كتابه الموضوع في هذه السفارة، المطبوع بباريس سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف (1372/1953).

124) ص 105، طبع باريس سنة 1953 (1372).

وقد وصف هذه المظاهرات، وخصوصاً مظاهرات العدوتيْن الرقراقيتيْن، أبو عبد الله الضعيف في مجموعة مقيداته التاريخية كما شاهدها[125]، فقال ما حاصله :

في أول المحرم عام ثلاثة وعشرين ومائتين وألف (1 محرم 28/1223 ابراير 1808) شَاعَ وذَاعَ أنَّ النصارى سيغزون المغرب، وأخذ الناس في الاستعداد للجهاد في جميع النواحي، وخصوصاً بفاس، وتطوان، والرباط، وسلا، وغيرها من المراسي.

وفي سادس عشر صفر (16 صفر/13 ابريل) من العام المذكور، ورد كتاب سلطاني سليماني من مراكش، يُحذِّر أهل سلا ورباط الفتح من غزو بني الأصفر.

وصدر مثله لباقي المراسي الأخرى، كالمهدية، والعرائش، وطنجة وتطوان، وأَمَرَ كلَّ قبيلة مجاورة لهذه المراسي أنْ تأتي بخيلها ورَجْلها، وترابط حولها.

كما أمر العُمَّال أن يُميِّزوا على ساحل البحر (يعني يتظاهروا) يوم عيد المولد من السنة (8 مايه).

وبمقتضى هذه الأوامر، جاء باشا الشَّاوية، الغازي الشَّاوي، إلى الرباط ومعه عرب الويدان، وهم : زعير، والصبَّاح، والسُّهول، وانضمَّت إليهم وَرْديغَة، وتجمهر على ساحل الرباط، نحو أربعين ألفاً منهم، وعَبَرَ أهل سلا إلى الرباط في زَيٍّ حربي، واستعرض الباشا الغازي الشاوي القبائل التي كانت معه، وكان مَيْزاً أو استعراضاً كبير، ثمَّ افْترقوا بعد ذلك، ولم يظهر أثر لغزو النَّصارى للمغرب.

## إلغاء الأسطول المغربي
## وتعطيل قرصنته.

قدَّمنا بعض الأسباب التي دعت المولى سليمان، رحمه الله، إلى إلغاء الأسطول المغربي وتعطيل قرصنته، وذكرنا أنَّ من جملتها ظهور الامبراطور نابليون بونابرت واستفحال أمره، وسيطرته على إصبانيا، وتشوُّفه للمغرب، حتى إنَّه وجَّه مبعوثه الخاصّ إلى المولى سليمان القبطان بوريل (Burel).

---

125) ص 167 من ج 3، مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكان وصوله إلى المغرب سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف (1808/1222)، حاملاً كتاباً خاصّاً من إمبراطوره المذكور إلى السلطان يطلب فيه منه أن يمنع الإنجليز من تموين أساطيله المحاربة له من المراسي المغربية.

وأمره سرِّياً أنْ يستطلع على حالة المغرب العسكرية ويدرسها درساً دقيقاً، ويصف له طرق المواصلة بين طنجة وفاس، والحصون الحربية والأراضي التي يمكن أن تَمُرَّ منها الجيوش، وقوة الجيش المغربي البرِّية والبحرية، ومبلغ استعداده، وحالة السكَّان الاقتصادية، وجميع ما يرجع للشؤون العسكرية... فوصل المبعوث المذكور إلى فاس، وبَلَّغَ الرسالة إلى السلطان، فأجابه عنها بما يقتضيه الحال.

وقام بمهمته السِّرِّية، ورفع تقريراً طويل الذَّيْل لمُرْسِله، ولكنَّه لمْ يظهر له أثر بعد ذلك، لاشتغال نابليون بونابرت بما هو أعظم عنده من ذلك وهو الحرب في أوروبَّا.

ولمَّا رأى المولى سليمان، رحمه الله، حالة هذا الإمبراطور في أوروبَّا، ووقوف إنجلترا في وجهه، ومقاومتها له في كل قطر من الأقطار التي توجَّه إليها، وخصوصاً في البحار التي كانت إلى نظرها، ولا زالت سياستها ترمي إلى السيطرة عليها، ولاسيما بعد معركة طرف الغار (Trafalgar) فتخوَّف من المغامرة بالأسطول المغربي في البحر، وأقلع عن مواصلة البعوث البحرية القرصانية إلى شواطئ أوربَّا، وأسْقَط استعباد الأسْرى من النَّصارى لِمَا ينشأ عن ذلك من المشاكل.

ومن ذلك العهد انْكَمَشَ الأسطول المغربي وبقي رابضاً في مراسيه، وأُهْمِلَ الاعتناء به، وقَلَّتْ مواصلة المغرب مع الخارج أو كادت أنْ تنقطع إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف (1818/1233).

قال في «الاستقصا» :[126] وفي هذه السنة، أبْطل السلطان الجهاد في البحر، ومَنَعَ رؤساءه من القرصنة به على الأجناس، وفرَّق بعض قراصينه على الإيالات المجاورة له، مثل الجزائر وطرابلس ؛ وما بقي منها، أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب، وأعرض عن أمر البحر رأساً، بعد أنْ كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس، قاله منويل. اهـ.

126) ص 151 من ج 4، طبع القاهرة. وص 168 من ج 7 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وقال طيراس (Terrasse) في كتابه «تاريخ المغرب» :[127] إنَّ دول أوورباً، بعد انتهاء حروب نابليون بونابارت، والمؤتمرات الناشئة عنها، أعلنت تضامنها وتوافقها على إبطال قرصنة الدول الأوروبية، ولكنَّ عدم ثقة بعضهم ببعض، حال بينهم وبين تنفيذ ما كانوا قرَّروه واتَّفقوا عليه في محاربة هولاء القراصنة، ولم يؤثِّر تضامنهم وتوافقهم على الجزائر، فاستمرَّت على عملها، وإنما حصَّلوا على إيقاف قراصنة تونس، وطرابلس.

وأمَّا المغرب، فإنَّ المولى سليمان التزم لِلُويسْ الثامن عشر (الذي خلف نابليون بعد تنازله) بحذْف القرصنة من مملكته.

وبمقتضى ذلك، اضمحلَّ ما كان بقي من الأسطول المغربي.

وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة وألف (1233/1818) سرّح وَسْقَ الحبوب للأوروبِّيين من مراسي مملكته، بعدما كان مانعاً له.

وتمسَّك من ذلك العهد بسياسته المبنية على الابتعاد من كلِّ ما يؤدِّي إلى الخلاف أو المشاجرة مع الدول الأجنبية، والاقتصار على الاشتغال بشؤونه الداخلية.

واسْتَمَرَّ الحال على ذلك إلى دولة ابن أخيه السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام حسبما سنذكره.

127) ص 300 من ج 2.

# المبحث الرابع

# محاولة إحياء القرصنة
# في عهد السلطان المولى عبد الرحمان،
# رحمه الله تعالى.

كانت القرصنة السلاوية الرباطية مُعطَّلة منذ عهد السلطان المولى سليمان، رحمه الله، لَمَّا أصدر أمره بذلك، سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف (1233/1818) بما اقتضته سياسته الخارجية في ذلك العهد كما تقدَّم.

واستمرَّ الحال على ذلك إلى دولة خلفه من بعده السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام.

فاقتضى نظره تجديد الأسطول وإحياء القرصنة، حرصاً على صيانة الشواطئ المغربية، وحماية لها من قراصين الدول الأوروبية التي استفحلت قوتها البحرية، وتكاثرت سفنها التِّجارية والحربية ماخرة عباب البحرَيْن : الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلنطيقي الممتدة عليها السواحل المغربية، شمالاً وغرباً.

قال في «الاستقصا» :[128] طاف السلطان المولى عبد الرحمان على ثغور المغرب ومراسيه، آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف (1243/1827-1828)، وأراد إحياء سُنَّة الجهاد في البحر التي كان أغفلها السلطان المولى سليمان، رحمه الله، وأمر بإنشاء أساطيل تُضمُّ إلى ما كان بقي من آثار جدِّه سيدي محمد بن عبد الله.

128) ص 183 من 4، طبع القاهرة، وص 30 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

وأذن لرؤساء البحر من أهل العدوتين سلا ورباط الفتح أنْ يخرجوا في القراصين الجهادية للتطوُّف بسواحل المغرب وما جاورها، فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمان بركاش والحاج عبد الرحمان بْريطل فصادفوا بعض مراكب النَّابْرِيَالْ (هي دولة الأُتْرِيشْ أو النَّامْسَا)، واستاقوهما غنيمة إذْ لمْ يجدوا معها ورقة الباسبروط المعهودة عندهم، وعثروا فيها على شيء كثير من الزِّيت وغيرها، وكان بعضها قد جيء به إلى مرسى العرائش، فهجم النَّابْرِيَالْ (النَّامْسَا) على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الأربعاء الثالث من ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف (3 قعدة 26/1245 ابريل سنة 1830)، ورمى عليها من الكُور شيئاً كثيراً من الضحى إلى الاصْفرار.

وعَمَدَ في أثناء ذلك إلى سبعة قوارب، فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر، ونزلوا إلى البرِّ من جهة الموضع المعروف بالمقْصرة وتقدَّموا صفوفاً، قد انتشب بعضهم في بعض بمخاطيف من حديد لئَلاَّ يفرُّوا، ومشوْا إلى مراكب السلطان التي كانت مُرْسَاة بداخل الوادي، وهُمْ يقرعون طَنابيرهم ويصفِّرون ومراكبهم التي في البحر ترمي بالضُّوبْلِي مع امتداد الوادي لتمنع من يريد العبور إليهم، فانتهوْا إلي المراكب وأوْقدوا فيها النَّار وقصدوا بذلك أخذ ثارهم فيما انْتُزع منهم، فلم يكن إلاَّ كلا ولا، حتَّى انْثال عليهم المسلمون من كلِّ جهة من أهل الساحل وغيرهم، وعبر إليهم أهل العرائش وأحوازها سبحاً في الوادي، وعلى ظهر الفُلْك إلى أنْ خالطوهم وفتكوا فيهم فَتْكة بِكْراً.

وكان هنالك جملة من الحصَّادة يحصدون الزرع في الفُدُنِ، فشهدوا الوقعة وأبلوْا بلاءً حسناً حتى كانوا يَحْتَزُّون رؤوس النابْريال (النامْسا) بمناجلهم.

وقد ذكر منويل هذ الوقعة وبسطها وقال :

إنَّ النابْريال (النامْسا) قُتِلَ منهم ثلاثة وأربعون سوى الأسرى، وتركوا مدفعاً واحداً، وشيئاً كثيراً من العُدة، وأفلت الباقي منهم إلى مراكبهم، وذهبوا يلتفتون وراءهم.

وذكر ابن زيدان في «إتحاف أعلام الناس» :[129] أنَّه انعقدت بأمر سلطاني لجنة بمرسى الرباط، أوائل ربيع الثاني عام أربعة وأربعين ومائتين وألف (أوائل ربيع الثاني 1244/ أواسط شتنبر سنة 1828) تتركب من أمناء المرسى، وهم :

الحاج محمد السويسي، والحاج بنَّاصر غنَّام، والحاج عبد الله السَّدْراتي، وأُضيف إليهم أمينان وردا من تطوان وهما : الحاج عبد الرحمان مَدِينَةُ، والحاج أحمد صالح،

129) ص 135 من ج 5.

والذِّمِّيُّ شُميل قُرْياطْ من يهود ملاَّح تطوان، فأحصت هذه اللجنة وقوّمت السلع المغنومة، على اختلاف أنواعها، بحسب سعر الوقت، وأثبتت قائمتها، وبيع بعضها، وكتب السلطان إبراءً تاماً لأمناء العدوتيْن بذلك.

ثم قال :[130] إنَّه حدَّثه من وثق بخبره، أنَّه لمَّا بُويع المولى عبد الرحمان علَّقَ بعض الأجناس المجاورين للإيالة الشريفة الاعتراف بسلطنته على إبطال القوة البحرية، فامتنع، وبعد مراجعات، وقع الاتِّفاق على بناء الأبراج بثغر الرباط، فأمر ببناء بُرج الصِّراط وبرج الصقالة وبرج الدَّار، وبرج القصبة والصقالة، ثم أمر سِراً بتفريق الأسطول المغربي لأمْر أوجبه.

وقد كتب جاك كايي (Jacques Caillé) في هذه القضية بحثاً مُفصَّلاً، سجَّله في مَجَلَّة «هِيسْبِرِيسْ» في عدديْها الصادريْن سنة خمسين وتسعمائة وألف (1369/1950) تحت عنوان: «آخر أعمال قراصنة أبي رقراق» (Le Dernier Exploit des Corsaires de Bou Regrag).

## آخر عمل من أعمال قراصنة أبي رقراق

يعني في عهد الدولة العبد الرحمانية، ولا بأس أن ندرجه هنا بتمامه إتماماً للفائدة، لِمَا اشتمل عليه من مزيد البيان والتفصيل والتحصيل قال :[131]

إنَّ السلطان المولى عبد الرحمان، اشترى في شهر شتنبر سنة خمس وعشرين وثمانمائة وألف (25 شتنبر 1825/ صفر سنة 1241) من قنصل سردينيا، من ممالك إيطاليا قبل وحدتها، سفينة جيِّدة ذات صاريين مُبطَّنة بالنُّحاس، مُسلَّحة بأربعة مدافع من نوع كاروناد (Caronades) ومدفعيْن آخريْن من النوع المعتاد، بثمن يُقدَّر بنحو ثمانمائة وثلاثة وعشرين ألف فرنك (23.800).

واستُعملت هذه السفينة في القرصنة، وأضيف إلى مدافعها الستَّة أربعة مهاريس من نوع الهَوْن، وكان عدد بحَّارتها خمسين بحَّاراً، وطلب المخزن من قَنَاصِلِ الدول الأجنبية بالمغرب الاعتراف بها وتزويدها بورقة التعريف (باسبورط) من دُوَلهم.

وكانت مُهمَّتها الجولان بالبوغاز ومهاجمة السُّفن الأجنبية التي لا ممثِّل لها بالمغرب كروسيا، وبْروسيا، وهانبورك (Hambourg)، المدينة الحرَّة، والنَّامْسا.

130) ص 153 من نفس الجزء.

131) ص 430 من المجلة المذكورة.

وفي ذلك الوقت اتَّصل أُولو الأمـر من المـغـاربة بطنجـة بمـمـثّلي بعض الدول بهـا، كالولايات المتَّحدة، وطلبوا منهم أن يُسلّموا للمغرب ثلاث سُفن أخرى لتستعمل في قرصنة البوغاز أيضاً.

وربَّما لمْ يسفر هذا الاتِّصال عن النتيجة المطلوبة، أو رُبَّما أسفر عن بعضها فقط.

وعلى كلٍّ حال، ففي شهر يوليوز سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف (يوليوز 1828/ذو الحجة 1243)، كان موجوداً راسياً بأبي رقراق، ثلاث سفن من الأسطول القرصاني العبد الرحماني، وربَّما ذهب إلى العرائش في بعض الأحيان.

وفي التاريخ أعلاه، خرج الرئيسان الحاج عبد الرحمان بركاش، والحاج عبد الرحمان بريطل من مرسى الرباط، متجولَين في المحيط الأطلانطيقي، وفي أوائل شهر غشت من السنة المذكورة (أوائل غشت 1828/ أواخر المحرم 1244)، الْتقيا ما بين مرسى بورطو (Porto) البرتغالية ورأس فينيستير (Finisterre) شمال غرب إصبانيا مع سفينتيْن فرنسيتيْن، فلم يتعرَّضا لهما بما فيه إدايتهما أو الإساءة إليهما.

وإنَّما صعدا إليهما، وزارا رئيسيْهما، وأنعما عليهما بماء الشرب وبعض المأكولات ولكنَّهما لمَّا وصلتا إلى المرسى المقصودة من سفرهما، اضطرَّتا إلى عمل الكرنتينة أربعين يوماً، قالوا : وحصل لهما من تأخيرهما خسارة.

ومع ذلك فإنَّ القنصل الفرنسي بطنجة لَمَّا اجتمع بالرئيس بْريطَلْ شكره على صنيعه معهما، وحذَّره من العوْدة إلى إيقاف السفن الفرنسية لِمَا في ذلك من الخسارة عليهما، فوعده خيراً.

ثُمَّ صادفا ثلاث سفن تجارية أخرى، اثنتان إنجليزيتان، وواحدة نَمْساوية فاستوليا عليها، وساقاها إلى مرسى رباط الفتح، ونشأ عن ذلك نزاع وخلاف كبير بين الدولتيْن المذكورتيْن والحكومة المغربية.

ثُمَّ أمر السلطان بتوجيه السفينتيْن الإنجليزيتيْن إلى طنجة، وابتدأت المخابرة في شأنهما، مع الممثل الإنجليزي بها، وطال الأخذ والردّ في ذلك، واتَّهم الممثل الرئيس بْريطَلْ بأنَّه تستَّر تحت الراية البيضاء الفرنسية، فأنكر ذلك وقال : إنَّه يعرف قوانين البحر ويُطبِّقها طبق العمل الجاري فيها بين الدول.

وعَقِب ذلك اجتمع مجلس تحكيمي بالقصبة، لينظر في القضية، ويتحقَّق صحة أوراق السفن الإنجليزية المحجوزة، حضره قناصل الدول بطنجة وواليها، وأُمناء المرسى ومبعوث

سلطاني جاء خِصِّيصاً لفصل هذه المشكلة، فتغيَّب عنه القنصل الإنجليزي، وامتنع القناصل الحاضرون من إبداء رأيهم في القضية، وصرَّحوا بأنَّ القنصل الإنجليزي هو الذي يتعيَّن عليه أنْ يُبيِّن هل الحجز كان مترتِّباً على الإخلال بالقوانين الدولية الجاري بها العمل أمْ لا، وهكذا لم يُحصِّل المخزن على طائل من هذا الجمع السياسي.

(ولا غرابة في ذلك، فإنَّ السياسة والمصلحة، تقضي على أولئك النواب أو القناصل الأجنبيين، أن يُؤيِّد بعضهم بعضاً، ولا يُسْلِمه ولا يفوته، وقِدْماً قيل : انْصُرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً).

ومع ذلك فإنَّ الحكومة المخزنية أطلقت سراح السفينتيْن الإنجليزيتيْن غَداة هذا الجمع، فلم يقتنع الممثل الإنجليزي بذلك.

وطالب باسم حكومته، تعويضاً عن الخسارة التي حصلتْ لدولته، وأنْ تتعهَّد الحكومة المغربية وتلتزم بصكٍّ يكون عليه طابع السلطان بألاَّ لا يعود القراصنة المغاربة لإيقاف السفن الإنجليزية أو تفتيشها كلَّما صادفوها في البحر بأيٍّ وجه من الوجوه، وجَعَل لها أَجَلاً لاَ رَيْبَ فيه، لا يتجاوز أربعين يوماً، وبعد انصرامه إذا لمْ يأته الجواب بما يرضيه، فإنَّه يُنزل علم دولته، ويبارح طنجة هو ومن معه من رعيته، وزيادة على ذلك فإنَّ الأسطول القرصاني الإنجليزي يُحاصر مرسى طنجة.

ولمَّا انصرم الأجل، ولمْ يأت جواب الحكومة المغربية، أعلن القنصل حصار المرسى، وتوقُّف دخول السفن إليها، وخروجها منها، وطوى رايته، وأراد مبارحة المدينة هو ومن معه، فحال باشاها بينه وبين ذلك، وأوقفه حتَّى يأتي الأمر السلطاني، بما سيكون عليه العمل في شأنه.

وبعد هذه الحوادث، جاء الجواب المخزني بعدم قبول مطالب القنصل التَّعْويضية، وَوَرَدَ فيه أنَّ السفينتيْن المحجوزتيْن رُدَّتا إليه، ولمْ يَضِعْ منهما قُلامَة ظفر.

وأمَّا تعهُّد المخزن بعدم إيقاف السفن الإنجليزية أوْ زيارتها وتفتيشها في البحر، فقد أجيب عنه بعبارة غامضة، تحتمل القبول والرّد لذاتها، وسُوعد الإنجليز الذين كانوا بالمغرب على مبارحته إن أرادوا، ما عدا القنصل المذكور ومن معه من الموظَّفين.

وفي أوائل شهر دجنبر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف (دجنبر 1828/ جمادى الأولى عام 1244) المتقدمة الذكر، وجَّه حاكم طنجة رسالة إلى قناصل الدول المسيحية، يطالبهم

فيها بالاعتراف كتابة بأنَّ كل سفينة يصادفها القراصنة المغاربة في البحر، وتمتنع من المقابلة والمواجهة معهم، لتُعلم حقيقتها، يتعيَّن حجزها، فكان الجواب سلْبياً.

وأجابه القنصل الفرنسي، بجواب فيه مراوغة، فردَّه الحاكم إليه ولم يقبله منه، وتوقَّفت القضية، وهكذا استمرت المخابرة طيلة شهر كامل، بدون جدوى ولا طائل.

وفي تاسع عشر يناير سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (19 يناير 1829/13 رجب عام 1244)، انتهت مشكلة السفن الإنجليزية وما نشأ عنها، بإعادة رفع الراية الإنجليزية على دار القنصلية، وانسحاب وحدات الأسطول المحاصِر للمرسى، بعد أنْ حيَّتها بإحدى وعشرين طلقة من مدافعها، وأجابتها أبراج المدينة بمثلها، وقام القنصل المتعصِّب بزيارة حاكم المدينة زيارة رسمية.

وذلك أنَّ الحكومة الإنجليزية، تخلَّت عن مطالبها التعويضية في مقابلة التزام السلطان باحترام قراصينها لسفنها، كلَّما صادفوها في البحر، تنفيذاً للمخابرة التي راجت بينه وبين ملك إنجلترا كتابة في هذا الشأن.

وتعجَّب الناس من هذا الحلِّ المفاجئ غير المنتظر من إنجلترا في تلك الظروف الصَّعْبة، وتبيَّن لهم أنَّ شخصية ذلك القنصل لم تكن مُعتبرة كشخصية غيره ممَّن جاء بعده، وكان ذلك ابتداء تَحَوُّرٍ جديد في السياسة الإنجليزية نَحْوَ المغرب، ابتداء من سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (1245/1830).

هكذا تمَّت هذه المسألة الإنجليزية المغربية، وطُوِيَت صفحتها، وبقيت مسألة الحادثة النمساوية.

وقد تطوَّرت في أطوار أشد حَرَجاً وخلافاً من المسألة الإنجليزية.

## مسألة الحادثة النمساوية

كانت السفينة النَّمْساوية التي حُجزت وأُسرت من مرسى تْرِيسْتَا (Trieste)، وكان المجهِّز لها شخصاً معلوماً من كبار التُّجار متوجِّهاً فيها لريودوجنيرو (Rio de Janeiro) عاصمة البرازيل من القارة الأمريكية، ومعظم السِّلَع الموسوقة فيها لتجَّارها الإنْجليزيين، وتحتوي على قدر كبير من بوطات الزيت والخمور، وستمائة وأربعة وسبعين صندوقاً من

السلَع المختلفة المُتنوعة، وخصوصاً الشَّمْع والأدوية ومُركَّباتها، ومِدَجّات وعقود عقيقية مختلفة الألوان والأثمان، من منتوجات فْيينَّا (Vienne) [132].

وبمجرَّد وصولها إلى مرسى أبي رقراق، جُرِّدت من كلِّ ما يحميها، وجُعلت تحت حراسة أُمناء الديوانة، وأُسر بحَّارتها، ولكن عُوملوا بشيء من الإحسان، ثمَّ وُجِّهوا لفاس.

ولمَّا بلغ الخبر لطنجة، دُهش نواب الدول وقناصلهم وأخذهم الجزع والفزع.

ثمَّ طلب قنصلُ دولة الدَّانْمارك من المخزن أن يُسلِّم لَهُ الأسرى تحت ضمانته ومحافظته، حتى تتِمَّ المخابرة في شأنهم مع حكومتهم، فساعدت الحكومة المخزنية على هذا الطلب، لأنَّه أدرى بحالهم وكيفية معاملتهم.

وفي ثامن عشر أكتوبر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف (18 أكتوبر 1828/8 ربيع الثاني 1244)، وصلوا إلى طنجة، وسلَّموا للقنصل المذكور، وتحمَّل مجموع القناصل الأجانب بالنفقة عليهم، والقيام بسائر شؤونهم، ولمْ يكن بالمغرب إذْ ذاك ممثل سياسي خاص من دولتهم النمساوية، وإنَّما كان قنصل البرتغال مكلَّفاً بالمحافظة على حقوقها، وما يرجع من القضايا إليها.

وكان من المعلوم أنَّه سيتولَّى الكلام مع المخزن في هذه القضية، وإطلاق سراح الأسرى، وردِّ السفينة المحجوزة، ولكنَّ قنصليْ إنجلترا والدَّانْمارك تدخَّلا فيها.

وحيث إن المخزن لمْ يُعجِّل بالجواب عن مطالب الحكومة النَّمْساوية، فقد وجَّهت في أوائل شهر إبراير، سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (أوائل إبراير 1829/أواخر رجب 1244)، قِطَعاً من أسطولها الحربي تتجوَّل بسواحل المغرب.

وفي الرابع عشر من شهر مارس بعده (14 مارس/8 رمضان)، وصلت إحدى هذه القطع الحربية إلى مرسى طنجة، وعلى ظهرها مندوب من قبل الحكومة النمْساوية للمخابرة مع الحكومة المغربية، في كيفية حلِّ هذه القضية، فاتَّصل حيناً وهو في سفينته، مع قنصل الدانْمارك، المُكلَّف بالسَّهر على المصالح النمْساوية بالمغرب بدلاً من القُنْصُل البرتغالي، ورفض النُّزول إلى البرِّ، والاتِّصال بأولي الأمر من المغاربة بطنجة، وعلَّق ذلك على تحية أبراج المدينة رايته بمدافعها، ورد البحَّارة المأسورين إليه، والسَّفينة المحجوزة وما فيها من السلَع كذلك.

132) اثبت ابن زيدان في تاريخه قائمة هذه السلع وما قُوِّمَتْ مُفصَّلاً، ص 136 من ج 5.

وحيث إن الحكومة المخزنية رفضت مطالبه، فقد انْسحب من المرسى بعد يومين من وصوله إليها، ولم يُحصِّل على طائل.

ولكنه رجع يوم الحادي والعشرين من مارس (11 مارس/15 رمضان) مصحوباً بقطعتيْن من أسطوله الحربي، ونزل هذه المرة إلى البرِّ، دون تحية المدافع، وتسليم الأسري والسفينة المحجوزة، واستقبله قناصل الدول عند نزوله بالمرسى، تحت حراسة فرقة من العسكر، وتوجَّهوا به إلى قنصلية الدَّانْمارك.

وبمحضر هذا القنصل أجْرى في اليوم نفسه محادثة طويلة مع الحاكم المخزني بطنجة، ومندوب خاص من قبل جلالة السلطان والأمين الأول بالدِّيوانة.

وكانت النَّتيجة إطلاق سراح قبطان السفينة المحجوزة ومن معه من البحَّارة المأسورين، وصعدوا إلى سفنهم الحربية بالمرسي في الحين.

وفي الغد قام رؤساء السفن الحربية النمْساوية بزيارة رسمية لقناصل الدول، وطلبوا منهم الموافقة معهم على استرجاع السفينة المحجوزة، وجميع ما كان فيها من السِّلع، وأداء تعْويض في مقابلة حركة الأسطول ومجيئه إلى البوغاز.

ولكنَّ استرجاع السِّلع التي كانت بالسفينة المحجوزة صار متعسِّراً أو غير ممكن في الجُل، إنْ لمْ نقل في الكُل لفواتها.

وبعد ذلك ببضعة أيام، قَدِم إلى الرباط، أحد تُجَّار اليهود بتطوان وبيده أمرٌ من جلالة السلطان لأمناء المرسى، بأنْ يُسلِّموا له نصف السِّلع المطلوبة، وكان من الطبيعي أن يمتثل الأمناء للأمر السلطاني الصادر إليهم.

ولا يخفى أنَّ من جملة تلك السِّلع بوطات الخمور التي أريقت في البحر بأمر مخزني، والباقي منها، هو الذي تسلَّمه أمناء المرسى.

وعلى هذا، فإنَّ المندوب النمساوي لمْ يستوْف جميع مطالبه ولذلك رجع، يوم ثامن عشر إبريل سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (18 أبريل 13/1829 شوال 1244) إلى مرسى طنجة، ونزل إلى البرِّ، واجتمع مع حاكم طنجة المخزني بالقصبة، وقنصل الدَّانْمارك، وأُمناء الديوانة، وأجرى معهم محادثة طويلة بدون فائدة ولا جدوى، لأنَّ الهيئة المخزنية، رفضت تسليم السفينة المحجوزة، وجميع ما كان فيها من السِّلع، وانقطعت المخابرة في الثاني والعشرين من إبريل، (22 أبريل/17 شوال)، وانسحب الأسطول الحربي النمساوي إلى

مرسى الجزيرة الخضراء، بعدما صرَّح رئيسه بأنَّه سيعلن حصار سائر المراسي المغربية، ويُعرْقل التِّجارة فيها، ويُعْلن الحرب على سائر المراسي البحرية.

## هجوم النَّامْسا على العرائش، وأصيلا، وتطوان.

وبمقتضى ذلك، قُنْبل مرسى العرائش، يوم رابع يونيه سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (4 يونيو 1829/ فاتح حجة 1244)[133].

وأصيلا يوم الحادي والعشرين من يوليوز من السنة المذكورة (21 يوليوز 19/1829 محرم فاتح 1245).

وتطوان يوم الحادي والثلاثين من غشت والخامس والعشرين من شتنبر من السنة نفسها (31 غشت و20 شتنبر 1829/ متم صفر و7 ربيع الثاني عام 1245).

وبالعرائش، حاول النمساويون النزول إلى البرّ، ليتمكَّنوا من إفساد وإعدام سفينتيْن قرصانيتيْن مغربيتيْن، كانتا راسيتيْن بوادي لوكوس، ولكنَّهم حَبِط عملهم، ولمْ يَحْصُل إلاَّ ضرر خفيف للسفينتيْن المغربيتيْن، وأُصلح عطبهما في مُدَّة يسيرة، وبعد ذلك بعشرين يوماً تمكَّنتا من الخروج إلى البحر.

وأمَّا النَّمْساويون الذين حاولوا إفسادهما، فقد لَقُوا من المجاهدين المدافعين عنهما، مقاومة شديدة عنيفة، ومات منهم مائة قتلاً وغرقاً في الوادي، وقُطعت رؤوسهم، وحشيت بالملح ووجِّهت إلى فاس، وعُلِّقت على أبواب المدينة ليراها الناس.

وهكذا كان الأمر بالعرائش، فقد أظهر العرائشيون مقاومة شديدة.

وحَدَثَ بطنجة أنَّه في السادس والعشرين من يونيه سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (26 يونيو23/1829 حجة عام 1244) جاءت سفينة حربية من هذا الأسطول النمْساوي، وأرست بالمرسي، على مرمىً من أبراجها، ولمْ ترمها الأبراج بقنبلة واحدة، فغضب والي طنجة على الطبْجيين والطنْجيين، وعزل رئيسهم، وجلَّده وسجنه زجراً له على تهاونه وتكاسله.

---

133) وفي «الاستقصا» الهجوم على العرائش كان 3 ذي القعدة عام 1245 (26 ابريل سنة 1830)، ص 183، ج 4، طبع القاهرة. وص 30 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

ومع هذا كلِّه فإنَّ السلطان لم يسلِّم مطالب النَّامْسا، ولمْ يستسلم لتهديداتها، وأظهر كرمه، وتفضَّل بإطلاق سراح أسْرى العرائش.

فاغتنمت الحكومة النمساوية هذه الفُرْصة، وطلبت أواخر شهر اكتوبر من سنة تسع وعشرين وثمانمائة وألف (أواخر أكتوبر 1829/أوائل ربيع الثاني 1245) استيناف المذاكرة في إعادة السلم بين الدولتيْن وجاءت سفينة من سفنها الحربية عقب ذلك إلى طنجة فلمْ تحفل بها الحكومة المغربية، ورجعت على عقبها.

وإثْر ذلك استؤنفت المذاكرة بجبل طارق، بين المندوب النَّمْساوي وأحد اليهود المغاربة الذي كان هناك شبه قنصل مغربي، وطالت المُدَّة، واختلفت فيها الرسل والرسائل، بين جبل طارق ومراكش، لأنَّ السلطان لم يجعل لليهود التَّفويض التّام في شيء إلاَّ بعد عرضه عليه وتسليمه.

وأخيراً تَمَّ الاتِّفاق بين الطرفيْن، على إعادة السلم بين الدولتيْن، أواخر شهر إبراير سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (أواخر إبراير 1830/أوائل رمضان 1245)، بتسليم السفينة المحجوزة على حالتها التي هي عليها، دون السِّلع التي كانت فيها لفواتها، وتخلَّت حكومة النَّامْسا عَنْ جميع المطالب التي كانت تطالب بها.

وفي مقابلة ذلك، تخلَّى المخزن عن مطالبه القديمة بالدُّيون التي كانت بذمَّة الجمهورية الفينيسية القديمة.

وفي تاسع عشر مارس، سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (19 مارس 24/1830 رمضان 1245) أُمضي بجبل طارق على معاهدة إعادة الصلح والتجارة بين الدولتيْن.

وفي سابع مارس (7 مارس /12 رمضان) قبل ذلك، وصلت إلى أبي رقراق سفينة حربية نمساوية، وحيَّتْ المدينتيْن اللتيْن على ضفتيه : اليُمنى واليُسرى بإحدى وعشرين طلقة مدفعية، وأجابتها أبراج الرباط وسلا بمثل ذلك.

وكانت معها سفينة أخرى برتغالية، حاملة ضابطاً بحرياً، وعشرين بحَّاراً نَمْساوياً، نزلوا إلى البرِّ واستُقْبلوا استقبالاً حسناً، ثم اشتغلوا بإصلاح السفينة المحجوزة المهملة، منذ تسعة عشر شهراً.

وفي السابع والعشرين من إبريل (27 أبريل /4 قعدة) من السنة المذكورة تمَّ إصلاحها وأبحرت من أبي رقراق في الساعة الرابعة بعد الزوال قاصدة جبل طارق.

ويقول بعض المؤرخين الفرنسيين، إنَّ سبب هذه الحوادث النَّمساوية، هو أنَّه لم يكنْ للنامْسا ممثل رسمي بالمغرب كغيرها من الدول الأخرى، وأنه لَمَّا وجَّهت حكومة فْيِينَّا (Vienne) سفيرها إلى المغرب سنة خمس وثمانمائة وألف (1220/1805)، لم تُعيِّن قنصلاً بعده، وأنَّ المخزن لم يعتبرها لأجل ذلك، وأذِنَ لقراصنته في مهاجمة سفنها، وأسر رعاياها، لأنَّها غير معترف بها عنده، وذلك ممكن. وعلى كل حال، فإنَّ الحكومة النمْساوية لم تُعيِّن قنصلها الرسمي، الذي يُمَثِّلها لدى الحكومة المغربية إلاَّ سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف (1302/1885)، في العهد الحسني الأول.

قال في «الاستقصا»: [134] كانت هذه الوقعة سبباً في إعراض السلطان المولى عبد الرحمان عن الغزو في البحر، كما تقدَّم والاعتناء بشأنه، فإنَّه، رحمه الله، لمَّا أراد إحياء هذه السُّنة، صادف إبَّان قيام شوكة الفرنج، وَوُفُورِ عددهم وأدواتهم البحرية، وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدِّفاع والتَّجادل والنزاع، ويُهيج الضِّغْن بين الدولة العلية، ودول الأجناس الموالية لها، حتَّى كاد عقد المهادنة يَنْفَصِمُ، وأكَّد ذلك اتِّفاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر، وهو ما هو، فوجم السلطان، رحمه الله، وأعْمَلَ فكره ورَوِيَّته، فظهر له التَّوقُّف عن أمر البحر، رعياً للمصلحة الوقتية، ولقلَّة المنفعة العائدة من غزو المراكب الإسلامية.

وانْضمَّ إلى ذلك إعلان الدول الكبار من الفرنج، مثل الإنجليز، والفرنسيس بألاَّ لا تكون المراكب إلاَّ لمن يقوم بضبط القوانين البحرية، التي يستقيم بها أمره، وتحمد معها العاقبة، وتدوم بحفظها المودَّة على مقتضى الشُّروط.

ومن مُهِمَّات ذلك، ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها إليها، وتجارتها فيها، أي دولة كانت.

ومن هذه المُهِمَّات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكُرَنْتينات (Les Quarantaines)، وما يترتَّب عليها، إلى غير ذلك ممَّا فيه هوَسٌ كبير، فاشتدَّ عزم السلطان على ترك ما يُفضي إلى ذلك، وتأكَّد لديه إهماله لتوفُّر هذه الأسباب.

ولعمري إنَّ في تركه لمصلحة كبيرة لمن أمْعَنَ النَّظر فيها، وما يعْقِلها إلاَّ العالمون. انتهى كلام «الاستقصا».

134) ص 184 من ج 4، طبع القاهرة. وص 37 من ج 8 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

قلت : وهو في مَحلِّه في ذلك الوقت، إذْ لم يَبْقَ في ذلك العهد مساواة بين الدولة المغربية وغيرها من دول أوربَّا البحرية.

وكيف تُمكن الملاحة في البحر بين دولتيْن غير متساويتيْن في العلم والقوة والاستعداد، كإنجلترا مثلاً، ولاسيما بعد ظهور البُخار الذي كان المغاربة لا يعرفونه، وتَقدُّم الميكانيكيات، تقدُّماً فَنِّياً دقيقاً لا يكفي في معرفته التدريب السطْحي البسيط لاحتياجه إلى التَعلُّم في المدارس، وإتقان فنون أخرى، لابُدَّ من معرفتها، والتَّضلُّع فيها.

وهذا، زيادة على أنَّ إنشاء أسطول عصري في ذلك العهد مستوفٍ للشروط المطلوبة على فرض إمكان استيفائها، يتطلَّب مالية كبرى، وجهوداً عظيمة تضيق عنها خزينة الدولة في ذلك العصر، وإنشاء مدارس بحرية خاصَّة، يتخرَّج منها البحَّارة والربابين والرؤساء، وذلك شيء معدوم ومُتَعذِّر إيجاده لعدم وجود ما ينبني عليه، مع الاطِّلاع الكافي على القوانين الدولية التي تقرر إجراء العمل بها بين الدول في هذا الشأن، وهذا هو معنى قول مؤلف «الاستقصا» وما يَعْقِلُها إلاَّ العالمون.

على أنَّ القرصنة الفردية استقرَّتْ بالريف، واستمرَّتْ بعد ذلك زمناً طويلاً على مقتضى ما عند الأوروبيين.

وكانت تقوم بها قبيلتا بَقُّويَة وكَلْعيَة، ولم تنقطعْ إلاَّ منذ زمن غير بعيد، لمَّا دخل المغرب في طور سياسي جديد.

# المبحث الخامس

# القرصنة الفردية الريفية وانتهاؤها

فصَّل جاك كايي (Jacques Caillé) أطوارها التي تقلَّبت فيها منذ ابتدائها إلى انتهائها في كتابه الذي وضعه في قنصلية شارل ياكر شميد (Charles Jager Schmidt)، وما وقع فيها من الحوادث في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، ومَنْ بعده من الملوك إلى عهد السلطان المولى الحسن الأول، وأول عهد ولده السلطان المولى عبد العزيز[135]، ومداره ومُلخَّصه ومُضمَّنه، هو أنَّ الريفيين استمرّوا مُتمسِّكين بالقرصنة، ولم يمتثلوا أوامر السلطان المولى عبد الرحمان الصادرة بإلغائها، وصاروا يترصَّدون كل سفينة أجنبية مرَّتْ بشواطئهم، وحصل لها عطب أو توقَّفت عن الجرْي بسبب سكون الريح، أو جنحت إلى البرِّ، فيقصدونها في زوارقهم، وقواربهم، أو سنابكهم الصغيرة، وخصوصاً أهل قبيلتَيْ بَقُّوية، وكَلْعِيَة، ويستولون عليها، وعلى جميع ما يجدونه من السلَع فيها، وبعد ذلك يغرقونها، أو يحرقونها، ويقتلون ويأسرون رُكَّابها وبحّارتها، وكثيراً ما كانوا يقصدون السفن الإصبانية لقربها منهم، والإنجليزية، لتردُّدها على البوغاز، في طريقها لجبل طارق، وللبحر الأبيض المتوسط.

ونشأ عن ذلك قضايا ومشاكل عويصة مُتنوِّعة، وطال الأمد، وتوالى الهجوم وتعدَّد، منذ سنة تسع وأربعين وثمانمائة وألف (1265/1849) إلى سنة ست وتسعين وثمانمائة وألف (1313/1896).

فكانت تلك الحوادث والمشاكل القرصانية الريفية، تُرفع لقناصل وسفراء الدول بطنجة، ويرفعونها إلى جلالة السلطان بواسطة نائبه بطنجة، ويشتطُّ السفراء في مطالبهم على عادتهم، وتطول المخابرة، وقلَّما تأتي بنيتجة تُرضي الطرفيْن، لأنَّ الأوروبيِّين قبل رفع

135) ص 169 وما بعدها إلى صفحة 183.

شكايتهم كانوا ينتقمون لأنفسهم بأسر وقتل من قدروا عليه من أولئك الريفيين بعد الاستيلاء على زوارقهم وقواربهم وسنابكهم، مَهْمَا قدروا عليها، أوْ وجدوا لها سبيلاً.

وكان الرِّيفيون يأخذون الثأر لأنفسهم ويزدادون حِقْداً على الإصبنيوليين والإنجليزيين إلى أن اتسع الخرْق على الراقع، وضاق الطرفان ذرعاً أحدهما بالآخر.

وأخيراً تدخَّل قنصل فرنسا والمكلف بمصالحها بطنجة يَاكِرْشميد (Jagerschmidt) المتقدم الذكر في إصلاح الحالة، واتَّصل بأحد أعيان الريفيين، وذوي الحرمة والنفوذ بقبيلة كلعية، بواسطة نوابه، وطال الأمد، وخاب الأمل لكثرة الجدال، والمخابرة بينهم بطنجة، بلا فائدة، لاختلاف آرائهم ومطالبهم.

وفي أثناء ذلك، هجم الريفيون الكَلْعِيُون على سفينة فرنسية كانت ماخرة أمام شواطئهم، فأخذوها، واسْتَبَاحُوهَا، وأسروا بحّارتها، وباعوهم بأسواقهم، وتدخّل قنصل فرنسا المذكور في القضية إلى أنْ تمَّ فداء الأسرى، واسترجعهم بعد أداء تعويض مالي لمن كانوا في قبضته.

وقرَّر رفع القضية للسُّلطان بطلب تعويض مالي عن السفينة المستباحة، وأداء التعويض المالي الذي أدَّاه في فداء الأسرى.

ولكنَّ البلاد الريفية، كانت في حالة ثورة وغليان، ضدَّ الحكومة المخزنية، ولم تسكن الحالة حتَّى جدَّد السلطان إلغاء القرصنة، وتعهَّد بذلك وتَحمَّله، لاسيما بعد تبدُّل الحالة باستيلاء فرنسا على الجزائر، وما نشأ عنها من الحروب بينها وبين المغرب سواء في عهد السلطان المولى عبد الرحمان أو ولده السلطان سيدي محمد، كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك.

ولم تنته الحركة البحْرية الريفية نهائياً إلاَّ في عهد السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، وأول عهد ولده وخليفته من بعده السلطان المولى عبد العزيز، رحمه الله.

وذلك في حدود سنة ست وتسعين وثمانمائة وألف (1313/1896)، رجعت المياه لمجاريها، بعد حروب قرصانية ريفية دامتْ نحو سبع وأربعين سنة، أو ما يقرب منها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

## المبحث السادس

# الأسطول المغربي في عهد السلطان المقدَّس المولى الحسن الأول ومآله.

لمَّا آل المُلك إلى السلطان المُقدَّس المولى الحسن الأول، تشوَّفت همَّته العالية لاتِّخاذ أسطول مغربي، مجاراة للعصر الحديث في تطوره، قاصداً بذلك إحياء سنَّة السفر والملاحة في البحر وتجديد مراسمها، التي كانت مُعطَّلة من لَدُن أعوام الخمسين، من أيام جدِّه المولى عبد الرحمان، رحمه الله، كما تقدَّم، فاشترى عدة بابورات، وفرَّقها على مراسي المغرب بعضها كبير، وبعضها صغير، لِوَسْق السِّلع ووضعها.

وبنى أبراجاً هائلة على شواطئ البحر ببعض المراسي كطنجة، ورباط الفتح، وشحنها بمدافع تناسبها لحمايتها وحماية الأسطول الراسي بها أو المتردِّد عليها.

واتَّخذ من العدوتيْن وفاس وغيرها متعلِّمين أرسلهم إلى بعض الدول الأوروبية، بقصد تَعلمُّ اللغة الأجنبية، وعلوم الآلات الجهادية، فتعلَّم بعضهم ما استطاع تعلُّمه منها، إلاَّ أنَّ ذلك لمْ يأت بالنتيجة المقصودة منها، لعدم استعداد بعضهم للاشتغال بها، وبالعلوم المترتِّبة عليها، وأُمر بتعلُّمها، وكلٌّ ميسَّر لِمَا خُلق له، لاسيما وأنَّ ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات تمهيدية، وأصول ابتدائية، يَنْبَني عليها الخوْض فيها، والعمل بها، زيادة على أنَّ الدول الأوروبيَّة التي كانوا بها، رُبَّما كانوا لا يعتنون بشأنهم، بلْ كانوا يُثبِّطونهم عن أعمالهم، حرْصاً على عدم تقدم المغرب وبقائه على ما هو عليه، لاسيما وقدْ طغى تيار الاستعمار في ذلك العهد وتشوَّفوا كلُّهم لمدِّ اليد إليه، حسبما يوخذ ذلك من مواقفهم السياسية، ومعاهداتهم الدولية، الرَّامية إلى اقْتسامه بينهم، والسيْطرة عليه، وخصوصاً بعد احتلال الجزائر وتونس، وكلٌّ كان يعمل لمصلحته الخاصَّة به، كما يُعلم ذلك صراحة من أقوال وأفعال ذوي الأمر والرياسة فيهم.

هذا، ولمَّا حاول السلطان إحياء الأسطول والسيْر في البحر كما تقدَّم، أصدر أمره الشريف، كما نص عليه في «الاستقصا»[136]، و«زهر الأفنان»[137] للشيخ أبي العباس أحمد ابن خالد الناصري، لعامل سلا، وغيره من بعض العمّال الآخرين بما نصّه بعد الافتتاح والطابع الشريف :

«خديمنا الأرضى الحاج مُحمَّد بن سعيد السَّلاوي، وفَّقك الله وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، فنامرك أنْ تبحث في الثغر السلاوي عمَّن له خبرة بالرياسة البحرية، ويعرف كيف يسافر في البحر، ببابور الكوشْطَة ماهراً بذلك، بحيث لا يخفى عليه شيء من أمر تلك الرياسة، فإذا وجدت من قامت به الصفة المذكورة، فلا يخلو، إمَّا أنْ يكون متعدِّداً وإمَّا أنْ يكون مُنفرداً، وعلى فرض التعدُّد، فلابدَّ أنْ يكون البعض أقوى مهارة من البعض، فَلْتُبَيِّنْهُمْ لنا بأسمائهم وأنسابهم ومراتبهم في الرياسة، وما يُحسنه كلٌّ واحد منهم من ذلك على الانفراد، مع كونهم بلديين أو آفاقيين، أو البعض بلدي، والبعض آفاقي، حتَّى نكون علي بصيرة من أمرهم، واجعل يدك عليهم، ولْيكونوا على أُهبة لِمَا يرد عليك من قِبَلِنا، بحيث إذا ورد عليك أمرنا الشريف بما يكون فيهم، كانوا متيسِّرين، وإنْ لمْ تجدْ من قامت به تلك الصِّفة مُتعدِّداً، فإنْ وجدتَّ واحداً فقط فَسَمِّهِ أيضا باسمه ونسبه ورتبته في الرياسة، وليكن متهيِّئاً لِمَا يرد عليك من حضرتنا الشريفة، وإنْ لمْ تجدْ من قامت به تلك الصفة، ولكنَّه إذا أُريد تعليمه يَقْبلُ التعليم بسهولة، إمَّا لتقدُّم معرفة له بذلك، وإمَّا لكونه فَطناً، فكذلك بَيِّنْهم لنا بأسمائهم وأنسابهم، ومراتبهم في الذكاء والفِطْنة آفاقيين أوْ بلديين، وأَطْلِعْ عِلْمنا الشريف بكل ذلك على تفصيله عزْماً، والسلام.

في ثالث صفر الخير، عام تسعة وتسعين ومائتين وألف (3 صفر 25/1299 نونبر سنة 1881).»

ثم كتب لنائبه بطنجة أبي عبد الله مَحمَّد بركاش بما نصّه :[138].

«خديمنا الأرضى الطالب مَحمَّد بَرْكَاش، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله.

وبعد، فقد اقتضى نظرنا الشريف، تعْيين أُناس لتعليم تَرَايْسيتْ والمكينة، وعلم البحر، وأنْ يُفرَّقوا على نوَّاب بابورات، النَّجْليز، والفَرَنْصيص، والصَّبَنْيول، والألمان، والطَّلْيان، وعددهم ستة لكلِّ جنس، واثنان من الستَّة المذكورين يخصُّون بتعلم تَرَايْسِيتْ والمكينة،

136) ص 304 من ج 4، طبع القاهرة.

137) ص 304 من ج 2، طبع فاس.

138) مجموعة الظهائر والمكاتب الشريفة التي نشرها نَهْلِيلْ بباريس سنة 1915، ص 59.

بمدارس تَعلُّم ذلك العلم عند كل جنْس لمن ذُكر، وأربعة لتعلُّم علم البحر، وهم الذين يُفرِّقون على نواب البابورات المذكورين، ويكون صائرهم على جانب المخزن، إذ المقصود هو تعلُّمهم.

وعليه، فَكلِّمْ نواب الأجناس المذكورين في ذلك، وتَفاوضْ معهم فيه، وأعْلِمْنا بجوابهم لك فيه، لِنَأْمُرَ بما يكون عليه العمل في ذلك.

وعَجِّل ولابدَّ والسلام.

في عاشر رجب عام تسع وتسعين ومائتين وألف (10 رجب 28/1299 مايه سنة 1881).»

وقد كانت هذه الأوامر مُقترنة بشراء قِطَع من أسطوله الجديد التجاري والحربي.

قال ويزْجْربير (Weisgerber) في كتابه المسمى «على عتبة المغرب الجديد» (Au Seuil du Maroc Moderne) [139] : بقي علينا أنْ نقول كلمة عن الأسطول المغربي وقرصنته التي غزا بها مياه أوروبًا، وشنَّ الغارة على سائر شواطئ البحر الأبيض المتوسط، والبرتغال، ومع ذلك ففي آخر القرن التاسع عشر الميلادي (أواخر القرن الثالث عشر الهجري)، لمْ يبق منه إلاَّ أربعة قِطع ماخرة في شواطئ المغرب، متردِّدة على مراسيه، خافقة عليها الراية الحمراء المغربية.

وكان يتولَّى رياستها وقيادتها رؤساء بحريون تجاريون أوروبِّيون ألمانيون، أو اسكندنافيون.

ومن هذه البواخر التجارية :

*** البابور الحسني**

إشتراه السلطان المولى الحسن الأول، حسبما نص عليه والدنا الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في دفتره الخاص بمقيداته التاريخية[140] من إنجلترا سنة اثنتين وثلاثمائة وألف (1885/1302) بثلاثة وتسعين ألف ريال 93.000.

ومحموله مائة وألف طن (1100) وبحارته أربعون بحّاراً، واستعمله في نقل القمح والشعير والتبن للسواحل السوسية، لمَّا توجَّه إليها لإثبات الأمن فيها، وردِّ اليد العادية عنها

---

139) ص 84 طبع باريس سنة 1947.

140) مخطوط بالخزانة الناصرية السلاوية.

في السنة المذكورة، بقصد إرفاق الجيش وإعانته، فكانت قبائل دُكَّالة وتامَسْنا تحمل ذلك إليه لمرسى الجديدة، ومرسى الدار البيضاء، ومنهما يُحمل فيه إلى السُّوس.

وفي «زهر الأفنان» لأبي العباس الناصري أيضاً[141] أنَّه استعمل فيه عدة وافرة من شباب أهل العدوتَيْن سلا ورباط الفتح، فاستخدمهم بَحْرية ومتعلِّمين بمرسى طنجة، ولازال بعضهم به إلى هذا العهد، يعني عهد كتابته لذلك، رحمه الله.

وكان هذا البابور يتردَّد بين مراسي المملكة المغربية في أول عهد الدولة العزيزية، إلى أنْ اخْتفى واضمحلَّ الأسطول المغربي نهائياً حسبما سيأتي بعد هذا.

### * التُّرْكِي الكبير والتريكي الصغير

ثم صُنع له بمعامل ألمانيا البحرية، بابوران متوسِّطان، يُسمَّى أحدهما التريكي الكبير، والثاني التريكي الصغير.

وذلك في حدود سنة ثمان وثلاثمائة وألف (1891/1308). وأُضيف إليهما قطع أخرى صغيرة كانت مُعدَّة للقيام بأشغال المراسي المغربية.

ثمَّ أُلحق التريكي الصغير بمرسى العرائش، واستُعْمل فيها بينها وبين طنجة، وكان قبلُ مستعملاً في نقل مدافع كْرُوبْ إلى أحد أبراج الرباط.

وكان التركي الكبير، والبابور الحسني، يقومان بالشؤون المخزنية، ونقل الموظَّفين من شواطئ أطراف المغرب من طرفاية بالجنوب إلى الرِّيف بالشمال بقية مُدَّة دولة السلطان المولى الحسن الأول وشطراً من دولة ولده وخلفه السلطان المولى عبد العزيز، رحمهما الله، إلى أنْ ذهب هذا الأسطول المغربي وطُوِي بساطه.

### * الدارعة بشير الإسلام

في سنة تسع وثلاثمائة وألف (1892/1309)، أَوْصى السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، على صنع دارِعَة حربية من نوع طرَّاد، محمولها مائتان وألف (1200) طُنّ بمعامل ليفُرْنْ (Livourne) بإيطاليا، ولكنَّها لمْ تُسلَّم للمخزن إلاَّ سنة ست عشرة وثلاثمائة وألف (1899/1316)، يعني في العهد العزيزي.

---

141) ص 305 من ج 2، (المطبعة الحجرية الفاسية).

وأُطلق عليها اسم «بشير الإِسلام بخوافق الاعلام».

وكان بها عدَّة بطاريات مدفعية، وما يتبعها من أدوات حربية، وجعلها نواة لمَا كان يُؤمِّله من إحياء معالم الأسطول المغربي الحربي الدارسة، ورتَّب فيها نحو مائة من البَحَّارة، زيادة على القَوَمَة والخَدَمَة والموظَّفين، وكانت مرساها التي تُقيم بها عادة طنجة.

وقصد، رحمه الله، بشرائها حراسة الشَّواطئ الرِّيفية من القَرْصَنة الأجنبية، وإنزال السِّلاح المُهرب وغيره بها.

وكانت محلَّ اعتناء واهتمام ولده السلطان المولى عبد العزيز، رحمه الله، في أول عهده.

وأسْند النَّظر فيها لخديمه ونائبه بطنجة، السيد الحاج مُحمَّد بن العربي الطُّرِّيس التطواني.

وعيَّن فيها، زيادة على بحَّارتها وخدمتها من المغاربة والأوروبيين الفنيِّين، الإمام والوَاعِظ المُرْشد، والمقرئ، والموقِّت من الموظّفين الدينيين.

وأصدر لهم ظهيراً شريفاً يحضُّهم فيه على قيام كلِّ واحد منهم بما هو مُطوَّق به من الوظائف الدينية، والخِدْمة البحْرية.

وقد أثبته النقيب أبو زيد عبد الرحمان بن زيدان في تاريخه «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»[142]، واستمرَّتْ هذه الدَّارعة راسية بمرسى طنجة في غالب الأيام، وكانت تتردَّد من حين لآخر بين بعض المراسي المغربية الأخرى إذا اقْتضى الحال ذلك إلى أنْ كان ما سنذكره من مآلها، وانتهاء أمرها.

## بيع قطع الأسطول المغربي وانتهاء أمره.

كان السَّبب في بيع قطع الأسطول المغربي الذي كان السلطان المولى الحسن الأول، رحمه الله، يُؤمِّل أنْ يجعله نواة لأسطول مغربي يساير روح العصر، ويترقَّى مع الأيام، ويُحيي به ما سلف من عزٍّ غابر، ومَجْد داثِر للبحرية المغربية، هو أنَّه لمَّا اشتدَّت الأزمة المالية، وتضايقت حلقاتها، عَقِبَ سلَف سنة أربع وتسعمائة وألف (1322/1904) ومؤتمر الجزيرة الخضراء، وقلَّت المداخيل، وتعذَّر تنفيذ مشروع التَّرْتيب أو جمع الضرائب،

142) ص 505 من ج 2.

حتَّى يطبَّق ما قرَّره المؤتمر في شأنها، لم يَجِد المخزن ما يُسدِّد به نفقاته الخاصَّة وغيرها من حاجيات الدولة.

فاضْطرَّ حينئذ إلى بيع ما كان لديْه من قِطَع الأسطول للقيام ببعض الشؤون الضرورية، وقضاء بعض الديون الحالَّة المستعجلة واستراحة مِمَّا كان يُنْفِق عليْه، وعلى المُوَظَّفين القائمين به من الصَّوائر المتوالية الثَّقيلة.

قال ويزجيربير (Weisgerber) في كتابه المسمى «على عتبة المغرب الجديد» (Au Seuil du Maroc Moderne) [143] : تَمَّ بيع القطعة الجميلة الحربية «بشير الإسلام، بخوافق الأعلام» إلى كولومبيا (Colombie) بكيفية غَرِيبَة في إحْدى المقاهي الباريسية، قُرْبَ حيٍّ الأوبِّيرا، بعد منتصف ليلة من الليالي، بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيها من الزَّاهدين.

ثمَّ تبعتها الباخرتان الأخريتان المسمَّيتان «التريكي الكبير» و«التريكي الصغير» وتلتهما الباخرة المسمَّاة بـ «الحسني»، ولم يبق للمغرب في ذلك العهد علم يرفرف على وجه البحْر، وطُويت أعلام الأسْطول المغربي وقرصنته وحروبه من الوجود، وسبحان الحيّ الدّائم الموجود، الذي بيده الأمر، ويفعل ما يريد في الوجود.

**انتهى الجزء الخامس**

**ويليه الجزء السادس وأوّله :**

**«الرؤساء من آل عوّاد بِسلا»**

143) ص 154 والتي بعدها.

# الفهرس

**الفصل الأول : عن كيفية نشأة الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي، وأنواع سفنه، وكيفية تجهيزه، وعن قرصنته، وأسبابها، وموجباتها، وأقسامها، وأطوارها** ........................ 3

**المبحث الأول : الأسطول المغربيُّ بسلا ورباط الفتح ونشأته وقرصنته وتطوّره بأبي رقراق** ........................ 5

- تمهيد ........................ 5

- ما تتطلبه القرصنة وتستوجبه ........................ 10

- بعض أسباب ظهور القرصنة السلاوية الرباطية وموجباتها ........................ 11

**المبحث الثاني : أنواع سفن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي ووصفها** ... 13

- كالير، "Galères" ........................ 14

- طرّاد، "Tartane" ........................ 15

- بْرِيگانْتان، "Brigantin" ........................ 15

- شبّاك، "Chebec" ........................ 15

- پُولاكْر، "Polacre" ........................ 16

- كرافيل، "Caravelle" ........................ 16

- بيناس، "Pinasse" ........................ 17

- القراقر، "Carraque" ........................ 17

- سِينُّو، "Sennau" ........................ 17

- فَرْكَاطَة، "Frégate" ........................................ 18

- بَرَك، "Baraque" ........................................ 18

- فْلِيبُو، "Flibot" ........................................ 18

- پَاطَاشْ، "Patache" ........................................ 18

- گَالِيُوطْ، "Galiote" ........................................ 19

- استنتاج ........................................ 19

**المبحث الثالث : كيفية تجهيز الأساطيل القرصانية السلاوية الرباطية** ............ 21

- بعض فوائد القرصنة السلاوية الرباطية ........................................ 28

**المبحث الرابع : أقسام القرصنة السلاوية الرباطية وأطوارها** ............ 33

- الفترة الأولى ........................................ 33

* الطور الأول ........................................ 33

* الطور الثاني ........................................ 34

* الطور الثالث ........................................ 34

- الفترة الثانية ........................................ 34

- الفترة الثالثة ........................................ 35

**الفصل الثاني : عن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي في «العهد الانفصالي»، أو ما كان يسميه الأوروبيون «الجمهورية السلاوية الرباطية» وعن أهميته، وعدده، ونظامه، وبعض أعماله، وما ترتب عنها، وغير ذلك.** ............ 37

**المبحث الأول : الأسطول في «العهد الانفصالي» أو ما كان يسمى بـ «الجمهورية السلاوية الرباطية»** ............ 39

- بداية الأسطول السلاوي الرباطي ........................................ 39

**المبحث الثاني : أهمية الأسطول السلاوي الرباطي وعدده ونظامه»** ............ 43

المبحث الثالث : بعض الحيل التي كان يستعملها القراصنة لأخذ السُّفن غنيمة دون قتال ........................ 55

المبحث الرابع : كيف كان يستقبل السلاويون والرباطيون رؤساء الأساطيل إذا رجعوا بالمغانم» ........................ 59

المبحث الخامس : القرصنة بالشواطئ الإصبانية في أوّل عهدها ........................ 63

المبحث السادس : بعض أعمال الأسطول السلاوي الرباطي وما ترتّب عنها .... 65

المبحث السابع : موقف هولاندا وفرنسا من قرصنة العدوتين السلاوية والرباطية ........................ 75

المبحث الثامن : الفداء بواسطة رجال الدين والتجار ........................ 79

**الفصل الثالث : عن العلاقات السياسية والمواصلات التجارية وتعيين القناصل لهذا الغرض، بين أندلس العدوتين وأوروبا .... 81**

المبحث الأول : العلاقات السياسية بين أندلس العدوتين الرقراقيتين وأوروبا ... 83

المبحث الثاني : المواصلة بين قراصنة سلا ورباط الفتح وبعض دول أوروبا ... 91

المبحث الثالث : المواصلة التجارية بين قراصنة سلا والرباط وأوروبّا وتعيين القناصل ........................ 95

**الفصل الرابع : عن الأسطول القرصاني السلاوي الرباطي في عهد الدلائيين، وما نشأ خلاله من حوادث سياسية ومظاهرات عدائية أوروبية، وعن صدى ذلك في المجتمع المغربي آنذاك من خلال الشعر ........................ 105**

المبحث الأول : الأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته في عهد الدلائيين .......... 107

- حادثة سفينة الرئيس أحمد القرطبي ........................ 110

المبحث الثاني : نظم شيوخ الملحون قصائدهم في الإشادة بالأسطول السلاوي الرباطي وقرصنته ........................ 113

- التعريف بالشيخ ابن سليمان ........................ 113

- قصيدة القرصان ........................ 114

- قصيدة السلوانية ........................................ 118
- أرجوزة القصيدة «السلوانية» ........................................ 121
- القصيدة «السلوانية» للشيخ ابن قاسم، رحمه الله ........................................ 126
- حديث سلا ........................................ 132
- عرين الملك ........................................ 136

**الفصل الخامس : عن الأسطول المغربي في عهد دولة الأشراف العلويين، وكيفية تجهيزه، ونظامه، ونمط معيشة بحارته، وبعض أعماله.** ........................................ 139

**المبحث الأول : الأسطول المغربي بسلا ورباط الفتح في عهد الدولة العلوية** ..... 141
- تمهيد ........................................ 141
- ظهور المولى الرشيد ........................................ 143
- إخضاع أندلس القصبة وضم القرصنة والأسطول للدولة العلوية ............ 143
- كيفية تجهيز السفن بالرجال ........................................ 144

**المبحث الثاني : أعمال الأسطول والقرصنة في عهد المولى الرشيد** ........... 147

**المبحث الثالث : الأسطول المغربي السلاوي الرباطي والقرصنة في العهد الإسماعيلي** ........................................ 151

**المبحث الرابع : الأسطول المغربي والقرصنة في عهد السلطان محمد بن عبد الله** ........................................ 159
- بناء مدينة الصويرة ........................................ 161
- كيفية تجهيز الأسطول المحمّدي ........................................ 165
- تجنيد السلطان سيدي محمد بن عبد الله آيت عطة وعبيد تافيلالت في الجيش ........................................ 168

**المبحث الخامس : معلومات عن الأسطول الرباطي السلاوي أثناء قيامه بجهاده البحري** ........................................ 171

- ما كان يفعله رؤساء الأساطيل من الصدقة والدعاء عند الضرورة .......... 171
- كيفية معيشة بحارة الأسطول السلاوي الرباطي أثناء جولاته البحرية ....... 174
- كيفية حياة البحارة في سفن القرصنة السلاوية الرباطية .................. 175
**المبحث السادس : عظم الغنائم وكيفية قسمتها** ................................ 177

**الفصل السادس : عن دفتر الرئيس القبطان الحاج الطاهر بن الأميرال الحاج الهاشمي عوّاد** ................................ 183

**المبحث فريد : دفتر الرئيس الحاج الطاهر بن الحاج الهاشمي عوّاد وما احتوى عليه من أسماء البحرية والموظفين بالأسطول المغربي السلاوي الرباطي** ................................ 185
- الرؤساء ................................................ 188
- باش رايس ................................................ 189
- رياس عسّة ................................................ 189
- يكانجية ................................................ 189
- الدَمانجية ................................................ 190
- وارديانات ................................................ 190
- البحرية ................................................ 198
- وصفان سيدنا أهل المهدية ................................ 206
- عدد المقعدين من البحرية ................................ 206
- تقييد الطبْجية المدافْعية ................................ 210
- تقييد الطبجية من أولاد فنيش ................................ 216

**الفصل السابع : عن الأسطول المغربي في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وما بلغه من القوة والسطوة، وما قام به من أعمال لحماية الشواطئ المغربية، وما تخلّل ذلك من مظاهرات عدائية فرنسية ضد بعض المدن المغربية** ................................ 219

**المبحث الأول : موقف الأسطول الأوروبي من الأسطول المحمّدي وموقف الأسطول المحمّدي منه** ........................................ 221

- هجوم الفرنسيس على سلا والعرائش ورجوعهم عنها بالخيبة .................. 223

- بيع القمح للنصارى وتعويضه بالسلاح لتجهيز الأسطول .................. 230

**المبحث الثاني : بقية أعمال الأسطول المحمدي زيادة على الحرب البحرية** ...... 233

**الفصل الثامن : عن بداية ضعف الأسطول المغربي وتعطيل قرصنته في عهد السلطان المولى سليمان، ومحاولة إعادة بنائه وإحياء قرصنته، ونهايته في عهد السلطانين المولى عبد الرحمن والمولى الحسن الأول، وما واكب ذلك من الوقائع والأحداث** ........................................ 237

**المبحث الأول : بعض ما يتعلق بالأسطول المغربي في عهد السلطان المولى اليزيد بن محمد بن عبد اله** ........................................ 239

**المبحث الثاني : الأسطول المغربي في عهد السلطان المولى سليمان بن مُحمَّد** 241

- عنيمة الرئيس المزيمزي وفلوريش ........................................ 246

- توجه السفن السلاوية الرباطية للإسكندرية للإتْيان بولد السلطان منها بعد حجّهِ ........................................ 247

- إنشاء سفينتين بأمر سلطاني ........................................ 249

- رجوع الرئيسين فلوريش والمزيمزي من جولة بحرية .................. 250

- غنيمة الرئيس فلوريش وتفقد سفينته التي كانت بالرباط .................. 250

**المبحث الثالث : إبتداء ضعف الأسطول المغربي، وتقهقر قرصنته في عهد السلطان المولى سليمان** ........................................ 253

- مظاهرات حربية على السواحل المغربية وخصوصا العدوتين السلاوية والرباطية في عهد الدولة السليمانية ........................................ 254

- إلغاء الأسطول المغربي وتعطيل قرصنته ........................................ 255

**المبحث الرابع : محاولة إحياء القرصنة في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، رحمه الله تعالى** ........................ 259
- آخر عمل من أعمال قراصنة أبي رقراق ........................ 261
- مسألة الحادثة النمساوية ........................ 264
- هجوم النَّامسا على العرائش، وأصيلا، وتطوان ........................ 267
**المبحث الخامس : القرصنة الفردية الريفية وانتهاؤها** ........................ 271
**المبحث السادس : الأسطول المغربي في عهد السلطان المقدس المولى الحسن الأول ومآله** ........................ 273
* البابور الحسني ........................ 275
* التريكي الكبير والتريكي الصغير ........................ 276
* الدارعة بشير الإسلام ........................ 276
- بيع قطع الأسطول المغربي وانتهاء أمره ........................ 277

**الفهرس** ........................ 279